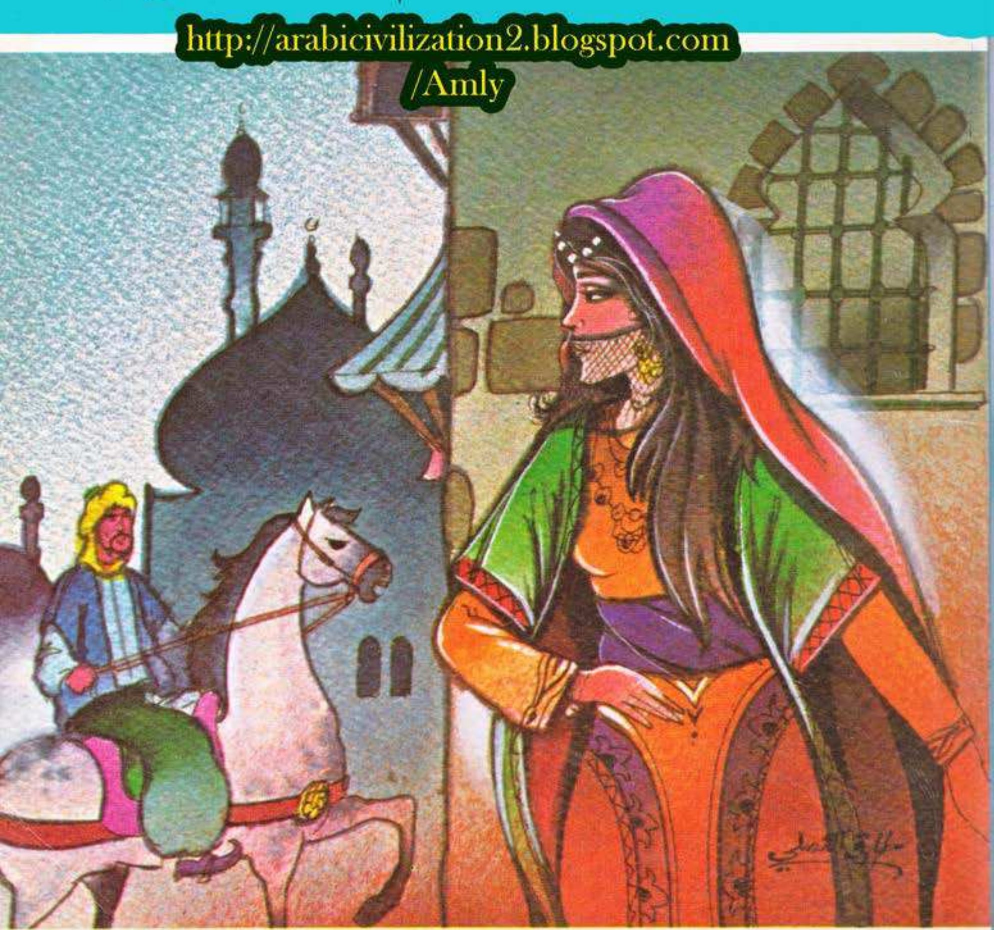
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

مُحمّد وأم كلثوم



دار الأندلس


محمد وأم كلثوم

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

عبد الملك بن مروان

تولى امر الخلافة وهو في التاسعة والثلاثين ، وقد خبر الزمان وعالج مصاعب الخلافة في ايام ابيه ، ولمس بيديه دهاء اهل الشام ووفاءهم للعرش الاموي .

وكان عاقلا حازما ، وداهية عالما ، ينظر الى الناس نظرة واحدة لا يبين منها غير مظاهر عدله ، ويحفظ في الصدر ، لكل واحـد من هؤلاء مـا يستحقه من اعجاب وحب ، وقد حفظ للعرش هيبته واحاط بالعظمة والجلال ذلك العرش ، لم ينزل قط عن كبريائه ، ولم يستخف به احد من وزراء دولته ورجال البلاط ، وعبد الملك ، اذا اراد امرا ، مضى فيه الى النهاية لا يبالي بما يخلقه الزمان ، ولا يعبأ بالاقاويل والاخبار تنشرها الالسنة في القطر العربي ، وهو قاس عند الحاجة ... وبطاش اذا اكرهته الحادثات... وكريم جواد يبذل المال ، في سبيل الملك ، كما كان يبذله معاوية ، ويشتري به اعداء الخلافة ، كما كان يشتريهم ذلك الداهية العظيم ، واضع الحجر الاول في مجد الامويين .

وكان يقول لمن حوله : « ما اعلم احدا اقوى على الخلافة مني ... ان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لا يصلح لبخله ان يكون سائسا » ، ولعبد الملك منزلة محترمة في الادب والفقه .

قال ابو زياد : « كان فقهاء المدينة اربعة ، سعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان .

وقال الشعبي : ما ذكرت احدا الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك فأني ما ذكرته حديثا ولا شعرا الا زادني فيه ، وقيل لعبد الملـك : أسرع اليك الشيب ، فقال :

شيبني ارتقاء المنابر ، وكان واسع الحيلة ، بعيد النظر ، صادق الرأي ، يستشير وزراءه والمقربين اليه في كل امر ، ثم يعود الى رأيه عندما يرى ان المشورة لا تنفع ، يفعل ذلك وهو يبتسم لهم كأن الصواب فيما رأوه .. ثم يعمد الى تنفيذ فكرته بهدوء وايمان لا يتردد ولا يرجع ، وله في سياسة الدولة ، واختيار الرجال ، اسلوب خاص قد لا تجد في الشام من يستطيع ان يجاريه فيه . ينتهر المحسن ، ويبتسم للمسيء ... يعطي اعداءه ويغض طرفه عن المخلصين ، واذا دخل عليه المترددون في طاعتـه هش لهم كأنهم اركان ملكه وقربهم اليه ..

وقد عرف رجاله هذاالاسلوب، وكانوا يقولون : الويل لرجل تغمره ابتسامة عبد الملك ، وكان الوزراء واهل المشورة ، كثارا في البلاط ، بينهم قبيصة بن ذؤيب ، صاحب الخاتم ، الذي كان من اقرب الناس الى مولاه ؛ يدلك على ذلك ان عبد الملك امر حجابه بأن لا يحجبوا قبيصة عنه وان يأذنوا له في الدخول عليه ، في الساعة التي يشاء ، واذن له هو نفسه ، في الاطلاع على كتب العمال وسياسة الاقاليم ، قبل ان يعرفها هو ، فكانت الاخبار تأتي قبيصة ، قبل ان تأتي امير المؤمنين ، ولقبيصة رأي في جميع السياسات، هو رأي الحكيم العاقل الذي يعالج امور الدولة بالاناة واللين ، وروح بن زنباع الجذامي ، من اجل الناس عند عبد الملك ومن اعظمهم مقاما في مجلسه ..

اجل كان روح من رجال الدولة الذين لهم كلمتهم في السلم والحرب، وهنالك طائفة من اهل السياسة ، وقواد الميادين ، يستشيرهم عبد الملك في شؤونه ويرسل بعضهم ، على رأس الجيش ، الى ساحات القتال ، أضف الى هؤلاء ، طـائفة اخرى من الخاصة والندماء والشعراء تجمعهم مجالسه ، فيسمعونه الشعر ، ويروون له الحكايات والاخبار ، بين خاصته عمر بن بلال الاسدي ، وبين الشعراء ، الاخطل وجرير ، وسيجيء ذكر هؤلاء ، ولعبد الملك نساء كثيرات ، احبهن اليه ، ماتكة بنت يزيد بن معاوية . وهي ام يزيد ومروان ولدي عبد الملك ، وكان قبل الخلافة ، متعبدا ناسكا والناس يلقبونه بحمامة المسجد ، فلما أتته الخلافة ، كان قاعدا والمصحف في يده فقال : هذا آخر العهد بك ...

وهو اول من سمي بعبد الملك ، في الاسلام ، واول من غدر ، كما

ستقرأ ، واول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء لا يجسر احدهم على ان يقول كلمة الا اذا اذن له .

★★★

٢

عبد الله بن الزبير

قال يحيي بن وثاب : وكان ابن الزبير اذا سجد ، وقعت العصافير على ظهره تظنه حائطا لسكونه ، وطول سجوده ، وقال غيره :

جعل عبد لله حياته ثلاث ليال : ليلة قائم حتى الصباح ، وليلة راكع حتى الصباح ، وليلة ساجد حتى الصباح ...

وجاء في تاريخ ابن الاثين : اول ما علم من همة ابن الزبير . انه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي ، فمر به رجل فانتهرهم ففروا ، فمشى ابن الزبير القهقرى

وقال : اجعلوني اميركم وشدوا بنا عليه .. ففعلوا ، ومر بهم وهم يلعبون ، عمر بن الخطاب ، ففر الغلمان ووقف هو ، فقال له عمر : لماذا لم تفر انت ؟

فقال : لم اكن مجرما فاخافك ، ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك .

وقال خالد بن ابي عمران : كان ابن الزبير يفطر في الشهر ثلاثة ايام ، ومكث اربعين سنة لم ينزع ثيابه عن ظهره ..

وقال مجاهد : لم يكن باب من ابواب العبادة يعجز عنه الناس الا تكلفه ابن الزبير ، ولقد جاء سيل طبق البيت الحرام ، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة .

وقال هشام بن عروة : كان عمي ، وهو صغير لا يضع السيف من يده ، وكان جدي الزبير يقول له كلما رآه : « والله ليكونن لك من السيف يوم بل ايام .. »

اجل ، كان خليفة الحجاز ، كبير الهمة ، كثير العبادة ، تطمح نفسه الى الخلافة وهو يمشي اليها بقدم هادئة ثابتة كما رأيت ، ولكنه لم يكن داهية في سياسته • ولم يحسن اختيار الرجال الذين يمهدون له ذلك الطريق الصعب

زد على ذلك انه لم يكن ذلك الرجل الجواد ، الذي يبذل ماله من اجل غايته ويشتري به الوسائل التي ترفعه الى العرش ، وهنالك شيء آخر كان يبعده عن الخلافة ، كلما دنا منها ، هو وجود الحسين ، رضي الله عنه ، في القطر الحجازي ، كان يعلم ان الحسين احق منه ، وان اهل الحجاز يعترفون له بهذا الحق ويؤثرونه على جميع الناس ، وهو لا يستطيع ان يدعو الناس الى المبايعة والحسين حي ، فلما قتل الحسين ، جعل البيت الحرام ملجأ له ، وراحت رسله ، من وراء الستار ، يسألون الحجازيين ان يكونوا اعوانا له ، في دعوته ، ثم خرج هؤلاء الرسل والانصار ، من وراء الحجاب ، وعرف المسلمون في كل قطر ، ان ابن الزبير اظهر الدعوة ، وهو معتصم بالبيت •

ثم كانت حوادث المدينة ، وخروج عبد الله بن حنظلة على يزيد بن معاوية كما عرفت ، ثم انتهى الامر الى واقعة الحرة ، وزحف مسلم بن عقبة الى مكة ، حتى مات مسلم ، ولحق به بعد زمن قصير ، يزيد بن معاوية ، والحصين بن نمير يضرب الكعبة بالمنجنيق ، وقد قرأت كل ذلك في اجزاء رواية فتاة الشام •

★★★

٣

نحن اليوم في السنة الخامسة والستين ، وللاسلام خليفتان •• عبد الملك بن مروان في الشام ، وعبد الله بن الزبير ، في الحجاز •••

ولم يبق الا ان ينظر كل خليفة ، في امور دولته ، هذا يفكر في جعل العراق والحجاز خاضعين له ، وهذا يريد ان يضم الشام ومصر الى ملكه ، والاثنان يستعينان بالرجال واهل الميادين •

على ان عبد الملك ، كان أبعد نفوذا ، واكثر مالا ، واطول سيفا ، من خليفة الحجاز ، والعرش في نظره ، فوق كل شيء ، لا يبالي بالمال يجود به ،

والرجال يقذف بهم الى هاوية الموت من اجله .

ورجال الشام ، اوسع حيلة ، واكثر دهاء وخبرة من رجال الحجاز والعراق ، اولئك جيران الروم ، يخلق لهم حب التوسع كل يوم ، حربا جديدة ، يخوضون مجالها ويعالجون اسبابها ، ويرون فيها مظاهر القوة والتضحية والفن . وهؤلاء اهل فساد وفتن ، بينهم الخوارج يسعرون النار في الاقاليم ، ويمدون اصابعهم في كل قطر ، لا ينظرون الى الخليفة كما ينظر الشعب الهادىء الى راعيه ..

اهل الشام يجعلون اجسامهم سورا للخلافة ، ويبيعون ارواحهم ، في ساحات الموت ، من اجل الخليفة الذي اختاروه . واهل العراق يبيعون هذه الارواح في ميادين الفتنة ويشهرون السيف في وجه الجالس على العرش ، اولئك يحاربون ليوطدوا اركان الملك ... وهؤلاء يحاربون ليهدموا ويحطموا هذه الاركان .

اجل ، ان في بلاد ابن الزبير ، حربا اهلية يسعر نارها الخوارج ، نافع ابن الازرق ، على رأس طائفة من قومه ، يحمل السيف في ضواحي البصرة.. ولنجدة بن عامر في البحرين ، وفي اليمامة ، يدعو الناس ويكثر حوله الانصار .

وكان ابن الزبير قد ولى المهلب بن ابي صفرة خراسان والقوم في البصرة يسألون الاحنف بن قيس ان يتولى حرب الخوارج ، فقال لهم :

اسألوا المهلب ان يتولى الامر فهو فارس الهيجاء وصاحب الرأي ، فخرج اليه الاشراف فكلموه ، فأبى ، ثم اتاه الحرث بن ابي ربيعة يسأله ان يفعل فاعتذر بعهده على خراسان قائلا :

اني ذاهب اليها وليس لي ان اتولى حرب الخوارج دون ان يأذن لي في ذلك امير المؤمنين ، وهو يعني ابن الزبير ، والحرث بن ابي ربيعة امير البصرة ، كما علمت ، فارسل اليه كتابا عن ابن الزبير يأمره بالقتال فلما قرأه قال : والله لا أسير اليها الا ان تجعلوا لي ما غلبت عليه وتعطوني من بيت المال ما اقوي به من معي من الرجال ، فأجابوه الى ذلك وكتبوا كتابا بعثوا به الى ابن الزبير فامضاه ، فاختار المهلب من اهل البصرة اثني عشر الفا ، وخرج الى قتال الخوارج وهم عند الجسر الاصفر يهمون بالدخول ، وكانوا قد ظفروا باهل البصرة من قبل وقتلوا منهم طائفة كبيرة من رجال الشدة

والبأس ، فدفعهم عن الجسر ، ثم لحق بهم يضربهم ويضربونه حتى تفرقوا وقد قتل منهم خلق كثير .. وقام المهلب مكانه ينتظر امرا آخر ، وانتهت الاخبار الى ابن الزبير ، ان نجدة ابن عامر قتله اصحابه في قرية من قرى هجر ، واختاروا لهم رئيسا آخر هو ابو فديك ، عبد الله بن ثور ، فانصرف عندئذ الى بناء الكعبة وكانت جدرها قد مالت من حجارة المنجنيق وعزل اخاه عبيدة بن الزبير عن المدينة وجعل اخاه مصعبا عاملا له .

وانتهت السنة الاولى من ملكه ، وليس فيها من الحادثات ما يستحق الذكر ، وكان على المدينة مصعب ، وعلى الكوفة ابن مطيع ، وعلى البصرة الحرث بن ابي ربيعة المخزومي ، وعلى خراسان عبد الله بن خازم، لان المهلب لم يذهب اليها كما عرفت



٤

عندما قتل سليمان بن صرد ، سيد اهل الشيعة في الكوفة وبعض رفاقه ، رجع الى الكوفة من بقي من اصحابه ، وهم يفكرون في الامر الذي انتهوا اليه .

وكان المختار بن ابي عبيدة الثقفي في السجن بأمر عبد الله بن يزيد وابرهيم بن محمد بن طلحة ، عاملي الكوفة ، فلما عرف ان سليمان قد قتل، وان اصحابه قد رجعوا الى الكوفة وهم يحملون نعيه ، كتب اليهم من السجن يثني على جهادهم ويعدهم بالنصر ويقول لهم انه هو الذي امره محمد بن علي المعروف بابن الحنفية بطلب الثأر ، فقرأ كتابه رفاعة بن شداد ومن حوله من المتشيعين ، فارسلوا اليه عبد الله بن كامل يقول له : ان هوى المتشيعين فيك فان شئت ان يأتوك ويخرجوك من السجن فعلوا فقال :

اني اخرج في هذين اليومين فقد ارسلت الى ابن عمر بن الخطاب اسأله ان يشفع في الى العاملين ..

وقد صدق المختار فان ابن عمر كتب الى عبد الله بن يزيد وابرهيم بن محمد يشفع فيه ، فخليا سبيله بعد أيام وحلفاه ان لا يبغيهما غائلة ما بقي

لهما في الكوفة سلطان فحلف لهما وخرج حرا ، وجعل يقول لرجال الشيعة الذين انضموا اليه : ان خروجي عليهما خير من كفي عنهما ..

ومرت ايام واصحابه يكثرون وامره يقوى حتى عـزل ابن الزبير ، عبد الله وابرهيم عن الكوفة واستعمل على عملهما عبد الله بن مطيع ، وكان عبد الله شجاعا ، فلما قدم الكوفة ، صعد المنبر فقال :

اما بعد فان امير المؤمنين ارسلني اليكم وامرني بان اتبع وصية عمـر ابن الخطاب التي اوصى بها عند موته ، وسيرة عثمان بن عفان ، فاتقوا الله ، واستقيموا ولا تختلفوا واحفظوا السنة سفهائكم فـان لم تفعلوا فلومـوا انفسكم ، فقام السائب بن مالك الاشعري فقال : ما نرضى الا بسيرة علي ابن ابي طالب التي سار بها في بلادنا حتى هلك

وقام يزيد بن انس فقال : صدق السائب وبر

فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة احببتموها ، ثم نزل ، وكان قد جعل على شرطته ، اياس بن ابي مضارب من بني عجل ، فاتاه اياس فقال : ان السائب ابن مالك ، من رؤوس اصحاب المختار ، فابعث الـى المختار ليأتيك ، فاذا جاء فاجعله في السجن حتى يستقيم امر الناس ، فبعث ابـن مطيع ، زائدة بن قدامة ، وحسين بن عبد الله فقالا للمختار : اجب الامير

فعول على الذهاب ، فقرأ زائدة : واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ... « الآية »

فالقي المختار ثيابه فقال:اني لاجد بردا شديدا فارجعا الى الامير وقولا له اني مريض لا استطيع ان اسير اليه ، فعادا الى الامير فخبراه ، فتركه ، ودعا المختار اصحابه واراد ان يثب في الكوفة في شهر محرم مـــن السنة السادسة والستين

فقال عبد الرحمن بن شريح لطائفة من الاشراف : ان المختار يريد ان يخرج بنا ولا نعلم أأرسله ابن الحنفية ام لا ، فانهضوا بنا الى ابن الحنفية نسأله عن ذلك ، فان امرنا باتباعه تبعناه ، وان نهانا عنه اجتنبناه فوالله مـا ينبغي ان يكون شيء في الدنيا خيرا من سلامة ديننا ..

قالوا : اصبت

وخرجوا يريدون محمد بن علي ، فلما رأوه سألهم عن حال الناس ،

فخبروه ، وذكروا له امر المختار ، واستأذنوه في اتباعه ، فذكر فضيلة اهل البيت والمصيبة بقتل اخيه الحسين ثم قال : والله لوددت ان الله انتصر لنا بمن شاء من خلقه ، ولو كره ذلك لقال لهم: لا تفعلوا، فعادوا، والناس فيالكوفة ينتظرون رجوعهم ، وقد خاف المختار ان يعودوا بامر يخذل الشيعة .

فلما قدموا دخلوا على المختار قبل ان يمروا ببيوتهم فقال لهم : مـــا وراءكـــم ؟

قالوا : لقد امرنا بنصرك

فقال : الله اكبر .. اجمعوا الشيعة ، فدعوا من كان قريبا ، فقال لهم : ان بعض اشرافكم ارادوا ان يسألوا الامام المهدي عن الامر الذي قدمت من اجله ، فخبرهم اني وزيره ورسوله وامرهم بالطاعة والطلب بدماء اهل البيت

وقال عبد الرحمن بن شريح:ان ابن الحنفية امرنا بما قال المختار فتهيأوا

فقال بعض اصحابه : ان اشراف الكوفة مجمعون على القتال مع ابن مطيع ، فان اراد بن الاشتر ان يكون عونا لنا عليهم كان لنا النصر .. ان ابرهيم سيد قومه ، وابن رجل شريف له عشيرة ذات عدد وعز .

فقال المختار : اذهبوا اليه واسألوه ، فذهبوا ، وذكروا له ما كان عليه ابوه ، من ولاء علي بن ابي طالب واهل بيته ،

فقال : اطلب بدم الحسين على ان تولوني الامر

قالوا : انت لذلك اهل ، ولكن المختار قد جاء من عند المهدي وهـــو الذي امر بالقتال ، فسكت ولم يجب ، وانصرفوا هم فخبروا المختار، فمكث ثلاثة ايام ، ثم سار اليه ومعه بضعة عشر رجلا من سادة الناس ، فألقي لهم الوسائد فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ثم قال : هذا كتاب من المهدي محمد بن علي امير المؤمنين ، وهو خير اهل الارض اليوم ، وابن خير اهلها قبل اليوم ، بعد انبياء الله ورسله ، وهو يسألك ان تخرج معنا الى القتال .

وكان الكتاب مع الشعبي ، فدفعه اليه فقرأه فاذا فيه :

« من محمد المهدي الى ابرهيم بن الاشتر سلام عليك ، اما بعد فاني قد بعثت اليكم وزيري واميني الذي ارتضيته لنفسي وامرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء اهل بيتي ، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فانك

ان تنصرني كانت لك بذلك عندي فضيلة ولك اعنة الخيل ، وكل جيش غاز، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة واقصى بلاد الشام »

فلما فرغ من القراءة قال : قد كتب الي ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت اليه ، فلم يكتب مرة الا باسمه واسم ابيه •

فقال المختار : ذلك زمان وهذا زمان •

ومن يشهد ان هذا كتابه ؟ فشهد بعض من معه الى الشعبي ، فتأخر ابرهيم عن صدر فراشه واجلس المختار عليه ، وبايعه ، ثم خرجوا فقال ابرهيم للشعبي : رأيتك لم تشهد مع القوم أفترى انهم شهدوا على حق ، فقال : هؤلاء سادة القراء وفرسان العرب ولا يقول مثلهم الا حقا ، فكتب اسماءهم وتركها عنده ، ثم دعا عشيرته ومن اطاعه ، وجعلوا يدخلون على المختار ويخرجون ، وهم ينظرون في الامر ، ويتهيأون للقتال ، حتى اجمعوا على الخروج ، في الليلة الرابعة عشرة من ربيع الاول ، وعرف ذلك ابن مطيع، فدعا رجال الحرب وامرهم بان يتصدوا للمختار في خروجه ، ويفسدوا عليه امره

ولكن هؤلاء الرجال لم يثبتوا في المجال بل تراجعوا مضطربين ، وقد قتل اياس بن مضارب صاحب الشرط ، وولده راشد ، وفر ابن مطيع لاجئا الى دار احد اصحابه

وقد اصبح المختار ، بين ليلة وضحاها ، سيد الكوفة واشراف الناس في اروقة القصر وعلى بابه يستأذنون في الدخول ،

ثم اقبلوا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء اهل البيت ، ثم قيل له ان ابن مطيع في الكوفة في دار احدهم ، فبعث اليه بمئة ألف درهم وقال له : تجهز بهذه واخرج •

وأقبل يعطي اصحابه ويحسن السيرة ويجالس الاشراف ، ثم جعل على شرطته ، عبدالله بن كامل الشاكري ، وعلى حرسه كيسان ابا عمرة ، واول راية عقدها المختار ، كانت لعبدالله بن الحرث اخي الاشتر ، على ارمينية وجعل محمد بن عمير على اذربيجان ، وعبد الرحمن بن سعيد على الموصل ، واسحق بن مسعود على المدائن •

وكان ابن الزبير قد استعمل على الموصل محمد بن الاشعث بن قيس ، فلما ولى المختار عبد الرحمن بن سعيد ، سار محمد منها الى بلد

آخر ، ثم الى الكوفة فبايع كما بايع الناس ، ولم يكن للمختار همّ بعد تربعه في مقعد الامارة ، غير اولئك الرجال الذين استحلوا دم الحسين ودماء اصحابه ، وكان يفكر في القضاء عليهم لا يستثني احدا ولا يعفو عن احد .



٥

قتلة الحسين

كان مروان بن الحكم قد ارسل عبيد الله بن زياد على رأس جيش الى العراق وامره بأن ينهب الكوفة وجعل له كل بلد يظفر بأهله .

ولكن ابن زياد اقام بالجزيرة يعالج امر الخارجين عن طاعة مروان ويحاول اخضاع زفر بن الحرث صاحب قرقيسيا الذي كان على طاعة ابن الزبير .

ومكث هنالك حتى توفي مروان ، وتولى بعده ابنه عبد الملك ، وابن زياد عاجز عن اخضاع زفر ، ومن معه من بني قيس .

فأقبل الى الموصل يريد ان يضع يده على ارضه ، وامير الموصل ، عبد الرحمن بن سعيد، الذي ولاه المختار ، فكتب عبد الرحمن الى مولاه، وتنحى الى تكريت .

فدعا المختار يزيد بن انس الاسدي ، وامره بالمسير الى قتال ابن زياد ، على ان يمده بالجنود .

فقال يزيد : دعني اختار الرجال ، فأجابه ، واختار ثلاثة آلاف رجل وخرج من الكوفة .

فخرج المختار والناس يشيعونه ، فقال لهم :

اسألوا الله لي الشهادة .

وكان المختار قد كتب الى عبد الرحمن يأمره بأن يخلي بين يزيد وبين البلاد •

فسار يزيد ، وظفر بجيش الشام ، ولكنه لم يلبث حتى مات حتف انفه ، وعول الجيش ، بعد موته ، على الرجوع •

فقال المختار لابرهيم بن الاشتر : خذ سبعة آلاف رجل وسر الى الموصل ، فاذا لقيت جيش يزيد بن انس فاردده وانت اميره حتى تلقى ابن زياد •

فانصرف ابرهيم ، ومعه الجيش ، فلما سار ، اجتمع اشراف الكوفة عند شبث بن ربيعي وجعلوا يقولون : لقد امسى المختار اميرنا بدون رضانا واعطى موالينا فيئنا ولم يبال •

وكان شبث شيخهم فقال : اصبروا حتى ألقاه •

وسار اليه فلم يدع شيئا انكروه الا ذكره له ، والمختار يقول : انا ارضيهم واعطيهم ما يحبون ••

حتى ذكر له امر الموالي ، فقال : أتقاتلون معي بني امية وابن الزبير، وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه ، اذا انا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم ؟

فقال شبث : اخرج الى اصحابي فاذكر لهم ذلك •

وغادر القصر على ان يعود بعد ساعة ••

ولكنه لم يرجع •• وقد عول القوم على القتال • وخرجوا على الخيل يدعون الناس •

فلما بلغ المختار خروجهم ، بعث برجل الى ابن الاشتر يسأله ان يتعجل في الرجوع مع الجيش •

ثم بعث الى شبث بن ربيعي ، وشمر بن ذي الجوشن ، ومن معهما يقول لهم :

خبروني ما تريدون فاني صانع ما احببتم •

قالوا : نريد ان تعتزلنا فقد زعمت انك رسول ابن الحنفية ولست رسوله ••

قال : ارسلوا اليه وفدا وارسل انا وفدا آخر وانتظروا جوابه ••

وهو يريد ان يكفوا عن القتال ، ريثما يعود ابن الاشتر •

ولكن القوم كانوا قد شهروا السيف ، وانتهى الامر .

على ان ابرهيم لم يلبث حتى عاد ، وهو يحمل الموت على شفرة سيفه ، وعلى سنان الرمح ..

وكان نصيب الكوفيين ، قتلة الحسين ، من ذلك القتال ، هزيمة قبيحة وفشلا فيه العار والذل .

وقتل منهم طائفة كبيرة جميعها من وجوه الناس ، ثم حمل الى المختار طائفة اخرى من الاسرى ، فأمر باحضارهم ، ثم جعل يعرضهم ويقول : انظروا من شهد منهم قتل الحسين .

فأخذا يذكرون له اسماءهم واحدا بعد واحد وهو يأمر بقتلهم حتى بلغ عدد القتلى مائتين وثمانية واربعين قتيلا ...

وجعل اصحابه يقتلون اعداءهم ..

فلما رأى ذلك ، امر باطلاق من بقي وارسل مناديه ينادي في اسواق الكوفة واحيائها :

كل من اغلق بابه فهو آمن ، الا من اشترك في دماء آل محمد فلا أمان له ..

وكان عمر بن الحجاج في الكوفة ، وابنته امامة وزوجها عبد الرحمن ابن مسلم ، في منزل لهما

وقد عرفت الاشخاص الثلاثة من رواية فتاة الشام

فلما سمع عروة النداء ركب فرسه ومشى في طريق واقصة ولم يسمع له خبر حتى الساعة ...

ذلك ما يقوله ابن الاثير ،

وقيل ، ادركه اصحاب المختار ، وقد سقط من شدة العطش فذبحوه واخذوا رأسه

ثم بعث المختار غلاما له في طلب شمر بن ذي الجوشن فلما دنا منه ، قال شمر لاصحابه : تباعدوا عني ليطمع فيّ

ففعلوا ، فدنا الغلام منه ، فحمل عليه شمر فقتله ، وسار حتى نزل قرية يقال لها الكلتانية على شاطىء نهر ، ثم دعا رجلا من اهلها فضربه وقال : امضي بكتابي هذا الى مصعب بن الزبير ،

فمضى الرجل حتى دخل القرية ، وفيها ابو عمرة صاحب المختار ، فلقي رجلا آخر فشكا اليه ما لقيه من شمر ،

وبينا الاثنان يتكلمان مر بهما رجل من اصحاب ابي عمرة اسمه عبد الرحمن بن ابي الكنود ،

فرأى الكتاب ، وعنوانه : الى مصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن ، فقال للرجل : أين هو صاحب الكتاب ؟

فدله على مكانه ، وهو على ثلاثة فراسخ

فأقبل يسير اليه ومعه الرجال بالسلاح ، حتى انتهوا الى ذلك الموضع ، فهرب القوم تاركين خيلهم الا شمر ، فقد اتزر ببرد وجعل يطاعنهم بالرمح ..

وكان اصحابه قد فارقوه ، فلما ابتعدوا عنه ، سمعوا التكبير وقائلا يقول : قتل الخبيث ابن ذي الجوشن ،

وخرج اشراف الناس من الكوفة فلحقوا بالبصرة ، واعد المختار عدته لقتل من بقي من رجال كربلاء وكان يقول لخاصته :

ليس من الدين ان تترك قتلة الحسين احياء .. بئس ناصر آل محمد انا ، اذا تركت هؤلاء ، اني اذن الكذاب كما سمعوني ، واني أستعين بالله عليهم فسموهم لي ثم اطلبوهم حتى تقتلوهم وتطهروا الارض منهم .. فدلوه على عبدالله بن اسد ، ومالك بن بشير ، وحمل بن مالك ، فبعث اليهم فأحضرهم من القادسية .

فلما رآهم قال : يا اعداء الله ورسوله اين الحسين بن علي ؟

قالوا : رحمك الله ، بعثنا كارهين فامنن علينا واستبقنا ، فقال : هلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم فاستبقيتموه ؟

وكان مالك بن بشير هو الذي اخذ برنس الحسين ،

فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وترك يضطرب حتى مات . ثم قتل بضعة عشر رجلا من رفاقه ،

ثم ارسل الى خولى بن يزيد الاصبحي ، الذي حمل رأس الحسين الى ابن زياد ، فاستخفى .

فدخل اصحاب المختار داره يبحثون عنه ،

فخرجت زوجته واسمها العيوف بنت مالك وكانت تعاديه منذ جاء

برأس الحسين فقالت لهم :

مــا تريدون ؟

قالوا : أين زوجك ؟

قالت : لا ادري

واشارت بيدها الى المكان الذي اختبأ فيه

فأخرجوه ، وقتلوه ، ثم احرقوه بالنار ، الى جانب اهله .

ثم قال المختار يوما لاصحابه : لاقتلن غدا رجلا عظيم القدمين ، غائر العينين ، مترف الحاجبين ، يسر قتله المؤمنين ، والملائكة المقربين ...

وكان عنده الهيثم بن الاسود النخعي .

فعلم انه يعني عمر بن سعد

فانصرف الى منزله وارسل ابنه الى عمر يخبره بذلك

فقال له عمر :

جزى الله أباك خيرا كيف يقتلني بعد العهود والمواثيق ...

ثم اتى عبد الله بن جعدة ، بن هبيرة ، وهو اكرم الناس على المختار ، وسأله ان يأخذ له امانا

ففعل ، وشرط المختار في امانه شروطا

ثم بعث اليه ابا عمرة ، فاتاه فقال : اجب الامير

فقام عمر فعثر في جبة له ، فضربه ابو عمرة بالسيف ، فقتله واخــذ رأسه الى المختار

وعند المختار ، ابن لعمر يقال له حفص ، وكان جالسا بين القــوم ، فقال له المختار : اتعرف من هذا ؟

واشار الى رأس ابيه ...!

فقال : نعم ، ولا خير في العيش بعده

قال : اقتلوه ... ان عمر بن سعد بالحسين ، وحفص بن عمر بعلي ابن الحسين ... ووالله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من انامله ..

وكان السبب في تغير المختار على عمر بن سعد ؛ ان يزيد ابن شراحيل الانصاري ، اتى محمد بن الحنفية فسلم عليه ، وجعلا يتحادثان حتى ذكرا المختار ، فقال محمد :

يزعم المختار انه يتشيع لنا وقتلة الحسين عنده على الكراسي يحدثونه..

فلما عاد يزيد خبره بما سمع ، فقتل ابن سعد ، وابنه ، وبعث برأسيهما الى ابن الحنفية ، وكتب اليه يقول :

لقد قتلت من قدرت عليه ، وانا اليوم في طلب الباقين

ثم بعث المختار ، الى مرة بن منقذ ، من عبد القيس ، وهو قاتل علي بن الحسين ، وكان شجاعا

فاحاط القوم بداره ، فخرج اليهم وهو على فرسه ، وبيده الرمح ، فطاعنهم به ساعة ثم همز فرسه وهرب منهم فنجا ، ولحق بمصعب بن الزبير ، ثم شلت يده بعد ذلك

وخرج اصحاب المختار ، في طلب زيد بن وقاد ، وهو قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل ، وكان يحدث اصحابه فيقول :

لقد رميت فتى منهم بسهم ، وكفه على جبهته يتقي بها السهام ، فأثبت كفه في الجبهة ، ولم يستطع ان يزيلها عنها ، ثم سمعته يقول :

« اللهم انهم استقلونا واستذلونا فاقتلهم كما قتلونا » ثم رميته بسهم آخر فقتل ، وجئت اليه وهو ميت فنزعت سهمي الذي قتلته به من احشائه ، ولم ازل اعالج الاخر في جبهته حتى اخذته وبقي النصل ...

فلما اتاه القوم ، خرج اليهم بالسيف ، فقال لهم ابن كامل صاحب الشرط :

لا تطعنوه ولا تضربوه ، ولكن ارموه بالنبال ، ففعلوا ، فسقط على الارض ، فاحرقوه وهو حي

وساروا بعد ذلك يطلبون سنان بن انس الذي كان يدعي قتل الحسين ، فعرفوا انه قد هرب الى البصرة

فهدموا داره ، ثم هدموا منازل كثيرة فر اصحابها من الكوفة ، لاجئين الى مصعب بن الزبير

★★★

٦

عندما اخرج المختار ، ابن مطيع عامل ابن الزبير ، من الكوفة سار الى البصرة ، وكره ان يأتي خليفة الحجاز ، وهو ذليل

واستقام الامر للمختار كما رأيت فكتب الى ابن الزبير يخادعه قائلا : لقد عرفت اخلاصي لك وجهدي على اهل عداوتك فلما وفيت لك لم تف بما عاهدتني عليه فان ترد الان ان تراجعني فافعل والسلام

وكانت غايته من ذلك ان يكف ابن الزبير عنه ليتم له الامر كما يشاء ويخلو له الجو

فعل ذلك والشيعة لا تعلم

على ان ابن الزبير ، اراد بدوره ان يلمس بيديه اخلاص المختار ، فدعا عمر بن عبد الرحمن المخزومي فولاه الكوفة وقال له :

ان المختار سامع مطيع ، فتجهز باربعين الف درهم واذهب

فأخذا المال ومشى يريد الكوفة

وبلغ ذلك المختار ، فقال لزائدة بن قدامة : خذ سبعين الف درهم وخمسمائة من الرجال والق عمر واعطه ما انفق من المال ومره بان يعود فان فعل فارجع وان لم يفعل فأره الخيل

فسار زائده حتى لقي الرجل واعطاه المال وامره بالانصراف

فقال : ان امير المؤمنين ولاني الكوفة وانا ذاهب اليها

فدعا زائدة اصحابه وهم على الخيل ...

فلما اقبلوا اخذ عمر المال وسار الى البصرة .

وكان عبد الملك بن مروان قد ارسل قائدا من قواده الى وادي القرى في طوائف من اهل الشام

فكتب المختار الى ابن الزبير : بلغني ان ابن مروان وجه اليك جيشا فأن احببت امددتك بجيش من الكوفة فاجابه ابن الزبير :

ان كنت على طاعتي ، فليبايع الناس عندك ، وعجل انفاذ الجيش ، ومرهم بان يسيروا الى اهل الشام بوادي القرى

فدعا المختار ، شرحبيل بن ورس الهمداني، وسيره في ثلاثة آلاف رجل اكثرهم من الموالي وليس فيهم من العرب غير العدد القليل ، وقال له :

سر حتى تدخل المدينة ، فاذا انتهيت اليها فاكتب الي حتى يأتيك امري .. وكان يريد ، اذا دخلوا المدينة ، ان يبعث اليهم بأمير ويأمرهم بان يحاصروا ابن الزبير بمكة ..

وخشي ابن الزبير ان يكون المختار كاذبا ، فبعث من مكة ، عباس بن سهل في الفين ، وطلب اليه ان يستنفر العرب ثم قال له : اذا رأيت القوم على طاعتي فقد انتهى الامر ، والا فافعل ما يطيب لك حتى يهلكوا ..

فأقبل ابن سهل حتى لقي شرحبيل ، فقال له سرا : ألستم على طاعة ابن الزبير ؟

ـ بلى

ـ اذن سر بنا الى عدوه في وادي القرى

قال : ما امرت بطاعتكم ، وانما امرت ان آتي المدينة فاذا انتهيت اليها رأيت رأيي ...

ـ ولكن ابن الزبير أمرني بان اسيركم الى وادي القرى كما قلت

قال : اما أنا فلا اتبعك ، ولكني ادخل المدينة ثم اكتب الى المختار ليأمرني بما يحب ...

قال : رأيك افضل

وعول على الفتك بهم كما اوصاه ابن الزبير لانه عرف انهم ليسوا على الطاعة

وبعث اليهم بنوق وغنم وكانوا قد ماتوا جوعا ...

فذبحوا ، واشتغلوا بها ونزلوا على الماء

فأقبل ابن سهل ، في ألف رجل من اصحابه يريد فسطاط شرحبيل فلما رآهم نادى قومه فلم يلب النداء غير مئة رجل ...

ثم اقتتلوا فقتل شرحبيل وقتل معه سبعون رجلا وهرب الاخرون فمات اكثرهم على الطريق

فكتب المختار الى ابن الحنفية يقول : ارسلت اليك جيشا ليذلوا لك الاعداء ويخضعوا لك الحجاز ففعل بهم ابن الزبير ما فعل ، فان رأيت ان ابعث الى المدينة جندا كثيفا ، وترسل انت ، رجلا من قومك حتى يعلموا اني في طاعتك ، فافعل ، فانك ستجدهم بحقك اعرف وبكم آل البيت ارأف منهم بآل الزبير وانا بانتظار الجواب

فكتب اليه ابن الحنفية :

اما بعد فقد قرأت كتابك ، وعرفت تعظيمك لحقي ، وان احب الامور كلها الي ما اطيع الله فيه فأطع الله ما استطعت ، واني لو اردت القتال ، لوجدت الناس الي سراعا والاعوان لي كثارا ، ولكني اعتزل واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

وامره بان يكف عن الدماء

وجعل عبد الملك خليفة الشام ، وابن الزبير خليفة الحجاز ، يتسابقان الى اخذ البيعة من ابن الحنفية وهو لا يفعل

وابن الزبير يجور ويجفو ولا يبلغ غايته ...

واصحاب محمد يسألونه ان يأذن لهم في قتال ابن الزبير وهو لا يرغب في ذلك .

★★★

٧

كان عبد الله بن زياد ، قد استولى على الموصل ، كما مر

فوجه اليه المختار ، ابرهيم بن الاشتر ، ليضربه الضربة القاضية ، قبل ان يضع قدمه في ارض العراق

وكان ذلك في مطلع السنة السابعة والستين ، وقد اتخذ المختار كرسيا زعم ان فيه سرا ، وانه لهم مثل تابوت العهد لبني اسرائيل ...

فلما انتهى ابرهيم الى دار عبد الرحمن ، ابن ام الحكم ، لقيه اصحاب المختار ، معهم الكرسي يحملونه على بغل اشهب، وهم يدعون الله له بالنصر

وكان سادن الكرسي جوشب الرسمي

فودعه المختار قائلا : خذ عني ثلاثا : خف الله عز وجل ، وعجل السير، واذ لقيت عدوك فاشهر السيف ساعة تلقاه

ورجع الى الكوفة

فجعل ابرهيم ينظر الى اصحاب الكرسي وقد رفعوا ايديهم الى السماء وهو يقول :

اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ••• هذه سنة بني اسرائيل ••

وسار من ساعته حتى بلغ الموصل ، فنزل قريبا من نهر الخازر ، واقبل ابن زياد فنزل على الشاطيء

فلما كان الليل ، ارسل عمير بن الحباب السلمي وهو على ميسرة ابن زياد ، يقول لابرهيم : اني بحاجة اليك الليلة

فلقيه ابن الاشتر على الشاطيء ، فقال عمر :

اني على ميسرة عبيد الله وانا اعدك باني سأنهزم بالناس عندما تتلاحم السيوف •

فقال ابرهيم : ما رأيك ، أأحفر خندقا واصبر يومين او ثلاثة ؟

قال : لا تفعل ، فان اهل الشام يريدون ذلك لانهم كثار وانتم في قلة، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة ، ولكن ناجزهم فان الذعر يملأ قلوبهم

فقال : الان علمت انك من الاوفياء

وقضى ليلته وهو يطوف حول جيشه لم يغمض له جفن حتى كان السحر فعبى اصحابه وجعل الجند كتائب عليها الامراء •

فلما طلع الصبح ، صلى ، وصف جيشه ، ثم نزل يمشي ويحرض الناس ، ويعدهم بالظفر

ثم ركب وسار الى الرايات يذكر للجيش فعل ابن زياد بالحسين واهل بيته ، من السبي والقتل ومنع الماء

وكان ابن زياد قد جعل على جناحه الايمن ، الحصين بن نمير ، وعلى الجناح الايسر عمير بن الحباب ، وعلى الخيل شرحبيل بن ذي الكلاع

فلما تدانى الجيشان ، حمل الحصين بن نمير في رجاله على ميسرة ابرهيم ، فثبت له صاحب الميسرة ، فقتل

فأخذ الراية قوة بن علي ، فقتل ، وانهزمت صفوفه

فأخذها عبد الله بن ورقاء فاستقبل المنهزمين وجعل يقول : الي يا شرطة الله هذا اميركم يقاتل ابن زياد فارجعوا بنا اليه

فرجعوا واذا ابرهيم ، ذلك البطل العظيم ، كاشف رأسه وهو ينادي الي ايها الابطال انا ابن الاشتر

وحمل الجناح الايمن عندئذ على ميسرة ابن زياد ، وهم يرجون ان ينهزم عمير بن الحباب كما وعد

ولكن الرجل قاتلهم قتالا شديدا وانف من الفرار

فقال ابرهيم : اقصدوا هذا السواد الاعظم فوالله لئن هزمناه لتفرق جيش الشام كما تتفرق الطير اذا ذعرت ..

فمشى اصحابه اليهم فتطاعنوا .. ثم عمدوا الى السيوف والعمد فضربوا بها مليا واصوات الحديد على الحديد تملأ الفضاء

وكان ابن الاشتر يقول لصاحب رايته : انغمس برايتك فيهم ، فيقول: ليس لي الى ذلك سبيل .. فيقول : بلى ..

فاذا تقدم ، شد ابرهيم بسيفه فلا يضرب رجلا الا صرعه وفر الرجال من وجهه كانهم الحملان

وقد حمل اصحابه حملة رجل واحد واشتد القتال

وبينا ابرهيم يجول على فرسه والناس يسقطون جثثا مهشمة بين يديه، ابصر رجلا على شاطيء النهر تحت راية منفردة فضربه بالسيف ضربة جعلته نصفين ..

وفاحت عن القتيل رائحة المسك

ثم رجع ابرهيم وهو يقول : انا ابن الاشتر ، فارس الهيجاء ، وفتى الميادين ..

فأنهزم جيش الشام ، وقد قتل من الجيشين خلق كثير

فقال ابن الاشتر لرجاله : لقد قتلت رجلا تحت راية منفردة ، على شاطيء النهر ، فالتمسوه ، فاني شممت منه رائحة المسك

فالتمسوه فاذا هو ابن زياد ، فاخذوا الرأس واحرقوا الجثة ..

ورأى الناس عندئذ ، عبد الرحمن بن مسلم ، زوج امامة رافعا يديه الى السماء ، ثم سمعوه يقول : الحمد لله فقد قتل الطاغية واصحابه

اجل ، كان عبد الرحمن في الكوفة ، يسأل الله ان يظفر المختار بقتلة الحسين

ولم يبال باحتجاب حميه عمر بن الحجاج

فلما قتل شمر بن ذي الجوشن ، وعمر بن سعد ، وغيرهما من اصحاب كربلاء زال بعض همه ، وكان يرجو ان يزيل الله البعث الاخر ، بقتل ابن زياد حتى قتل في ذلك اليوم ، فلم يبق له الا ان يعتزل السياسة ، ويعيش في الكوفة كما يعيش العربي الشريف الذي لا غرض له

وكان شريك بن جدير التغلبي قد قتل الحصين بن نمير

وقد غرق من اهل الشام ، في فرارهم ، اكثر ممن قتل منهم ، وغنم اهل الكوفة ما غنموه ، من نعم وخير

وارسل ابرهيم البشارة ورؤوس القتلى الى المختار وانفذ عماله الى البلاد .

★★★



٨

يوم دارت رحى القتال، بين سليمان بن صرد ورفاقه الكوفيين المتشيعين، بين جيش الشام، وقائده عبيد الله بن زياد، دعا سليمان اركان حربه قائلا لهم:

اذا رأيتم عدوكم فاصدقوه القتال واصبروا ان الله مع الصابرين ، ولا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا اسيرا من اهل دعوتكم الا ان يقاتلكم بعد ان تأسروه ، تلك هي سيرة علي في اهل هذه الدعوة

ثم قال : اذا انا قتلت فأمير الناس ، مسيب بن نجبة ، فان قتل فالامير عبد الله بن سعد بن نفيل ، فان قتل فالامير عبد الله بن وال ، فان قتل فالامير رفاعة بن شداد .. رحم الله امرءا وفى بما عاهد الله عليه ...

وغاص القوم بعد ذلك في اللجة ، فقتل سليمان ، ثم لحق به في اليوم نفسه ، مسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد ، وعبد الله بن وال ولم يبق من الرجال ، الذين عهد اليهم سليمان ، في الامارة ، غير رفاعة بن شداد ، فقال له قومه :

خذ الراية .

فقال : ارجعوا بنا لعل الله يكفينا اليوم شرهم

فقال عبد الله بن عوف : هلكنا والله . لئن انصرفنا ، لما مشينا فرسخا

حتى يلحقوا بنا فنهلك عن اخرنا ، وان نجا منا ناج اخذته العرب تتقرب به الى اهل الشام .. هذه الشمس قد قاربت الغروب فقاتلوا على الخيل ، فاذا جن الليل ، ركبنا وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل ، ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نسير فيه دون خوف

فقال رفاعة : نعم ما رأيت

واخذ الراية عندئذ وقاتل القوم بشدة وصبر

واهل الشام ، يريدون القضاء على الكوفيين قبل ان يحجب الظلام الوجوه ، فلم يقدروا على ذلك

وكان في القوم ، رجل من وجوه اهل الكوفة يقال له عبد الله بن عزيز ، وهو من اشراف بني كنانة

ومعه ولد له صغير يدعى محمدا ، هو في العاشرة من عمره ، وعبد الله من ابطال العرب ، وفي جيش الشام طائفة كبيرة من بني كنانة .

فهمز عبد الله فرسه ونادى : يا بني كنانة ، من اهل الشام ، هذا ولدي محمد ، الكناني الصغير اسلمه اليكم لتعيدوه الى امه في الكوفة ...

وقد قام في ذهنه ، ان جند الكوفة سيفنى كله لا يبقى منه احد يحمل محمدا ..

فأجابه رجل من قومه: تنح ونعطيك الامان فتحمل ابنك الى حيث تشاء .

قال : لا والله لا حاجة لي الى امانكم .. خذوا ولدي فهو منكم واحملوه الى الكوفة كما قلت

وقاتلهم حتى قتل ، ومحمد مع اهل الشام ينظر اليه ...

ثم عرض الامان على رجل من حمير ، يقاتل مع مئة من اصحابه ، فقال: قد كنا آمنين في الدنيا وانما خرجنا نطلب امان الآخرة

وقتل هو ومن معه

فلما امسوا ، رجع اهل الشام الى المعسكر ، وجعل رفاعة بن شداد ينظر في امر من بقي من رجاله ، حتى ادلهم الليل ، فسار بهم ليلة ، واصبح الحصين بن نمير فلم يرهم ، فلم يبعث في اثرهم احدا

اما محمد ـ بطل هذه الرواية ـ فقد اعاده بنو كنانة ، الى امه في الكوفة ، وهي من بني كلب

وذكر ابيه يملأ نفسه ، وجثته امام عينيه ...

★★★

٩

لم ينقض العام السابع والستون ، حتى عزل ابن الزبير ، الحرث بن ابي ربيعة ، والي البصرة ، وولى اخاه مصعبا

فقدمها مصعب متلثما .. ثم دخل المسجد وصعد المنبر ، فقال الناس : امير امير

ثم أقبل الحرث بن ابي ربيعة ، يريد المنبر . فسفر مصعب ، فعرفوه وجعلوا يتهامسون :

مصعب بن الزبير ، اخو امير المؤمنين

وكان مصعب ينظر الى القوم وهو ساكت ، ثم امر الحرث بالصعود اليه واجلسه تحته بدرجة

وقام فحمد الله ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، تلك آيات الكتاب المبين تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون

حتى انتهى الى قوله « من المفسدين » واشار بيده نحو الشام ...

ثم قال « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » واشار نحو الحجاز ..

« وترى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » واشار نحو الكوفة .

ثم قال : يا اهل البصرة ، بلغني انكم تلقبون امراءكم وانا قد لقبت نفسي بالجزار ... ونزل ولم يزد كلمة

فأقبل الناس الى قصر الامارة يسلمون عليه وهو يسألهم عن حال البصرة وعما سمعوه عن الكوفة

وهم يقصون عليه ما يعلمون

وبينا هم في المجلس ، سمع رجل خارج القصر ينادي :

يا غزوتاه .

فقال : من هذا ؟

فخرج الحجاب ثم عادوا يقولون :
هذا شبث بن ربعي على بغلة قطع ذنبها واحدى اذنيها ووراءه اشراف الكوفة
قال : اشراف الكوفة في البصرة ، وابن ربعي ينادي : يا غزوتاه .. ليدخلوا الساعة
فدخلوا عليه وخبروه بما جرى لهم ، فقال : اذن فالله وحده يعلم عدد القتلى من الكوفيين
ـ : نعم ايها الامير ان الله وحده يعلم ذلك
ـ : وماذا تريدون الان ؟
فقال محمد بن الاشعث وكان في القوم : نسأل الامير عونا لنا على المختار
قال : أترغبون في القتال ؟
ـ : لم يبق الا ان نعمد الى السيف ، على ان يكون الامير على رأس الجيش ونحن من رجاله .
فأطرق مليا ثم قال : لا اسير الى قتال المختار حتى يأتي المهلب بن ابي صفرة .
فقال ابن الاشعث :
اكتب اليه فهو عاملك على فارس
قال : سأفعل ، وسنصبر ريثما يجيء جوابه .
وكتب اليه يستدعيه .
ولكن المهلب ابطأ ، واعتل بشيء من الخراج ، فأمر مصعب ، ابن الاشعث ، بأن يأتيه ويدعوه الى الخروج .
فأتاه محمد ومعه كتاب من مصعب ، فلما قرأه قال :
اما وجد مصعب بريدا غيرك ؟
ـ : ما انا بريد لاحد ، غير ان ابناءنا ونساءنا غلبتنا عليهم عبيدنا...
قال : فعل المختار كل ذلك وانتم ساكتون ؟
ـ : لقد دافع القوم حتى عجزوا
ـ : اذن فأنا ذاهب
واقبل يجمع قومه حتى انضم اليه الجيش الكثير واخذ من المال ما

يستطيع معه ان يحارب سنة

ثم خرج حتى قدم البصرة

فلقيه مصعب ، وجعل الاثنان ينظران في امر الحرب

ثم دعا مصعب عبد الرحمن بن مخنف ، وامره ان يسير الى الكوفة ، ويدعو الناس ، من اصحابه ، الى ترك المختار ، ويرغبهم ، من وراء الستار، الى بيعة ابن الزبير .

ففعل ، ودخل بيته مستترا وهو ينشر الدعوة .

ثم خرج مصعب من البصرة ، وعلى ميسرته المهلب وعلى ميمنته عمر بن عبيدالله بن معمر ، وعلى الطلائع عباد بن الحصين الحطمي ، وجعل مالك بن مسمع على بني بكر ، ومالك بن المنذر على عبد القيس ، والاحنف على تميم ، وغير هؤلاء من الرجال على عشائرهم .

وبلغ الخبر المختار ، فقام في اصحابه فخبرهم وندبهم الى الحرب وجعل قائدهم أحمر بن شميط .

والتقى الجيشان ، فلم تكن الا جولة حتى قتل ابن شميط فجعل قومه ينادون : الصبر الصبر .

فقال المهلب : الفرار انجي لكم .

ثم احاطت الخيل برجال ابن شميط ، فانهزموا ، وبعث مصعب عبادا على الفرسان وقال له : اي اسير اخذته فاضرب عنقه .

وقال لمحمد بن الاشعث : لقد أتت ساعة الثأر فافعل ما يطيب لك .

فمشى مع طوائف من رجال الكوفة فكانوا اشد على المنهزمين من اهل البصرة لا يدركون رجلا الا قتلوه

فلم ينج من ذلك الجيش غير فئة قليلة من اصحاب الخيل ، حملت خبر الفرار الى المختار ، فقال : ما من الموت بد وما من ميتة أموتها احب الي من ميتة احمر بن شميط .

فعلموا انه سيقاتل حتى يقتل .

وتهيأ للقتال ، ثم وقف بجيشه بين عدوه وبين الكوفة ، وحصن قصر الامارة والمسجد ، وادخل اليه عدة الحصار ، ولم تلبث الحرب حتى دارت رحاها فتراجع اصحاب المختار وقد قتل من قواد مصعب محمد بن الاشعث.

فقيل للمختار : ايها الامير اذهب الى القصر .

فأتاه ، وانضم اليه بعض اصحابه وقد عولوا على الدفاع حتى الموت.
فلما اصبح مصعب اقبل يسير فيمن معه الى الكوفة ، ومر بالمهلب
فقال له : يا له فتحا ما اهناه لو لم يقتل محمد بن الاشعث .
قال : صدقت وذلك امر الله .
ثم دخل الكوفة وقطع عن اهلها المؤونة والماء .
فقاتلهم المختار ، ولكن قتاله كان ضعيفا ، وقد اجترأ عل
حتى انهم كانوا يرمون رجاله من فوق البيوت ، اذا خرجوا من
واشتد الحصار ، وقد دنا مصعب من القصر .
فقال المختار : ويحكم ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفا فانزلوا نقاتل
حتى نموت كراما كما يموت الابطال وقد ينصرنا الله ..
فضعفوا ولم يفعلوا .
فتطيب ، وخرج من القصر في تسعة عشر رجلا بينهم السائب بن
مالك الاشعري .
فلما خرجوا قال للسائب :
ماذا ترى ؟
قال : ما ترى انت ؟
قال : ويحك يا احمق ... انما انا رجل من العرب ، رأيت ابن الزبير
قد وثب بالحجاز ، ورأيت نجدة بن عامر وثب باليمامة ، ومروان بالشام ،
وكنت فيها كأحدهم ، ولكني طلبت بثأر اهل البيت اذ نامت عنه العرب ،
فقاتل اذن على حسبك ..
قال : انا لله وانا اليه راجعون والله ما خطر لي ان اقاتل على حسبي...
وتقدم المختار فقاتل حتى قتل ،
فنزل اهل القصر على حكم مصعب واستسلموا اليه ، فأخرجوهم
مقيدين .
فأراد مصعب اطلاق العرب وقتل الموالي ، فأبى اصحابه ولم يريدّوا
الا ان يقتل جميع اصحاب المختار .
ومثل رجل يقال له بحير المسكي بين يدي مصعب وقال له : الحمد
لله الذي ابتلانا بالاسر وابتلاك بأن تعفو عنا .. انهما منزلتان ، احداهما
فيها رضى الله والاخرى سخطه .. من عفا عفا الله عنه وزاد عزا ، ومن

طالب لم يأمن القصاص ... يا ابن الزبير ، نحن اهل قبلتكم ، وعلى ملتكم ، وانما خالفنا اخوانا من اهل الكوفة واقتتلنا كما اقتتل اهل الشام بينهم ثم اجتمعوا ، وكما اقتتل اهل البصرة واجتمعوا ، وقد ملكتم الان يا ابن الزبير فاسمحوا ، وقد عفوتم فاعفوا ...

ولم يزل يقول مثل هذا حتى رق لهم مصعب ورق الناس ..

فقام عبد الرحمن بن محمد الاشعث فقال : أتخلي سبيلهم ؟ اما نحن واما هؤلاء فاختر من تشاء .

وقال احد رجال بني همدان فقال مثل قوله .

وقام اشراف الكوفة انفسهم فقالوا مثلهما .

فأمر بقتلهم ، فقالوا له : يا ابن الزبير ، لا تقتلنا ، واجعلنا على مقدمتك الى اهل الشام غدا فليس لكم عنا غنى ، فان قتلنا ، لم نقتل حتى نضعفهم لكم ، وان ظفرنا بهم كان ذلك لكم .

فأبى مصعب .

فقال مسافر بن سعيد الناعطي : ما تقول يا ابن الزبير لربك غدا وقد قتلت امة من المسلمين حكموك في انفسهم ؟ اقتلوا منا مثل من قتلنا منكم فينا رجال لم يشهدوا القتال .

فلم يسمع ..

وكان الاحنف يقول له : ارى ان تعفو فان العفو اقرب للتقوى .

فارتفعت اصوات اهل الكوفة يقولون : اقتلهم ..

فلما قتلوا ، قال الاحنف : ما ادركتم بقتلهم ثأرا فليته لا يكون في الآخرة وبالا .

وأمر مصعب بكف المختار ، فقطعت وسمرت بمسمار الى جانب المسجد ، وبقيت هنالك حتى قدم الحجاج بن يوسف ، فقيل له : هذه كف المختار فأمر بنزعها .

وبعث مصعب عماله على الجبال والسواد ،

وكتب الى ابرهيم بن الاشتر ، يدعوه الى طاعته ويقول له :

ان اطعتني فلك الشام واعنة الخيل ، وما غلبت عليه من ارض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان .

واعطاه عهد الله على ذلك .

وكتب عبد الملك بن مروان الى ابن الاشتر يقول : ان اطعتني فلك العراق ..

فاستشار ابرهيم اصحابه ، فاختلفوا ، فقال : لو لم اقتل ابن زياد وبعض اشراف الشام لأجبت عبد الملك مع اني لا اختار على اهل بلدي وعشيرتي احدا .

وكتب الى مصعب بأنه على طاعته .

فدعاه الى الكوفة ، فلما بلغه انه آت ، جعل المهلب عاملا له على الموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان .

ثم دعا ام ثابت ، بنت سمرة بن جندب ، امرأة المختار ، وعمرة ، بنت النعمان بن بشير ، امرأته الاخرى .

وجعل يسألهما عن المختار ...

فقالت ام ثابت : نقول فيه ما تقوله انت ..

فأطلقها ، وقال لعمرة : وانت ما تقولين ؟

قالت : رحمه الله كان عبدا صالحا .

فأمر بها فارسلت الى السجن ، ثم كتب الى اخيه خليفة الحجاز ، انها تزعم ان زوجها من الانبياء ...

فأمره بقتلها ، فضربها احد الشرط ، ثلاث ضربات بالسيف ، وهي تقول : يا ابتاه ..

وكان ذلك ليلا ، بين الكوفة والحيرة .

فقال عمرو بن ابي ربيعة في ذلك :

ان من اعجب العجائب عندي   قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم   ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

وقد بلغ عدد القتلى ستة الاف وقيل سبعة الاف ، وكان عمر المختار سبعا وستين سنة .

قيل ان مصعبا ، لقي بعد ذلك ابن عمر بن الخطاب ، فقال له : انا ابن اخيك مصعب ..

فقال ابن عمر : انت القاتل سبعة الاف من اهل القبلة ؟

قال : انهم كانوا كفرة ..
قال : والله لو قتلت مثل هذا العدد غنما من تراث ابيك لكان ذلك سرفا ..
وقال عبدالله بن الزبير لعبدالله بن عباس :
ألم يبلغك قتل الكذاب ؟
ـ : بلغني قتـــل المختـــار بن ابي عبيد .
ـ : كأنك تكره ان تسميه كذابا ..
قال : ذلك رجل طلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة
وقال عروة بن الزبير لابن عباس :
قد قتل الكذاب وهذا رأسه ، فقال : قد بقيت لكم عقبة صعبة فان صعدتموها فانتم انتم والا فلا .
وهو يعني عبد الملك بن مروان .

★★★

١٠

بعد قتل مصعب المختار ، عزله اخوه عبد الله ابن الزبير عن العراق ، وولى ابنه حمزة بن عبد الله
وكان حمزة جوادا من غير سبب ، وبخيلا من غير سبب ...
يبذل احيانا ماله حتى لا يدع شيئا يملكه ، ويمنع احيانـــا ما لا يمنع مثله
وظهر منه وهو بالبصرة ، خفة وضعف
فكتب الاحنف الى ابيه ، يسأله ان يعزله عنهم ، ويعيد مصعبا .
فأرسل اليه كتاب العزل . فحمل مالا كثيرا من مال البصرة .
فعرض له مالك بن مسمع قائلا : لا ندعك تخرج بعطايانا
فضمن له عبيد الله بن عبد الله العطاء

فكف عنه ، وخرج حمزة بالمال واتى المدينة ، فدفع ماله الى رجال فيها من اصحابه . ولكن هؤلاء الرجال لم يدفعوه اليه بعد ذلك الا رجلا واحدا وفى له .

وبلغ ذلك اباه ، فقال : ابعده الله ، اردت ان اباهي به ابن مروان فخيب الرجاء

وقبل ان تدخل السنة الثامنة والستون ، دهم الموت الاحنف بن قيس ، وهو بالكوفة مع مصعب .

ثم اقبل العام الجديد ، فرد ابن الزبير اخاه مصعبا الى البصرة وولى مصعب الحرث بن ابي ربيعة امر الكوفة ، وكان على خرسان عبد الله ابن خازمه .



١١

لم يكن في العام الثامن والستين ، ما يستحق الذكر ، غير ظهور الخوارج ، في فارس والعراق ، وخروج المهلب ، وابن الاشتر ، وعتاب بن ورقاء ، بأمر مصعب ، الى قتالهم

ذلك ما جرى في بلاد ابن الزبير ، اما الشام فقد كان فيها قحط شديد ، لم يستطع الناس معه ان يخرجوا الى الغزو

وقد قضى عبد الملك وجيشه فصل الشتاء ، بالقرب من قنسرين ، ثم رجع الى دمشق دون ان يفعل شيئا ، وقد بلغه وهو راجع ، ان عبد الله ابن عباس توفي في المدينة ، وعدي ابن حاتم توفي في الكوفة

واي اثر يتركه خبر الوفاة ، في قلب عبد الملك ؟ ان ذلك القلب لا يتسع الا للمطامع ، ولا يخفق الا ابتهاجا بفتح ...

لقد كان همه في ذلك الزمن ، ان يخضع زفر بن الحرث صاحب قرقيسياء ، الذي فر من قنسرين ، بعد مقتل الضحاك بن قيس والنعمان ابن بشر

وزفر من ابطال العرب واصحاب الشدة والرأي وقد ثار ثورته ، بعد تلك الواقعة الدامية ، التي انتهت بقتل الضحاك وطوائف كثيرة من قيس..

وانك لتذكر هذه الواقعة في مرج راهط وقد ظفر فيها مروان بن الحكم ، والد عبد الملك ، باعداء عرشه

ومنذ ذلك الزمن ، وبنو قيس يذكرون اخوانهم الذين قتلوا مع الضحاك . ويحفظون في الصدور ، بغضا غريبا لليمانية وكلب ، وبني مروان ، كما يحفظون مثل هذا البغض ، لبني تغلب ، الذين شاركوا القوم في القتال

وكان عبد الملك ، في الوقت نفسه ، يفكر في القضاء على مصعب ابن الزبير ، وضم العراق الى ملكه ، بعد ان يقضي على اعدائه ، من اهل الشام ، الذين يحاولون انتزاع الخلافة منه .

واي رجل من اهل الشام ، يستطيع ان يمد يده الى الخلافة ، وقد دانت الشام كلها لعبد الملك ، وقامت الحراب حول العرش ، تذود عنه وعن صاحبه ؟!

ان ذلك الرجل ، من امراء دولة يزيد بن معاوية ، وقد عرفه القراء واليا على المدينة ، ثم رأوه يزحف الى مصر ، مع مروان بن الحكم ، ويعود منها ليطرد مصعب بن الزبير من الشام ويبني دولة مروان .. انه عمرو بن سعيد بن العاص ..

قال روح بن زنباع الجذامي للناس ، بعد موت معاوية بن يزيد : بايعوا الكبير واستشهدوا الصغير

فأجمعوا على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، بعد خالد ، على ان تكون امارة دمشق لسعيد ، ولخالد امارة حمص

ولكن البيعة لم تكن لخالد بعد مروان ، كما رأيت ، بل كانت لعبد الملك ، وكانت امارتا دمشق وحمص حبرا على ورق ..

اجل ، لقد نكث مروان العهد الذي اجمع عليه الناس ، وجعل ولده عبد الملك وليا لعهده ، وولده الآخر عبد العزيز خلفا له

ولم يبال ، بعد تربعه في العرش ، بما يقوله ويفعله بنو يزيد بن معاوية وبنو العاص

فعل ذلك لان ابن سعيد كان يقول : ان الامر لي بعد مروان .

وقد حفظها عمرو في صدره ، وساءه ان يستخفوا به ، وينظروا اليه كما ينظرون الى رجل لا شأن له ..

ولكنه لم يخرج عن حده ، ولم يبح بما في نفسه ، الا لمن حوله من اخوة واهل ، واصحاب ، بينهم حميد بن حريث ، وزهير بن الابرد ، وكلاهما من كلب

وظل يكتم الناس امره ، حتى دخلت السنة التاسعة والستون وعبد الملك يهم ، من جديد ، بالزحف الى قرقيسياء لاخضاع زفر

وقد دعا رجال دولته وعمرو بن سعيد بينهم ، وقال لهم :

نعود الان الى النظر في امر زفر ، فماذا ترون ؟

فقال قبيصة بن ذؤيب : الرأي ان تخضع اعداءك بالسيف دون ان تتردد

ــ ومن تعني منهم يا ابن ذؤيب ؟

ــ اولئك الذين يعيشون في ارضك ، وهم على طاعة ابن الزبير ..

فقال وهو يبتسم : الا تعلم ان في دمشق نفسها رجالا ليسوا على الطاعة؟

ــ بل اعلم ان في بلاطك طائفة من هؤلاء الرجال ...

ــ وانت منهم يا قبيصة ؟

ــ اني عدو عدوك ، وعبد من عبيد العرش ..

قال : صدقت فانت من اصدق الناس في خدمة امير المؤمنين وهذا لا نشك فيه ..

والتفت الى عمرو قائلا : وكذلك هو عمرو بن سعيد واخواه يحيى وعنبسة

فقال عمرو : اجل يا امير المؤمنين انا كما قلت

ــ غير اننا لا نراك كثيرا في هذا القصر

ــ ليس من الرأي يا مولانا ان ندخل عليك كل يوم

ــ لماذا ؟

ــ لاننا نخاف ان تمل ، او تظن ان دخولنا عليك كل يوم ، مظهر من مظاهر الرياء ..

قال : ما تعود امير المؤمنين ان يتهم المخلصين له ... قل يا ابن سعيد

ان في الامر ما فيه ...!!

فاصفر وجه عمرو وجعل يقول : نعم يا امير المؤمنين ، ان في الامــر اخلاصا لك ، واحتراما لهيبة الخلافة .. وليس فيه غير ذلك ..

قال : ولكن بلغنا انك غير راض عن هذه الخلافة ، وانك تقول : ان خالد بن يزيد احق بها منا ...

ـ كذب الذي قال ذلك لك ..

وكأن عبد الملك لم يسمع فقال : وانك تقول ، انها ، اي الخلافة ، لك بعد خالد ، وذلك ما قاله روح بن زنباع يوم بويع امير المؤمنين مروان ...

ـ ما ذكرت هذا قط ولم افكر فيه ...

ـ كذلك لم تفكر في امارة دمشق ...

قال : وعدني ابوك بهذه الامارة ثم لم يفعل

ـ ووعد خالدا بامارة حمص ... الا فاعلــم يا ابن سعيد ان امير المؤمنين يولي من يشاء ويبعد من يشاء دون ان يكون هنالك وعد يحول بينه وبين امره ...

ـ اعرف ذلك يا امير المؤمنين وانا سامع مطيع ...

ـ وتسير الى قرقيسياء ؟

ـ اسير في طاعتك الى اقاصي الارض ...

ـ ثم تسير معنا بعد ذلك الى العراق ، لاخضاع مصعب وابعاده عنه، كما ابعدته من قبل عن الشام ؟

ـ لك ان تبعث بي الى الحجاز لاقاتل اخاه عبد الله الذي يزعم انه خليفة مثلك ...

ـ وانت واثق بالظفر ؟

ـ اذا ندبتني لحرب مشيت اليها وانا متوكل على الله

فقال للقوم : كذب الذي قال ان عمروا عدو الخلافة .. انــه درع خلافتنا وسيفها القاطع ونحن واثقون به .. وهو الذي سيتولى اخضــاع زفر .. وسترون ، ثم قال :

ما رأيك في حميد بن حريث وزهير بن الابرد ؟

ـ رأيي انهما من اركان دولتك

ـ اجل ، انهما من اركانها وسيكونان في طليعة الجيش الزاحف الى القتال •• يا غلام ، ادع عبد الرحمن بن ام الحكم

فقال قبيصة : متى تخرج من دمشق يا امير المؤمنين ؟

ـ بعد بضعة ايام

ونظر الى حسان بن مالك ، وسفيان بن الابرد الكلبي ، شقيق زهير ابن الابرد وهما من قواده ، وقال : تهيأا للمسير •• وأعد عدتك يا عمرو••

ثم دخل عبد الرحمن بن ام الحكم

وهو ابن اخت معاوية الذي طرده الكوفيون ، وخاله حي ، فقال له عبد الملك :

يا عبد الرحمن ، ان امير المؤمنين يريد ان يعهد اليك في امر انت له اهل • اتعلم ما هو ؟

ـ لا اعلم شيئا يا امير المؤمنين

قال : سنخرج الى قتال زفر بن الحرث بعد ايام ، وتبقى انت في دمشق ، اميرا عليها ريثما نعود ، فكن ذلك الرجل الذي لا تكذب معه ظنون امير المؤمنين •••

قال : اشكر لامير المؤمنين وثوقه بي

فقال عمرو بن سعيد في نفسه : والله لاهدمن دار هذا الامير على رأسه ••

ثم قال عبد الملك : اعطوا الناس عطاءهم واخرجوا السلاح ، وليعلم كل جندي انه ذاهب الى الحرب وان النصر لا بد منه

ونهض قائلا : لينصرف كل منكم الى عمله ، فقد اتت الساعة التي يعلم فيها العدو ، انه لا يستطيع ان يستخف بعبد الملك

ثم مشى يريد الرواق ، وقد اومأ الى عبد الرحمن بان يتبعه ، ليوصيه بما يخطر له ••

وخرج الوزراء والقواد وهم يتحدثون بأمر الحرب •••

★★★

١٢

غادر الجيش دمشق ، في صباح يوم من ايام الربيع ...
وفيه عمرو بن سعيد واصحابه ..
فلما انتهوا الى ضواحي حلب ، امر عبد الملك بان يستريح الجيش ، في ذلك السهل ثلاثة ايام يستعيد بها قواه
ولم يبق بينه وبين قرقيسياء غير القليل .
فدعا عمرو حميد بن حريث وزهير بن الابرد ، الى خيمته ، وامر عبدا له بان يمنع الناس من الدخول عليه
وجلس مع الرجلين يحجبهم الظلام عن العيون ، ثم قال : والان ؟
فقال زهير : اما الان فالرأي رأيك ونحن نفعل ما تأمرنا به ..
قال : خير ما نصنعه الليلة ان نرجع الى دمشق كما قلت
ـ وعولت على خلع الطاعة ؟
ـ اجل لم يبق الا ان اقبض على ابن ام الحكم واتولى امر دمشق بقوة السيف واكره عبد الملك على الاعتراف بالحق الذي كان لي
ـ ولكن عبد الملك سيرجع غدا ، عندما يعلم انك تركت الجيش ، وسيعلم غايتك ...
ـ ليفعل ما يطيب له ، فانا لا اخافه ، وستشهد دمشق ، بيني وبينه ، حربا لم تشهد مثلها قط
قال : اخشى ان يخونك الرجال الذين تظن انهم اتباع لك
ـ ليس فيهم خائن كما تعلم ، والناس في دمشق يحبونني اكثر مما يحبون عبد الملك ، ويؤثرونني عليه
ـ وهل يعلمون انك راجع ؟
ـ نعم فقد قلت لهم ذلك قبل ان اجيء
فقال حميد بن حريث : الرأي ان نعود الان قبل ان يضيع الزمان..
قال : نصبر حتى ينام الجيش
ومكث الثلاثة ساعتين لا يخرجون من الخيمة حتى انتصف الليل ، فركبوا افراسهم وهم يذكرون اسماءهم للحرس حتى ابتعدوا عن المعسكر فاطلقوا لافراسهم الاعنة ومشوا ليلهم ونهارهم حتى انتهوا الى دمشق

فقال الناس : لقد رجع عمرو بن سعيد

وبلغ الخبر عبد الرحمن ابن ام الحكم امير الشام

فعرف ان عمروا ثائر ، فترك دمشق ولجأ الى مكان بعيد لا تصل اليه فيه ابدي الثائرين

واقبل رجال عمرو يقولون : لقد فر عبد الرحمن

فقال عمرو : كنت اظن انه سيتصدى لي ..

وتقدم رجاله الى داره فهدمها ، واستولى على ماله ، وجاء النـــاس ينصفون اليه وهو يمنيهم ويعدهم ، وينتقل من منبر الى آخر يخطب فيهم ويدعوهم الى الخروج عن طاعة عبد الملك .

واصبح عبد الملك ، في معسكره ، وقد فقد عمرا ، فقال لرجاله : اين ابن سعيد ؟

فلم يعلم احد انه رجع الى دمشق ، فقال : احضروا حراس الليل

فلما اقبلوا انتهرهم قائلا :

تخرج الرجال من المعسكر ولا تعلمون ؟

فقال احدهم : لا يخرج احد يا امير المؤمنين دون ان نعلم

ــ ومن ترك المعسكر في الليل الماضي ؟

ــ ثلاثة من وجوه الجيش واشراف الناس

ــ من هم ؟

ــ عمرو بن سعيد ، وحميد بن حريث ، وزهير بن الابرد ، وقد ذكروا لنا اسماءهم

ــ وكيف تأذنون لهم في الخروج ؟

ــ لا يجسر احدنا على منع ابن سعيد ورفيقيه اللذين ذكرت .. ان الثلاثة من رجال امير المؤمنين ومن المقربين اليه ..

ــ وسلكوا طريق الشام ؟

ــ نعـــم

قال : لا يأخذ هؤلاء الحراس عطاءهم بدون اذن منا ... نحوهم عن الحراسة ، وهكذا يكفي الان ...

والتفت الى قبيصة بن ذؤيب قائلا : ارسل من ينادي بالرجـــــوع

الى دمشق

فقال حسان بن مالك : أتعود يا امير المؤمنين ونحن الان في حلب ؟

ـ وهل تريد يا حسان ان يستولي ابن سعيد على الخلافة ، ونحن نحارب زفر بن الحرث في قرقيسياء •• ان اللعين لم يرجع الا ليسعر النار في دمشق ويدعو الناس الى العصيان ••• قم يا ابن ذؤيب وافعل ما امرناك به •

فما راع الجيش بعد ساعة ، غير صوت المنادي يقول : ايها القواد ، ان امير المؤمنين يأمركم بالرجوع الساعة الى دمشق ••

وكان عبد الملك يقول لقبيصة : لقد صدق الذي قال، ان الخائن يزعم انه من اصحاب الحق في الخلافة

ومشى في طليعة الجيش ، لا ينظر الى الوراء ، والهم يملأ نفسه ، ورجال دولته حوله لا يجسرون على ان يقولوا كلمة

فلما وصل الى دمشق ، استقبله المخلصون له وخبروه بأمر ابن سعيد فقال : أكان يدعو الناس الى خلع امير المؤمنين ؟

قالوا : نعم

قال : بيننا وبينه السيف ••

وخرج عمرو الى قتاله ، واشتعلت النار •••

ودامت الحرب بضعة ايام ، وكان عمرو ، اذا أخرج حميد بن حريث على الخيل ، اخرج اليه عبد الملك ، سفيان بن الابرد ، واذا اخرج عمرو ، زهير بن الابرد ، اخرج اليه حسان بن مالك ••

والحرب بينهما سجال

حتى اجتمع اشراف الشام فقالوا : الصلح سيد الاحكام ••

واقبلوا فذكروا الصلح لعبد الملك ، ثم أتوا عمرا فحدثوه بالامر ، حتى لان الاثنان ورغبا في ذلك

وتم الصلح ، على ان يزور عمرو امير المؤمنين في فسطاطه وينتهي كل شيء

وقد أمنه عبد الملك ، وكتب له في ذلك عهدا

فخرج عمرو في الخيل الى عبد الملك ، واوطأ فرسه اطناب الفسطاط

فانقطعت ..

ثم دخل عليه ، فاجتمعا وامير المؤمنين يبتسم له ، كما يبتسم لقبيصة ابن ذؤيب

ثم دخل عبد الملك دمشق ، كأن ذلك الحادث الغريب لم يكن

ونسي الناس بعد يومين ، ما جرى في عاصمة الامويين ...

★★★

١٣

قيل لعمرو بن سعيد بعد اربعة ايام :

هذا حاجب عبد الملك بالباب يريد ان يراك

فاذن له بالدخول ثم قال : ما وراءك ؟

قال : ان امير المؤمنين يدعوك اليه

وعند عمرو ، عبد الله بن يزيد بن معاوية ، وهو زوج ابنته رقية :

فقال عمرو للحاجب :

انا ذاهب عند العصر ..

فانصرف

فقال عبد الله بن يزيد : انت احب الي من سمعي وبصري وارى ان لا تأتيه

ـ لماذا ؟

ـ لاني اخافه عليك

قال : والله لو كنت نائما ما انتهبني ابن الزرقاء ولا اجترأ علي ...

ولبس درعا ، ثم لبس عليها القباء ، وتقلد سيفه وهم بالخروج

فاقبل عندئذ حميد بن حريث فقال : الى اين ؟

ـ الى قصر عبد الملك فقد دعاني اليه الساعة

قال : لو اطعتني لبقيت في منزلك ..

وقامت زوجته ، وهي من بني كلب ، تنهاه عن الذهاب

فلم يلتفت الى احد ، ونهض متوجها في مئة من مواليه ، وعيون قومه، وعبيده ، واهل بيته ، تنظر اليه وفي النفوس ما فيها من قلق وخوف

وكان عبد الملك ، قد دعا الى مجلسه ، جميع بني مروان

فلما بلغ ابن سعيد الباب الخارجي ، استأذنوا له فدخل ، ودخل اصحابه وراءه

ولكن الحجاب كانوا يمنعونهم من الدخول ، عند كل باب ، حتى انتهى الى رواق المجلس ولم يبق معه غير وصيف له ...

فالتفت فرأى عبد الملك على سريره ، وحوله بنو مروان ، وحسان بن مجدل ، وقبيصة بن ذؤيب

فاحس بالشر

فهامس وصيفه قائلا : انطلق الى اخي يحيى وادعه الى المجيء

فقال : لبيك ، وهو لم يفهم

واذن عبد الملك لحسان وقبيصة في الانصراف

فقاما فلقيا عمروا في الدار ، فقال لوصيفه مرة اخرى : انطلق وقل لاخي يحيى ان يأتي

فلما خرج حسان وقبيصة ، اغلقت الابواب

ودخل عمرو

فرحب به عبد الملك وجعل يقول : ههنا ههنا يا ابا امية ...

واجلسه معه على السرير .. وجعلا يتحادثان

ثم قال عبد الملك : يا غلام خذ السيف من ابي امية

فقال عمرو : انا لله يا امير المؤمنين ...

قال : اتطمع ان تجلس معي متقلدا سيفك ؟

فجعل ينظر الى ما حوله وهو ساكت

فأخذ الغلام سيفه ...

ثم تحدثا ، فقال عبد الملك : ألم تخلعني يا أبا امية ؟

ــ لقد كان ذلك وتم الصلح ...

ــ ولكني اقسمت ، ان انا ملأت عيني منك ، وانا مالك لك ، ان اجعلك في جامعة

فقال بنو مروان :
ثم تطلقه يا امير المؤمنين ؟
ــ نعم وماذا اصنع به ..
فقال عمرو : لقد ابر الله قسمك يا امير المؤمنين
فأخرج من تحت فراشه جامعة وقال لغلامه : قم فاجمعه فيها ...
فقام الغلام ففعل
فقال عمرو :
استحلفك بالله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيها على رؤوس الناس...
فقال : امكرا يا ابا امية عند الموت ..؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة كما قلت
ثم جذبه جذبة اصاب فمه السرير فكسر ثنيتيه
فقال عمرو :
اذكرك الله يا امير المؤمنين .. لقد كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك ...
قال : والله لو اعلم انك تبقي علي اذا ابقيت عليك ، وتصلح قريش لاطلقنك .. ولكن ما اجتمع رجلان في بلد قط على ما نحن عليه الا اخرج احدهما صاحبه ..!!
فلما رأى عمرو انه يريد قتله،رفع صوته قائلا : أغدر يا ابن الزرقاء ؟.
واذن المؤذن العصر ..
فخرج عبد الملك يصلي بالناس ..
وامر اخاه عبد العزيز ، امير مصر ، وكان حاضرا ، بان يقتله
فقال عمرو : اذكر الله والرحم يا عبد العزيز .. ان كنت قد امرت بقتلي فليقتلني من هو ابعد رحما منك ..
فالقى عبد العزيز السيف وجلس ...
وصلى عبد الملك صلاة خفيفة ، ثم رجع واغلقت الابواب
وقد رأى الناس ، عبد الملك ، حين خروجه ، وليس معه عمرو ، ثم رأوه يعود الى مجلسه وهو وحده ..
فذكروا ذلك ليحيى بن سعيد ..

فأقبل في الناس ، ومعه الف عبد من عبيد عمرو ، وطائفة من اصحابه فيهم حميد بن حريث وزهير بن الابرد

وجعلوا يصيحون بباب عبد الملك : اسمعنا صوتك يا ابا امية ..

فلم يسمعوا صوتا ...

فكسروا باب المقصورة القائمة امام المجلس ، وضربوا الغلمان والحجاب بالسيوف لا يستثنون احدا

وضرب الوليد ، كبير انجال امير المؤمنين ، على رأسه

فحمله ابرهيم بن عربي ، وهو رئيس ديوان الخليفة ، الى قاعة الديوان وجعل يعالج له جرحه ..

والناس يصيحون : اين انت يا ابا امية

ويحيى يضرب الناس ويحاول الدخول وهو لا يستطيع

وكان عبد الملك ، قد رأى عمرا ، بعد رجوعه من المسجد ، وهو حي . فقال لاخيه عبد العزيز :

ما منعك من قتله ؟

قال : ناشدني الله والرحم فكرهت ان اقتله ..

فقال : أخزى الله امك انك لم تشبه غيرها ... وتناول من احد الحراس حربة وطعن بها عمرا

ولكن الحربة اصطدمت بالدرع ..

فطعنه ثانية فلم يفعل شيئا ..

فوضع يده على عضده فرأى الدرع ، فقال : ودرع ايضا .. انك اذن مستعد .

واخذ سيفا ، وامر بابن سعيد فصرع . ثم جلس على صدره فذبحه بيده وهو يقول :

يا عمرو ان لم تدع شتمي ومنقصتي اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

ثم ارتجفت يداه وانتفض خوفا ورعبا ..

فحمل عن صدره ، ووضع على السرير وهو يضطرب

ثم دخل عبد الرحمن بن ام الحكم فدفع اليه رأس عمرو ، فالقاه

الى الناس ...

فصاح يحيي واصحابه وتلاحمت السيوف

وبينا الناس يتقاتلون ، خرج عبد العزيز بن مروان ، بامر اخيه عبد الملك ، وجعل يلقي المال في البدر ..

فلما رأى القوم رأس عمرو ، واموال عبد الملك ، تفرق بعضهم ، وحمل البعض الاخر شيئا من المال

ولكن عبد الملك لم يلبث حتى امر عبيده وغلمانه فجمعوا تلك البدر واعادوها اليه ...

ثم امر بسريره فأخرج الى المسجد ، فجلس عليه وقال :

اين الوليد لا اراه ، والله لئن كانوا قتلوه لقد ادركوا ثأرهم ..

فقال ابرهيم بن عربي الكناني صاحب الديوان : الوليد عندي يا امير المؤمنين ، وقد جرح وليس عليه من بأس

ــ ومن جرحه ؟

ــ اصيب بضربة لم ير صاحبها

قال : علي بيحيى بن سعيد ، فمشت صفوف الشرط فأحضرت يحيى

فقال لغلامه : اضرب عنقه الساعة على مرأى من الناس ..

قالها ولم ينظر الى المحكوم عليه

فقام اخوه عبد العزيز فقال : جعلت فداك يا امير المؤمنين ، أتراك قاتلا بني امية في يوم واحد ؟!

قال : يكفي ان هؤلاء شهروا السيف في وجه امير المؤمنين

قال : اعف فليس في العرب من هو اقدر على العفو منك

قال : نحوا يحيي واحضروا اخاه عنبسة

فحملوه اليه فقال : اما هذا فلا نعفو عنه .. اضرب يا غلام ..

فقال عبد العزيز :

لقد قتل من قتل من القوم فانظر اليهم بعين حلمك

فاطرق مليا ثم قال : اذن فاجعلوه في السجن مع يحيى .. ولكن اقتلوا ابن الاسود الكلبي الذي كان يدعو الناس الى الخروج عن الطاعة

فقال اخوه :

يكفي ما جرى يا مولاي فاسجن ولا تقتل احدا

قال : يدخل الناس بالسيوف على امير المؤمنين وانتم تغضون عنهم الطرف يا بني مروان.. لقد اردتم ان نعفو فعفونا..ولكن السجن لا بد منه

وهامس صاحب الشرطة قائلا : علي ببني عمرو بن سعيد

وكان ابناء القتيل اربعة :

امية ، وسعيد ، واسماعيل ، ومحمد

فلما مثلوا بين يديه ، أومأ الى الشرط بان يسيروا بهم الى السجن دون ان يراجعوه

ثم بعث الى امرأة عمرو ، وهي من كلب ، يقول لها : ابعثي الي كتاب الصلح الذي كتبته لزوجك

فقالت المرأة لرسوله :

ارجع فقل له ان ذلك الصلح معه في اكفانه يخاصمه به عند ربه ..

فسكت وهو يفكر فيما صنع ، ثم قال لقبيصة : لقد رأيت رأيا ؟

ــ ما هو يا امير المؤمنين ؟

ــ هو ان اخرج يحيى وابناء اخيه الى العراق

ــ وتجعلهم يا مولاي من رجال مصعب ؟

ــ لا ابالي بما يفعلون فهم اعداء الخلافة

قال : افعل ما تشاء

فأمر رجاله باخراجهم من السجن ، ففعلوا

وادخلوهم عليه ، فقال ليحيى :

لقد امرنا بارسالك الى العراق مع بني اخيك لتكونوا عند مصعب ، وهي نعمة من امير المؤمنين كما ترى فلا تنسوها ..

فجعل يحيى ينظر الى الارض وهو لا يقول كلمة

ثم قال عبد الملك :

لا تطيب لكم الاقامة بالشام يا بني العاص فأرحلوا عنها ، وانضموا الى اخوانكم اعداء بني مروان ...

فظل ساكتا ..

فقال : ولكن اعلموا ان مصعبا سيأتي يومه ، وان هذه الخلافة التي

يتمتع بها عبد الله بن الزبير ستسقط تحت حوافر الخيل ..

فرفع رأسه قائلا : ليس لبني العاص صلة بآل الزبير ، ونحن لم نعترف قط بخلافة عبد الله ولم نكن من رجال دعوته ..

ــ كما انكم لم تعترفوا بخلافة آل مروان ..

فهم بان يقول : نحن الذين رفعنا اباك الى العرش ...

ولكنه علم ان الموت وراء كلمته .. فلم يقلها ، وآثر السكوت على الكلام . فقال الخليفة :

ولم تكونوا قط من رجال الخلافة التي تعيشون في ظلها كما يعيش امير المؤمنين نفسه ... قل يا ابن سعيد .. الم يرجع اخوك من حلب ليدعو الناس الى خلعنا ، ويستولي على هذا السرير الذي نجلس عليه ؟؟ الم يهدم دار ابن ام الحكم الذي استخلفناه على دمشق ؟؟ الم تشهروا السيف يا بني العاص ، في وجه امير المؤمنين ، الذي عاد ليدافع عن عرشه ، وعن قومه ؟؟ انكم لم تكونوا من رجال ابن الزبير كما قلت ، ولكن كنتم رجال انفسكم فقد قام في اذهانكم ان الخلافة ستمشي اليكم صاغرة ، وان اصحاب الحق اضعف من ان يحتفظوا بها بقوة السيف ..

فاغمض يحيى عينيه ، ليخفي ذلك الشر الذي لمع فيهما .. ثم قال وهو مطرق :

متى تأمر بالرحيل ؟

فعرف عبد الملك انه يريد ان يخرج من المجلس ، فقال : لقد امرنا اهل بيتك بان يتهيأوا للسفر

قال : وهذه نعمة لا ننساها لك ...

فلم يشأ عبد الملك ان يزيد ، فقال : تخرج من هنا لتركب راحلتك في طريق العراق ...

ــ واهلي ؟

ــ اما اهلك فقد سبقوك ولم يبق الا ان تنصرف ، ولينشأ بنو اخيك في العراق ، على بغض بني مروان ...

واومأ اليهم بالخروج وقد حول عنهم وجهه ، وجعل يحادث قبيصة ابن ذؤيب ..

فخرجوا ، والنار تتقد في الصدور ، والحقد يطل من العيون .

ولم يلبثوا حتى ركبوا يريدون الكوفة ، ومعهم طائفة من العبيد والموالي والغلمان ...

★★★

ذلك هو غدر عبد الملك ، الذي اشرنا اليه في هذا الجزء

والقاتل والقتيل يلتقيان في النسب ، في امية

هـذا عبد الملك بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن اميـة ،

وهذا عمرو بن سعيد بن العاص بن امية .

وكانت ام عمرو ، ام البنين بنت الحكم ، عمة عبد الملك ..

وعندما سمع عبد الله بن الزبير ، بقتل عمرو ، قال : ان ابن الزرقـاء قتل لطيم الشيطان، وكذلك تولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون..

وبلغ ذلك ابن الحنفية ، فقال :

ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، يرفع له يوم القيامة لواء ، على قدر غدرته ..



١٤

ام كلثوم

عندما قتل عبد الله بن عزيز الكناني ، مع سليمان بن صرد ، حمل بنو كنانة من اهل الشام ، ولده محمدا الى الكوفة ، وكان عبد الله قد اوصاهم بذلك ، كما قرأت

وابن عزيز الكناني ، من اشراف الناس ، وله منزلته في الكوفة،وحوله

فيها ، طائفة من قومه ، يفدونه بالمهج

فلما قتل ، وعاد محمد الى حضن امه، اقبلوا يعزونها ويضمون محمدا الى الصدور ، وهم يقولون : نحن رجال محمد كما كنا رجال ابيه وعهدنا لم يتغير ..

وكان منزل الكناني ، في الكوفة ، يشبه القصور ، وبنو كنانة جميعهم اصحاب شرف ورأي ، المتشيعون منهم وغير المتشيعين

وعبد الله من اهل الثروة ، عنده الاموال والضياع والعبيد ، وقد ترك لوالده ما يتركه الاغنياء للوارثين ..

وارملته ، ام محمد ، من النساء اللواتي يشبهن الرجال في العقيدة والمبدأ ، ويقفن مواقفهم في اليوم العصيب

وقد قامت مقام فقيدها ، في كل شيء حتى ان محمدا لم يشعر بان اباه قد مات ..

وهي من بني كلب ، وبنو كلب ، في الشام ، عشيرة قوية لها مقامها وعزها ، منها جماعة من القواد ورجال البأس ، المقربين الى عبد الملك

واسم الارملة ، ميمونة ، وكانت في فجر الكهولة ولم تشأ ان تتزوج بعد عبد الله وقد طلبها غير واحد من بني كنانة وبني كلب

فلما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره اي في السنة السابعة والستين ، دفعته الى قومه ليجعلوه سيدا من سادة الفرسان ، وبطلا يستهين بالاخطار كما كان ابوه عبد الله

اجل ، كانت تريد ان تجعل ابنها رجل حرب ، ليشرف قومه، ويحتفظ بكرامته ويصون العز الذي يتمتع به ، ولكنها لم تكن تريد ، ان ينشأ سياسيا ، ويغوص في ذلك البحر العجاج ، بحر السياسة التي لا دين لها ولا وفاء

وقد بلغ محمد اليوم ، الرابعة عشرة ، والشرف ينمو في صدره ، والاباء مظهر من مظاهره والمكرمات غاية من غاياته ...

وقد عرف ماضي ابيه ، وكان يذكر للفتيان من قومه تلك الساعة التي سقط فيها ابوه قتيلا تحت حوافر الخيل

ويصف لهم موقفه ، في المعركة ، وقتاله اهل الشام ، مؤثرا الموت في

ساحة الحرب على الفرار كما يفعل الجبناء

نعم كان محمد يذكر كل شيء وقد طبع الحادث صورة ابيه في ذهنه، ولم ينس ، ان ذلك الوالد البار ، قتل امام عينيه ، وهو في العاشرة من سنيه

وكان يذكر ، في الوقت نفسه ، ان بني كنانة من اهل الشام عرضوا على ابيه الامان ، فأبى ، وطلب اليهم قبل موته ان يحملوا محمدا الى الكوفة

ومن اجل ذلك الامان ، كان يحب قومه ، ولا يحب اهل الشام الذين قتلوا اباه

وقد نشأ حرا ، لا يتشيع لخليفة ، ولا ينتمي الى احد ولكنه لم يكن يضمر بغضا لخليفة الحجاز كالبغض الذي يضمره لآل مروان ...

ان اباه قتل في دولة مروان ، وعبيـــد الله بن زياد الذي كان يقـــود الجيش ، في ذلك الزمن ، لم يقاتل الا بأمر مروان

وظل هذا شأنه ، في بغضه وحبه ، حتى قتـــل عبد الملك ، عمرو بن سعيد ، وامر بعد قتله بنفي اهل بيته واخويه يحيى وعنبسة الى العراق

وبينا الناس في الكوفة ، يتحدثون بأمر ذلك الحادث الغريب ، الذي جرى في بلاط عبد الملك ، أقبل يحيى بن سعيد مــــع بنيه وبني اخيه ، والنساء والغلمان وكان اثنان من الموالي ، قد اعدا لهم منازل ، في حــي ربيعة ، تجاور منزل عبد الله بن عزيز

وبنو عمرو ، اربعة ، كما عرفت : امية وهو اكبرهم ، ثم سعيــد ، واسماعيل ، ومحمد . وبناته اربع ، تزوج منهن ثلاث ، وبقيت الرابعة ، وهي ام كلثوم ..

وام كلثوم ، لم تجاوز الثانية عشرة ، وهي آية من آيات الحسن ، يزيد حسنها روعة ، ثغرها الفتان ، وعيناها السوداوان

وامها ، ولادة الكلبية ، تحبها الحب كله ، وتطلب اليها كل ليلة ، ان تجالس اخوتها وعمها يحيى ، وتشاركهم في كل ما يتحدثون به

وللفتاة ، في قلوب اخوتها واعمامها ، منزلة طيبة ، وهي على صغرها، تملأ البيت عزاء ، وقد تملأه بهجة ، على رغم اللوعة التي تغمر اهله

وكانت تعلم ، كما يعلم آل عمرو ، ان عبد الملك ، غدر بابيها ، وذبحه بيده ، وهو عنده ، وانه اي الخليفة ، هو الذي امر باخراجهم من دمشق

واية عاطفة ، تتردد من هذه الناحية ، في صدر ام كلثوم ؟

انها عاطفة حقد تغلل في النفس ، واتحد بالروح ... فهي تبغض القاتل بغضا لا تعرف الصدور اغرب منه ، ولا تطيق النظر ، الى وجه رجل من بني مروان

على انها لم تكن من رأي عمها يحيى ، واخيها امية .

امية ويحيى ، يريدان ان يضعا ايديهما بيد مصعب بن الزبير ، ويزحفا معه الى دمشق ليحطموا العرش ورب العرش . وسعيد ، واخواه الاخران، وولادة ، وام كلثوم ، لا يرغبون في ذلك ، وليس من رأيهم ، ان يقتحم بنو العاص ، ابواب دمشق ويتصدوا للقاتل الجالس على سرير الملك ، والذي تحميه الأسنة والسيوف

أجل ، ان القضاء على خلافة عبد الملك ، امنية القلوب ، ولكن الخطر يكتنف امية ويحيى ، من النواحي الاربع ، وقد يموت بنو العاص جميعهم ذبحا بيد الخليفة ، اذا كتب له النصر ...

وام كلثوم ، لا تريد ان تحصد منجل الموت ، اخوتها واعمامها ، اصحاب الجاه العريض ، في الشام ، وفتيان الميادين ..

وهي لو كانت تعلم ، ان النصر سيكون حليف قومها ، في حرم بني مروان ، لكانت ، وهي في السن التي عرفت ، اول من يحمل السيف ..

ولكنها كانت تسمع من ابيها ، وهو رجل الحروب ، وسيد القواد ، ان بني الزبير ، اضعف من ان يمدوا ايديهم الى آل مروان ، واعجز عن ان يخضعوا الشام ، لخلافة الحجاز ...

بل كانت تسمع ، ان اهل الشام ، اصلب عودا من اهل الحجاز ، وان العرش الذي وضع معاوية اركانه ، لا يستطيع بنو الزبير ، ان يزعزعوه ..

وكان ابوها يقول : ليس من الصعب ان يبني ابن الزبير عرشا في الحجاز ، ويدعو الناس الى بيعته ، ولكن من الصعب ان يثبت هذا العرش تحت قدمه ...

ومعنى ذلك ان بني مروان سيخضعون الحجاز كما اخضعوا الشام

وهذه الكلمة يقولها عمرو بن سعيد كلمة رجل نسي بنو مروان فضله ولم يعرفوا مقامه .

بل هي كلمة رجل ، يحاول نهاره وليله ، ان يهدم ما بناه مروان ، ويمحو هذا السلطان الذي يتمتع به عبد الملك

من اجل ذلك لم تكن ام كلثوم مؤمنة بقوة مصعب ولم يكن يحيى وامه ابعد نظرا من ابيها في سياسة الدولة

ومن اجل ذلك كانت تقول لامها كلما تحدث اهلها بالامر وهم في طريق الكوفة

قولي لعمي ان يبتعد عن مصعب وان يصبر فالله مع الصابرين

حتى قدموا الكوفة ونزلوا المنازل التي ذكرنا والناس يقولون : هؤلاء بنو العاص وقد نفاهم عبد الملك

وكانت ميمونة ارملة عبد الله بن عزيز تقول لمحمد :

ان ولادة امرأة عمرو بن سعيد الذي قتله ابن مروان هي من بني كلب ، وابنة عم لي ..



١٥

عندما خرج عمرو بن سعيد عن طاعة عبد الملك في دمشق ، خرج المردة في لبنان ، يغزون الضواحي ويفسدون على عبد الملك امره

فلما فرغ من امر عمرو ، جعل ينظر في امر المردة ، ثم ارسل وفدا الى ملك الروم يطلب تجديد عهد الصلح الذي كان قد عقده مع معاوية

ويقول ابن الاثير ان عبد الملك صالح ملك الروم على ان يدفع اليه كل اسبوع الف دينار ، خوفا منه على المسلمين

ولكن غيره من المؤلفين ، الذين كتبوا باليونانية ، قالوا :

لقد تم الصلح بين الملكين ، على ان يدفع عبد الملك كل يوم الف ذهب وعبدا وفرسا

وقال شدرانس :

اعطى عبد الملك الروم ، كل يوم الف ذهب ، وعبدا وفرسا على ان

يمنع ملك الروم اولئك المردة من الغزو ، وبناء على هذا العهد اخرج الروم من لبنان اثني عشر الفا من هؤلاء الرجال

وكان ذلك ، على رواية ابن الاثير ، في السنة السبعين

وكان مصعب بن الزبير ، قد ذهب الى مكة ، ومعه اموال ونعم قسمها في قومه وغيرهم من اهل الحجاز

فقال عبد الملك لخاصته : لقد جاء دور العراق وسأغزو البصرة ، ثم انتقل منها الى الكوفة

فقال خالد بن عبد الله ، بن خالد بن اسيد :

ولني يا امير المؤمنين قيادة الجيش ، وانا اكفيك امر البصرة

وقال ابن ذؤيب :

ذلك خير من ان تسير انت يا امير المؤمنين

فقال لخالد : خبرني ماذا تفعل

قال : اسير وحدي ثم تتبعني الخيل

ـ اذن تدخل البصرة مستخفيا ..

ـ نعم يا مولاي ، وانزل فيها على عمرو بن اصمع ، فهو صديق لي ، وارجو ان يكون من انصار خلافتك

ووافقه رجال البلاط في الرأي

فأمره بالذهاب ، واوصاه بان يكون عند حسن ظنه

فأخذ خالد بعض الرجال من خاصته ، وخرج من دمشق ، يسير ليله ونهاره حتى اتى عمرو بن اصمع

وخبره بالامر الذي قدم من اجله

فقال : ان مصعبا استخلف ابن معمر على البصرة ، وعباد بن الحصين على شرطته ، وانا اظن ان عبادا سيكون عونا لك ..

وبعث بغلام له يقول لعباد :

لقد اجرت خالدا واحببت ان تعلم ذلك لتكون عونا لي وله على البصريين قبل ان يرجع مصعب !!

فاتاه الرسول ، وهو ينزل عن فرسه ، عند باب داره ، فنقل اليه ما امره به ابن اصمع ، فقال : قل له : والله ان عبادا لا يضع لبد فرسه حتى

يأتيك في الخيل

فرجع الغلام يحمل هذا الجواب ، فقال عمرو لخالد ..

ان عبادا يأتينا الساعة وانا لا اقدر ان امنعك

ـ وما الرأي ؟

ـ الرأي ان تأتي مالك بن مسمع ، فهو من وجوه الناس ، ويقدر على ذلك ... اخرج الان ..

فخرج خالد يركض فرسه حتى اتى مالكا فقال له :

اجرني ...

قال : اجرتك فما حاجتك ؟

فقص عليه الحكاية ..

فسكت مالك قليلا ، ثم ارسل الى بكر بن وائل ، والازد يسألهم ان يأتوه ، فاقبلوا تحت الرايات ..

ثم جاء عباد بن الحصين ووراءه الخيل فوقف الفريقان ولم يكن بينهما قتال

فلما كان الغد خرجوا الى مكان يقال له الجفرة ومع خالد رجال من بني تميم بينهم صعصعة بن معاوية وعبد العزيز بن بشر وغيرهما

ثم اتى خالدا عبيد الله بن ابي بكرة ، وحمران بن ابان ، والمغيرة ابن المهلب ينتصرون له ..

واشتعلت النار ، بضعة عشر يوما ، بين الجيشين

وكان مصعب قد انتهى الى العراق ، وقد بلغه خبر القتال كما بلغ عبد الملك وهو في ضواحي دمشق

فوجه مصعب زحر بن قيس في الف رجل يكونون عونا لابن معمر امير البصرة

ووجه عبد الملك عبيد الله بن ظبيان عونا لخالد

والقتال لا تخمد ناره حتى مشت بين الفئتين رسل الصلح على ان يخرج خالد من البصرة

وقد اصيبت عين مالك بن مسمع وضجر من الحرب فدعا خالدا فأخرجه ولحق هو بالنباج خوفا من مصعب

ولم يكن لمصعب هم غير البصرة وقد طمع ان يدرك خالدا فيها قبل ان يرحل .

فلما اقبل ، كان الرجل قد خرج فغضب مصعب على ابن معمر

ثم احضر اصحاب خالد فشتمهم وجعل يقول لعبد الله بن ابي بكرة :

يا ابن مسرح ، انما انت ابن كلبة تعاورها الكلاب فجاءت بأحمر واصفر واسود من كل كلب بما يشبهه ... وانما كان ابوك عبدا نزل الى رسول الله من حصن الطائف ثم ادعيتم ان ابا سفيان زنى بامكم .. ووالله لئن بقيت لالحقنكم بنسبك ...

ثم قال لمروان بن ابان : اما انت فابن يهودية علج نبطي ، سبيت من عين التمر

ثم قال لعبد العزيز بن بشر ، وعلي بن اصمع وغيرهما مثل هذا

وقام فدعا حاجبه فقال له : اضرب كل واحد من هؤلاء مئة سوط

فجعل يضربهم دون ان يرتفع لاحدهم صوت ..

ثم حلق رؤوسهم ، ولحاهم ، وهدم دورهم ، واكرههم على تطليق نسائهم ، وطاف بهم في احياء البصرة ..

ولم يلبث حتى هدم دار مالك بن مسمع واخذ ما فيها

ثم سار الى الكوفة لينظر في امر الحرب ، وهو واثق بان عبد الملك ، لا يلبث ، بعد فشله في البصرة ، حتى يغزو العراق



١٦

في ذلك العام ، نشبت الحرب بين تغلب وقيس ..

وهي حرب دامية ، قتل فيها طوائف من الرجال والنساء ، فيها الفرسان المغاوير ، الذين ابلوا في حروب المسلمين احسن بلاء

بين هؤلاء القواد ، عمير بن الحباب السلمي وهو احد جبابرة الحرب وعمير من قواد بني مروان ورجال دولتهم

فلما استعرت النار ، في مرج راهط ، بين الضحاك بن قيس ، ومروان ابن الحكم وقتل من بني قيس من قتل ، سار زفر بن الحرث الكلابي ، الى قرقيسيا ، كما قرأت ، وبايع عمير مروان ، وفي نفسه ما فيها ، بسبب قتل بني قيس بالمرج

ثم سير مروان ، عبيد الله بن زياد ، الى الجزيرة والعراق ، وعمير معه، وكان ما كان من قتل سليمان بن صرد واهل الشيعة ثم قتل ابن زياد على شاطىء الخازر ، وانهزم جيشه ..

فرأى عمير عندئذ ان يسير الى قرقيسياء ، وينضم الى زفر .. ثم جعل الاثنان يطلبان بني كلب ، واليمانية ، بمن قتلوا من قيس ، ومعهما قوم من تغلب ، يقاتلون معهما

وعبد الملك عندئذ يفكر في القضاء على مصعب ، والاستيلاء على العراق ، ولا يبالي بما يصنعه الرجلان .

وقد استولى عمير على نصيبين ، ولكنه لم يلبث حتى مل المقام بقرقيسياء ، وخطر له ان يطلب الامان من خليفة الشام

وهذا الخليفة ، كريم جواد بأمانه ، ولكنه ينسى امانه ويغدر ، عندما يرى ان هذا الامان ليس من مصلحة العرش

. امن عميرا .. ثم غدر به فجعله في السجن ، وجعل مولاه الريان ، بين حراسه ، خوفا من ان يفر

على ان الريان لم يكن ذلك الرجل ، فقد استطاع ابن الحباب ، ان يسقيه ويسقى الحراس خمرا حتى سكروا ، ثم صعد في سلم من حبال ، وخرج راجعا الى الجزيرة بين الرقة وحران

وبلغ ذلك بني قيس ، فاجتمعوا اليه يسألونه ان يطلب بدم اخوانهم، الذين قتلوا مع الضحاك ، ويبذلون له المال من اجل هذه الغاية

وهو يغير بهم على كلب واليمانية ، ثم يعود الى الموضع الذي اختار، وهو قريب من نهر الخابور

وكانت منازل تغلب ، بين الخابور والفرات ، ودجلة ، وهنالك امرأة يقال لها ام دويل ، عندها طائفة من الغنم والنوق

فأخذ غلام من غلمان عمير ، بعض غنمها ، فشكت ذلك الى عمير ، فلم

يفعل شيئا ، بل حاول رجاله ، ان يأخذوا الباقي

ولكن بني تغلب دافعوا عن المرأة ، وسقط منهم في ساحة الدفاع قتيل واحد

ثم اقبل دويل ابنها ، وهو من فرسان تغلب ، وجعل يحرض قومه على القتال ، حتى اجتمعت جماعة منهم ، تحت لواء شعيث بن مليك ، واغاروا على بني الحريش الذين اخذوا الغنم ، فقتلوا بعضهم ، واستاقوا قطعة من نوق لامرأة من تغلب تدعى ام الهيثم

ولم يستطع القيسيون ان يمنعوهم من ذلك

فقال الاخطل الشاعر ، وهو تغلبي من قصيدة :

غداة تحامتنا الحريش كأنها   كلاب بدت انيابها الهرير
وجاءوا بجمع ناصري ام هيثم   فما رجعوا من ذودها ببعير

واستحكم الشر بين العشيرتين .. على تغلب شعيث وعمير على قيس، وكانت اول واقعة للفريقين ، على الخابور ، فاقتتلا قتالا شديدا فقتل من تغلب خمسمائة وقتل شعيث

ثم التقيا يوم الثرثار « والثرثار نهر » فانهزمت قيس ثم انهزمت تغلب يوم الثرثار الثاني ، كما انهزمت بعد ذلك يوم الفدين ، والواقعة تتلو الواقعة ، والحرب سجال ، حتى كان يوم الحشاك

في ذلك اليوم ، ترك زفر بن الحرث تغلب ، راجعا الى قرقيسياء ، وقتل عمير بن الحباب ، فارسل بنو تغلب رأسه الى عبد الملك ، في دمشق وقال الاخطل بعد ذلك :

بني امية قد ناضلت دونكم   ابناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى اقبلوا رقصا   فبايعوا لك قسرا بعدما قهروا

وهي ابيات كثيرة

فلما قتل عمير ، قال رجل في الكوفة ، لاسماء بن خارجة الغزاوي : قتلت تغلب عمير بن الحباب ، فقال : لا بأس ، انما قتل الرجل في ديارهم ، مقبلا غير مدبر

غير ان ابن عمير ، واسمه تميم ، لم يسكت بعد مقتل ابيه ، بل اتى زفر بن الحرث وطلب اليه ان يساعده في امره

فامتنع زفر ، فقال له ابنه الهذيل :

والله لئن ظفرت تغلب كان ذلك عارا عليك ، ولئن ظفروا بتغلب ، وقد خذلتهم ، كان ذلك اشد ..

فخرج زفر يطلب بدم القتيل ، واستخلف على قرقيسياء اخاه اوس ابن الحرث ، ثم وجه خيلا الى بني فدوكس وهم بطن من تغلب ، فقتل رجالهم ، واستبيحت اموالهم ونساؤهم ، حتى لم يبق غير امرأة واحدة استجارت بيزيد بن حمران

ثم ارسل ابنه الهذيل في جيش ، الى بني كعب بن زهير ، فقتل فيهم قتلا ذريعا انتهت اخباره الى عبد الملك

وكان مسلم بن ربيعة ، من الناحية الاخرى ، يحارب بني تغلب مجتمعين ، ويفعل ما فعله الهذيل ..

على ان زفر ، لم يرتو من هذه الدماء ، بل مشى يريد العقيق ، في الموصل ، وقد قيل له ، ان بني تغلب فيه

واحس به القوم، ففروا يريدون ان يعبروا دجلة،قبل ان تفاجئهم الخيل

واتنهوا الى موضع يقال له الكحيل ، فلحق بهم زفر ، في بني قيس ، عند المساء ، وحصد السيف رجالهم في ذلك الليل ، وبقر القيسيون بطون نسائهم لم ينج منهم الا من عبر ..

واسر زفر مئتي رجل فقتلهم صبرا وهو الذي يقول عن قصيدة :

فان تك تغلب قتلت عميرا ... ورهطا من غنى في الحراب

فقد افنى بني جشم بن بكر ... ونمرهم ، فوارس من كلاب

قتلنا منهم مئتين صبرا ... وما عدلوا عمير بن الحباب

وقال ابن صغار المحاربي :

ألم تر حربنا تركت حبيبا ... محالفها المذلة والصغار

وقد كانوا اولي عز فاضحوا ... وليس لهم من الذل انتصار

واسر القطامي التغلبي ، في يوم من ايامهم ، واخذ ماله ، فقام زفر بامره حتى رد عليه المال ، فقال فيه :

اني وان كان قومي ليس بينهم ... وبين قومك الا ضربة الهادي

مثن عليك بما اوليت من حسن ... وقد تعرض لي من مقتل بادي

وعندما خمدت النار ، بعد ذلك ، وصفت السماء دخل الاخطل التغلبي على عبد الملك ، وعنده الجحاف بن حكيم السليمي ، فقال الخليفة :

أتعرف هذا يا اخطل ؟

قال : نعم هذا الذي اقول فيه :

الا سائل الجحاف هل هو ثائـر   بقتلى اصيبت من سليم وعامر

وانشد القصيدة كلها حتى فرغ منها •

وكان الجحاف يأكل رطبا ••

فجعل النوى يتساقط من يده غيظا واجابه قائلا :

بلى سوف نبكيهم بكل مهنـد   وننعي عميرا بالرماح الشواجر

ثم قـال :

يا ابن النصرانية ، ما كنت اظن ان تجترىء علي بمثل هذا ، وانا بين يدي امير المؤمنين

فاضطرب الاخطل من خوفه ، ثم مشى الى عبد الملك وامسك بردائه وقال : هذا مقام العائذ بك وانا لك جار

وقام الجحاف فانصرف ، وهو يجر ثوبه ولا يلتفت الى الوراء

حتى اتى بعض كتاب الديوان

فاختلق له الكاتب عهدا على صدقات تغلب وبكر بالجزيرة

فخرج الى اصحابه وهو يقول لهم :

ان امير المؤمنين قد ولاني هذه الصدقات فمن اراد ان يلحق بي الى الجزيرة فليفعل

ثم سار حتى اتى رصافة هشام

فقال لمن حوله :

لقد سبني الاخطل واهانني وانا في مجلس الخليفة ، واني قد افتعلت هذا العهد ولست بوال ولم يعهد الي امير المؤمنين في امر الصدقات ، فمن احب ان يغسل عني العار فليكن معي فاني قد اقسمت ان لا اغسل رأسي حتى اوقع في بني تغلب

فرجع قومه عنه ، الا ثلثمائة منهم كانوا يقولون : نموت بموتك ، ونحيا بحياتك

وكان الاخطل قد اتي قومه ، وهم على ماء يقال له الرحوب
ولم يلبث الجحاف حتى فاجأهم ، فقتل منهم من قتل ، واسر الاخطل، وعليه عباءة قذرة وقد ظنه الذي اسره انه عبد
فسأله عن اسمه فقال : اني عبد كما ترى ، فأطلقه ، فرمى بنفسه في بئر لا ماء فيها ..
وخاف ان رآه من يعرفه ، ان يقتله
فلما انصرف الجحاف خرج من البئر ، واتى دمشق فدخل على عبد الملك فانشده قوله :

لقد اوقع الجحاف بالبشر وقعة الى الله منها المشتكى والمعول

وهرب الجحاف يتردد في بلاد الروم وعبد الملك يطلبه وهو لا يقدر عليه حتى امنه فرجع وهو نادم وجعل يستغفر
ثم حج ، فسمعه عبد الله بن عمر بن الخطاب يقول وهو يطوف : اللهم اغفر لي وما اظنك تفعل
فقال له : لو كنت الجحاف ما زدت على هذا
فقال انا هو ...



١٧

الاخطل

هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ، وهو من فحول الشعراء ، وكان مسيحيا .. وقد مدح خلفاء بني امية وهو من شعراء دولتهم ، وبقي حيا الى اوائل القرن الثامن للميلاد
وقد اجمع الشعراء والعلماء ، على انه ليس في شعراء الاسلام مثل ثلاثة ، جرير والفرزدق والاخطل
قال من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن معاوية :

رأيت قريشا حين ميز بينهـــا تباحث اضغـــان وطعن امور
علتها بحور من اميـــة ترتقي ذرى هضبة ما فرعها بقصير

ومن قصيدة في مدح بني امية يخص بها بشر بن مروان :

اقفرت البلخ من عيلان فالرحب فالمجلبيات فالخابور فالشعب
فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم كأنهم من بقايا امة ذهبـــوا

ومن قصيدة يمدح فيها عبد الله بن معاوية ومطلعها :

صدع الخليط فشاقني اجراري وناؤك بعد تقـــارب ومزار
وكأنمـــا انا شارب جادت له بصرى بصافية الاديم عقـــار

وكانت بينه وبين جرير مهاجاة كما يظهر من قصيدته التي هجاه بها ومطلعها :

كذبتك عينك ام رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

(الرباب اسم امرأة)

وتعرضت لك بالاباطح بعدمـــا قطعت بابرق ، خلة ووصالا

وله قصيدتان في مدح يزيد بن معاوية وقصيدة في مدح عبد الملك ، وقد قال له عبد الملك ذات يوم :

لم لا تسلم يا اخطل ؟

قال : ان انت احللت لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان اسلمت

فقال له : ان انت اسلمت ثم قصرت في شيء من الاسلام ضربت عنقك

فقال الاخطل شعره المشهور :

ولست بصائم رمضان طوعـــا ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقائـــم ابـــدا انادي كمثل العير ، حي على الفلاح
ولكنـــي سأشربها شمـــولا واسجد عند منبلج الصباح .

فقال له عبد الملك : وما بلغ منك الشراب ، قال :

يا امير المؤمنين اذا شربتها فالموت اهون علي من شسع نعلي ، فقال:

قل في هذا شعرا والا قتلتك ، فقال :

اذا ما نديمي علني ثم علنـــي ثلث زجاجات لهـــن هدير
جعلت اجر الذيل مني كأنني عليك امير المؤمنين امـــير

وقد عيره جرير بذلك في قصيدة

فرد عليه الاخطل فقال :

تعيرني شراب الشيـخ كسرى ويشرب قومك العجب العجيبا ..

وذكر له قصة لا مجال لذكرها هي احق بالعيب ، من الخمر

جرير

قال ابن خلكان :

هو ابو حرزة جرير بن عطية .. بن مر التميمي الشاعر المشهور ، كان من فحول الشعراء في الاسلام ، وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ، وهو اشعر من الفرزدق عند اكثر اهل العلم ، والفرزدق وجرير مسلمان

وجرير يمت بنسب الى الخليفة عبد الملك كما يتبين من قوله :

ان الذي جرم المكارم تغلبـا جعل الخلافة والنبوة فينـا

مضر ابي وابو الملوك فهـل لكم يا خزر تغلب من ابٍ كابينـا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم الي قطينـا

« الخزر جمع اخزر مثل احمر وحمر وهـو الذي في عينيه ضيق وصغر ، وهذا وصف العجم ، والقطين الخدم والاتباع »

ومن شعر جرير ، قصيدته لعبد الملك يوم دخل عليه واولها :

أتصحو ام فوادك غـير صاح عشية هم صحبك بالرواح

تقول العاذلات علاك شيـب اهذا الشيب يمنعني مزاحي

ومنهـا :

الستم خير من ركب المطـايا واندى العالمين بطـون راح

ساشكـر ان رددت الي ريشي وانبت القوادم في جناحي ..

قال جرير :

فلما انتهيت الى هذا البيت ، كان عبد الملك مستندا الى وسائده ، فاستوى جالسا وقال لجلسائه :

من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا او فليسكت

واجازه بمئة ناقة وصحيفة من ذهب

ولما مات الفرزدق ، وبلغ خبره جريرا بكى وقال :
اما والله اني لاعلم انني قليل البقاء بعده، ولقد كان نجمنا واحدا،وكل واحد منا مشغول بصاحبه وقلما مات ضد او صديق الا وتبعه صاحبه
وكذلك كان ، لان الفرزدق توفي في سنة ١١٠ ، ويقول ابن الجوزي:
كانت وفاة جرير سنة ١١١ وهو باليمامة وعمره اكثر من ثمانين •

الفرزدق

تلك هي نظرة مختصرة ، في جرير والاخطل ، رأينا ان نكتبها لك لان الاثنين من شعراء الامويين
ومن الرأي ان تعرف كل شيء ، قبل ان تمعن في قـــراءة الرواية والتاريخ • كما انه من الرأي ان تعرف من هو الفرزدق ، فقد يرد اسمه في احد الفصول وانت لا تعرف من هو •
هو همام بن غالب بن صعصعة ، يتصل نسبه بمرة التميمي ، وكنيته ابو فراس ، ويعرف بالفرزدق ، وهو لقب غلب عليه واختلف في تلقيبه به
قال ابن قتيبة في كتابه « اب الكاتب » :
الفرزدق قطع العجين ، واحدتها فرزدقة لقب ، به لانه كان جهم الوجه وقد اصابه الجدري
وقال في كتابه طبقات الشعراء : انما لقب بالفرزدق لغلظه ، وقصره ، شبه بالقنينة وهي الفرزدقة ، وقيل انه منحوت من فرز ودق ، لانه رقيق قد افرز منه قطعة ••
وقال ابن خلكان :
كانت لابيه غالب مناقب مشهورة ، ومحامد مأثورة ، ذكر منها عقره نوقه لقومه ، في ايام مجاعة ••
وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر ابيه ، فما جاء احد واستجار به ، الا نهض معه وساعده في بلوغ غرضه ••

ومما قاله المبرد: ان عجوزا جاءت اليه تقول: لقد استجرت بقبر ابيك..
قال : وما هي حاجتك ؟
قالت : ان تميما ابن زيد خرج بابن لي معه ولا قرة لعيني غيره، فقال:
وما اسم ابنك ؟
قالت خنيس
فكتب الى تميم :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي	بظهر فلا يعيي علي جوابها
وهب لي خنيسا واحتسب فيه منة	لعبرة ام لا يسوغ شرابها
اتتني فعاذت يا تميم بغالب	وبالحفرة السافي علي ترابها
وقد علم الاقوام انك ماجد	وليث اذا ما الحرب شب شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم ، اخطأ في قراءة الاسم فلم يعرف أخنيس هو ام حبيش
ثم رأى ان معه ستة رجال اسماؤهم ما بين خنيس ام حبيش ، فوجه لهم جميعهم اليه ..
وقال ابن خلكان :
اختلف اهل المعرفة بالشعر ، في الفرزدق وجرير والمفاضلة بينهما ، والاكثرون اجمعوا على ان جريرا اشعر منه ، وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو مشهور ، وقد جمع لهما كتاب يسمى النقائض وهو من الكتب المعروفة
ومن شعره قصيدة مدح بها زين العابدين ، علي بن الحسين ، بن علي ، عندما سأله عنه رجل من اهل الشام
وقيل ان السائل هشام بن عبد الملك وقد سأله متجاهلا ، عند الطواف في الكعبة ، قائلا :
من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ؟
فقال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
اذا رأته قريش قال قائلها :	الى مكارم هذا ينتهي الكرم

يثمي الى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عرب الاسلام والعجم

ومنهـا :

يغضي حياء ويغضي من مهابتها فما يكلم الا حـين يبتسم

ينشق نور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن اشراقها القتم

وهي قصيدة طويلة جميع ابياتها من عيون الشعر

وكانت زوجة الفرزدق ، ابنة عمه ، وهي النوار بنت اعين، بن ضبيعة، وله معها اخبار ونوادر يطول شرحها ، وقد طلقها وندم على ذلك ، ولهفيها اشعار ، منها :

ندمت ندامـــة الكسعي لمـا غدت مـنـي مطلقة نـوار

وكانت جنتي فخرجت منهـــا كآدم حـين اخرجه الضرار

وتوفي الفرزدق بالبصرة

★★★

١٨

لم يكن لميمونة ، ارملة عبد الله بن عزيز الكناني هم الا ان تختـار لابنها محمد ، فتاة من بنات الشرف والجاه ، تجعلها بعد بضعة اعوام ، زوجة له

المال كثير بين يدي محمد ، والنعمة تكتنفه من كل ناحية ، وحوله قومه ، يمشون وراءه الى الموت ، ويبيعون ارواحهم من اجله

اجل ، لم يكن بنو كنانة كثارا في الكوفة ، ولكنهم كانوا رجال جهاد وشرف ، واهل مرؤة وعز • وقد عرفوا ان يحتفظوا بمقامهم ، بين عشائر العرب التي تقيم بالعراق

واهل ميمونة ، بنو كلب ، اهل المفاخر والمكرمات ، كما قرأت ، فيهم القواد والابطال ، ورجال المشورة والرأي ، وبلاط الامويين ، يغـص في شيوخهم وفتيانهم المقربين الى الخلفاء ، من معاوية الكبير مؤسس الملك ، الى عبد الملك بن مروان

وبين نسائهم طائفة تقلبت في العز ، في قصور الخلفاء والامراء ، هذه زوجة خليفة وهذه زوجة ولي عهد وهذه زوجة امير من امراء الاقاليم

وعبد الله بن عزيز ، الذي قتل مع سليمان بن صرد كان في عشيرته ابعد نفوذا من عمال امير المؤمنين ، وكان في منزله ملكا وان لم يجلس على عرش ويحيط به جيش من الموالي والعبيد .

وميمونة صاحبة رأي فهي لا تريد ان يخرج محمد ، الى هذا المعترك العالمي ، قبل ان يعرف الحياة ويضع يده على شؤونه الخاصة وشؤون العشيرة

بل لم تكن تريد ان يتصدى لتيار الفوضى ، فوضى الخلافة ، والمبايعات والسياسة والشيع الا بعد ان يتزوج ويختبر الزمان

وغايتها من ذلك ان يكون لولدها زوجة صالحةتدفعهالى المجد وتبعده في الوقت نفسه عن ميادين الفتنة

على ان محمدا وهو في الرابعة عشرة من عمره لم يكن يعرف مندنياه الا فرسه يركبه ورمحه في يده الى ساحات السباق

وهو في سباقه سيد الفتيان من كنانة وربيعة وكندة ، يسبقهم الى الهدف ويضع سهامه ورمحه في الموضع الذي يشاء

ورجال الحرب ينظرون اليه والى رفاقه ثم يقولون :

ان محمدا سيسود قومه وسيكون فارس الهيجاء

وكان الناس شيوخهم وكهولهم وغلمانهم يتحدثون في ذلك الزمنبأمر الخليفتين عبد الملك وابن الزبير ، ويستعرضون الحادثات من عهد معاوية وعلي ، الى العهد الذي نكتب عنه ، ثم يلعنون هذه المطامع التي جعلت المسلمين فئتين ، تسيل الدماء حولهما ، من اجل رجلين

واهل الكوفة كما عرفت ، عشاق فتن ، ولكنهم في عشقهم القاتل سندهم الاقوال لا الافعال وهم لا يثبتون على حال

ومحمد يسمع ما يقولون ويصغيالى رأي الشيخ ورأي الفتى، وقوي التفكير تنمو في دماغه والخبرة والحكمة يتغلغلان في صدره

ولكنه كان يسمع اليوم ، ما لم يسمعه امس !!

يقول قائلهم :

ليس للخلافة بعد موت الحسين ، خير من عبد الله بن الزبير .. انه رجل الصلاة والصيام ، الزاهد في الدنيا ، وسنته ، سنة عمر بن الخطاب ، في دينه وعدله ، وادارته وحكمه ..

ثم يقول هذا القائل بعد يوم او بعد ساعة :

لم تخلق الخلافة الا للامويين : يصلي خليفتهم عندما تجيء ساعة الصلاة ، ثم يجلس نهاره وليله للنظر في امور الناس ، واشراف الشام والقواد عبيد بين يديه ...

ويقول آخر :

خير لنا ان نكون من اتباع عبد الملك ، من ان نكون رعية لابن الزبير ... ذلك يجود بماله على المخلصين له .. وهذا يبخل بالدرهم على اهل بيته ...

ويجيء آخر فيقول :

كنا من انصار الحسن بن علي فتخلى عن الخلافة .. وكنا من انصار الحسين ، فقتل ، فنحن نخشى ، اذا مشينا وراء مصعب ، ان نمشي الى الموت ...

حتى قرأ محمد افكار الكوفيين ، وبدا له انها صورة عن الفوضى ، لا تخلو من اتجاه ورغبة ، في الانضمام الى الامويين

وايقن عندئذ ، بان الامر في العراق ، لا يستقيم لابن الزبير ، وان سيوف العراقيين ستتخلى عن مصعب ، في اليوم العصيب

وهو يبغض آل مروان ، كما رأيت ، ولا يطيق ان تدين العرب كلها ، لعبد الملك الخليفة الشامي

كان ذلك في السنة التاسعة والستين ، قبل ان يقدم الكوفة آل عمرو ابن سعيد

وكان يقول لامه : لم اجد في الكوفة رجلا مخلصا لآل الزبير .. فتقول له امه :

انك فتى لا تعلم من امر الكوفيين ما يعلمه مصعب ، وليس الامر في يدك لتبعد الناس عن بني مروان ، فاكتف بان تسمع ولا تشارك القوم فيما يتحدثون به

وهو يفعل ما تقوله له دون ان يكون له رأي ، ولكنه كان يعلم ، ان اهل الكوفة سيخذلون مصعبا ، وهذا ما لا يرغب فيه

ثم عرف ، وهو بين القوم ، في ميادين السباق ، وفي المساجد ، ان عبد الملك ، كتب الى الوجوه والاشراف ، من العراقيين، يسألهم ان يكونوا عونا له ، ويتخلوا عن خليفة الحجاز اذا دارت رحى الحرب

ووعد كل شريف من هؤلاء ، بولاية اصبهان

فكره الفتى ، ان تمسي الكوفة في يد عبد الملك، ولم يشأ الا انيبوح بما سمع لرجل من المقربين الى مصعب

ولكن امه نهته عن ذلك قائلة : دع التشيع لبني الزبير الان ، ولا تقذف بنفسك الى الهوة

قال : ان بني مروان قتلوا ابي

ــ بل قتل ابوك في ساحة الحرب ، دون ان يعلم بنو مروان من هو

ــ ولكني اكره ان يظفر عبد الملك

قالت : ستفعل يا بني ما تشاء ، عندما تصبح في صف الرجال . اني احب مصعبا لان امه من اهلي ، بني كلب ، ولكني لا اريد ان تكون لك يد ، في هذه السياسة التي تتغير كل يوم

قال : ان عبد الله ابن الزبير رجل صلاح وتقى ، وعبد الملك رجلدنيا، وقد ترك دينه ليدافع عن العرش ..

ــ ليس لك ان تدين احدا فالله وحده ديان الناس ..

وسكت الاثنان عند هذا الحد ، فقد بلغهما ان آل عمرو بن سعيد ، قدموا الكوفة ، واهل الحي ، يتحدثون بأمر ذلك القتيل الذي ذبحه عبد الملك ، في قاعة الجلوس

فخبرت ميمونة ولدها بما صنعه خليفة الشام وجعلت تقول : كان عمرو بن سعيد ، سيف بني مروان ، ودعامة من دعائم خلافتهم فلما استووا في العرش كرهوا ان يفوا له بما وعدوا ، ثم ذبحوه كما تذبح الناقة ولم يبالوا ... ثم قالت :

ذلك ما يفعله الخلفاء مع المخلصين .. فاي شيء يفعلونه مع انصار ابن الزبير ..

واقبلت تحدثه بما تعلم عن بني العاص ، وكانت تقول كما مر : ان ولادة ارملة القتيل ، ابنة عم لي

وهي تجهل ان لولادة فتاة تدعى ام كلثوم ، هي آية من آيات الجمال



١٩

الليلة من ليالي الشتاء ، وقد سدل الظلام ستاره فحجب الكوفة عن العيون

وبينا آل عمرو بن سعيد في منزلهم ، وعندهم يحيى وعنبسة اخوا عمرو ، دخل غلام لهم فقال :

ميمونة الكلبية وابنها محمد

فقالت ولادة :

ابنة عمي ، وانا لم أرها منذ تركت دمشق .

ثم قالت ليحيى : انها ارملة عبدالله بن عزيز الذي عرفنا امس ، انه قتل مع رجال الشيعة

وقفت بباب القاعة تنتظر الاثنين

فاقبلت ميمونة ، والدموع في عينيها ، وقد ذكرت في تلك اللحظة مقتل زوجها عبدالله ، ومقتل عمرو بن سعيد

ووراءها محمد وهو مطرق

فتعانقت المرأتان ، واختنق صوتاهما .. وبكت ام كلثوم ، بكاء فتاة خسرت اباها ، وطردت من البيت الذي ولدت فيه ...

ثم قالت ولادة : هذه أم كلثوم صغرى بناتي

فضمتها المرأة الى صدرها دون ان تنظر الى ذلك الوجه الفتان

وصافح محمد يحيى وعنبسة ، وبني أخيهما ، وهو ساكت ، ولكن الابتسامة البريئة كانت تغمر شفتيه ...

ولم يلبث حتى صافح الفتاة كالنسيب يصافح نسيبة له

وجلس القوم

فقالت ام امية :

بلغني امس ، ان ابا محمد قد قتل ، مع سليمان بن صرد ، وكنت اجهل ذلك ، لانك لم تكتبي الي كلمة ..

قالت : كنت اظن ان بني كنانة ، نقلوا الى اهلي ، خبر قتله .. واني لا اسألك عن مقتل ابي امية ، فقد عرفت كل شيء ، ويكفي ان ارى حولك الان ، امية واخوته ...

والتفتت الى أم كلثوم قائلة : اما ام كلثوم فلا اعرفها ، وقد ولدت بعد تركي دمشق ..

وجعلت تتفرس ، على نور السراج ، في ذلك الوجه الساحر ، وقد ملأ نفسها جمال الفتاة ، التي لا تقع العين على اروع منه

ولم تلبث حتى قالت :

ـ انها فتنة يا ابنة العم ، وليس في الكوفة فتاة ترسل عيناها مثل هذا السحر

وتركت مقعدها ، لتجلس بالقرب منها ، وتلمس بيديها ذلك الجمال

وكانت ولادة تنظر الى محمد ، فقالت :

اما انا ، فلم اكن اظن اني سأرى محمدا ، مثلما اراه الان ... جبين وضاح ، وثغر ضاحك .. ووجه يطفح عذوبة .. واني لاذكر ، انك تركت الشام منذ خمسة عشر عاما ، فيكون محمد اليوم ، في الرابعة عشرة

قالت : اجل ، واظن ان ام كلثوم لم تبلغ هذا العمر

ـ لا فهي في عامها الثاني عشر ، وقد ولدت في آخر السنة التي بويع فيها يزيد بن معاوية ، بولاية العهد

وكانت الفتاة مطرقة ، وقد لفتت كلمات ميمونة نظر محمد ، فجعل يحدق اليها بعينين بريئتين ..

ثم رفعت الفتاة رأسها ، وتلاقى النظران .. فخفق القلبان ، وتمشت في الجسدين ، قشعريرة عذبة ، هي قشعريرة الحب ..

ثم أحس الفتى ، بأن تلك العاطفة الجديدة التي ترددت في صدره ،

تغمر نفسه .. واحست الفتاة ، بانها لا تستطيع ، الا ان تصغي الى ذلك الهمس السري ، همس الغرام ...

لقدفاجأهما الهوى وهما لا يعلمان ما هو ... ولكنه حلم عذب ، نقل الاثنين الى عالم فياض بالمنى ، وقد طاب لهما ، في تلك اللحظة ان يستسلما اليه

وذلك هو الحب ، ترسله العين ، فيضطرب له القلب ، ثم يطغي فيغمر الاحساس ...

وقد نسي الفتيان عندئذ كل شيء ، نسيا الكوفة ودمشق ، وابن الزبير وعبد الملك ، وكأن القلبين اللذين لا عهد لهما بالغرام ، كانا يتهامسان ...

وكانت ميمونة ذاهلة.. لا ، بل كانت تفكر في تلك الصغيرة الحسناء، التي ارسلها القدر من دمشق لتكون زوجة لمحمد ...

غير ان يحيى ، أخرجها من ذلك الذهول .

لقدطاب لهوهو من رجال السياسة والحرب ان يتبين ما في الكوفة من اسرار وآراء ، فيما يعني آل الزبير وآلمروان

وانه ليستطيع ، وهو بعيد عن عبد الملك ، ان يسأل عما يشاء ، ويحدث الناس بما يشاء

وكان واثقا ، بان ميمونة، التي قضت في بيت عبدالله بن عزيز الكناني، عشرة اعوام ، تعلم من امر الكوفة ، ما لا تعلمه الرجال

فقال : يا أم محمد ، أليس لك رأي في عبد الملك وابن الزبير ، اللذين يزعمان انهما أحق الناس بالخلافة ؟

قالت : الرأي لكم انتم رجال الدولة ووجوه العرب

قال : اما نحن فلا رأي لنا في خليفة الحجاز ، ولم يكن بيننا وبينه عهد ، ولكننا لا نحب بني مروان ، وخير لاهل الشام ان يختاروا لخلافتهم رجلا غير عبد الملك

ـ : اجل ، خير لهم ان يختاروا سواه ولكنهم لا يفعلون

قال : قد يفعل اهل الكوفة ما لا يفعله هؤلاء ..

ـ : ماذا ؟ أيخلعون خليفة الشام وهم في العراق ؟

ــ نعم يزحفون مع مصعب الى قلب دمشق ، ويحطمون العرش ، الذي يجلس فيه ، سفاك الدماء ، وقاتل الابرياء

فابتسمت قائلة : ذلك حلم لا يخطر للعراقيين

ــ لماذا ؟

فقال محمد : لانهم لم يتعودوا ان يدافعوا عن رجل الى النهاية

ــ سيدفعهم مصعب الى هذا الدفاع ..

ــ ان مصعبا اعجز عن ان يفعل هذا

ــ لو كان عاجزا لما استطاع ان يقتل المختار ويستولي على الكوفة

ــ تخلى اهل الكوفة عن المختار فغلب ، وسيتخلون غدا عن مصعب، فيخسر آل الزبير العراق وقد يخسر مصعب حياته

فرأى يحيى ، ان الفتي يعلم الشيء الكثير عن الكوفيين ، فقال : ولكنهم بايعوا اخاه عبد الله واعترفوا بخلافته ..

ــ اجل ، كما بايعوا عليا والحسن من قبل ، وكما طلبوا الى الحسين ان يأتيهم ليرفعوه الى العرش ..

فقال لميمونة: يظهر انمحمدا ابعد نظرا من رجالالعراق الذينرأيت..

قال : بل انا فتى اركض فرسي مع افراسهم في ميادين السباق واسمع فتيانهم وشيوخهم يتحدثون بأمر بني مروان

ــ وماذا يقولون ؟

ــ يقولون ان ابن الزبير رجل صلاة وزهد ، وعبد الملك رجل حيلة والمدر ، ثم يقولون بعد يوم : لا يصلح عبد الله للخلافة وعبد الملك خير منه

قال : سأنظر في امرهم مع مصعب نفسه .. وهل يتحدثون بأمر الزحف الى الشام ؟

ــ بل يذكرون ان عبد الملك سيزحف الى العراق ..

فأطرق مليا ثم قال : لا اظن ان عبد الملك يجسر على ذلك

ــ اما انا فاظن ان خيله ستفاجيء الكوفة بعد زمن قصير

ــ يخيل الي انك سمعت شيئا

ــ نعم سمعت ان ابن مروان يتهيأ للحرب

ــ وكيف انتهى الامر الى الكوفة وذلك الغدار يكتمالناس ما يصنع؟

ـ لقد كتب الى رؤساء العشائر يسألهم ان يتخلوا عـن مصعب ، ويعدهم بأن يجعلهم من عمال دولته

ـ وتعرف انت هؤلاء الرجال الذين اتهم كتبه ؟

فالتفت الى امه ثم قال :

لقد ذكروا كتبا ولم يذكروا اسماء ...

قال : اذن فالامر اعظم مما اظن ، ومن الرأي ان اسير الى مصعب..

وجعل يعبث بلحيته وهو يقول : خطر لي امس ان مصعبا يأتينا الليلة

ـ واي شيء تصنعه اذا رأيته ؟

ـ اطلب اليه ان يجمع من في العراق وخراسان حتى ينضم اليه اكثر من خمسين الفا من رجال البأس يغزو بهم دمشق

قال : ان لم يكن في دمشق ، رجال يشهرون السيف في وجه عبدالملك، ويكونون انصارا لآل الزبير ، فمصعب مغلوب

ـ يكفي ان يكون بنو العاص ، واتباعهم ومواليهم من انصاره

ـ انتـم ؟

ـ نعم نحن ، وهؤلاء ابناء اخي ، لا يترددون ، في الطلب بدم ابيهم الذي جعل بني مروان خلفاء

فصاحت ام كلثوم قائلة : يكفي يا عم ما جرى ، والله القادر على كل شيء ، هو الذي سيطلب بدم اخيك ويتولى امر الظالمين

ـ وماذا تخافين ؟

ـ اخاف ان يساعد القدر عبد الملك في حربه ، فيحصدكم السيف

قال : اعطوني جيشا وانا اضمن لكم اني احطم عرش بني مروان

قالت : الا يستطيع خليفة الحجاز ان يدافع عن نفسه ؟

ـ بلى

ـ اذن فليزحف الى الشام ، او فليزحف عبد الملك الى العراق ، فنحن لا نبالي وستنظر في امر الخلافة بعد ان يستقيم الامر لاحد الرجلين ..

ـ ولكن عبد الملك عدوي وقاتلي

ـ وابن الزبير اعدى اعدائه فمن الرأي ان تحاربه به

ـ واقيم انا بمنزلي كما تفعل النساء ؟

ـ نعم ، حتى يصرع احدهما الاخر وتمسي الخلافة للظافر

قال : ان بني العاص لم يكونوا قط من الجبناء

ـ كما ان صدورهم لم تكن قط هدفا لسهام الطامعين ...

فقالت ميمونة في نفسها : لقد خلقت ام كلثوم لمحمد ...

ثم قالت ليحيى : اتأذن لي ان اقول ما اعلم ؟

فحنى الرجل رأسه ولم يجب ، فقالت : ان نار الحرب ستستمر اليوم او غدا بين الخليفتين

ـ ذلك امر لا بد منه

ـ وسيظفر احدهما بالاخر كما قالت ام كلثوم ، فاذا اراد الله ان رسخ قدم ابن الزبير في الخلافة ، ويهوي عبد الملك عن عرشه ، فقد كفاك الله مؤونة القتال ، واذا سقط ابن الزبير كان لك رأي آخر ، فانت تحتاج الان ، الى القليل من الصبر

فقال امية : لم يبق الا ان نحتجب عن العيون لنخفي هذا الضعف

ـ ليس في الامر ضعف كما تظن وانما هي حكمة

ـ وماذا نقول غدا لابن الزبير اذا اظفره الله ؟

ـ اذا دانت له الشام فهو لا يسألك عن شيء ..

ـ بل يسأل عن الاعداء والانصار ليعطي كل واحد منهم ما يستحقه..

ـ اما انت فسيدعوك اليه ليجعلك من خاصته ويدعو عميك يحيى وعنبسة ليستعملهما على الشام والعراق ..

قال : اسمع انه لا ينسى الاساءة ولا يلين لعدو

ـ وانا اعلم انه سيستعين بخصوم بني مروان ويعهد اليهم في حماية الثغور ، حفظا لملكه .. ولكن ماذا تقولون لعبد الملك اذا فشل مصعب ؟

فتردد الفتى في الجواب

فقالت ام كلثوم :

وماذا يقولون له ؟ انهم يلجأون الى بلاد الروم فرارا من غضبه ، واذا خطر له ان يأذن لهم في الرجوع كانوا غرباء ...

اما محمد فقال : انظروا الان ، ولينظر مصعب ، في امر الدفاع عن الكوفة والبصرة ، لان عبد الملك سيجيء ..

فاجابه يحيى قائلا : سنكون نحن بين المدافعين
وهكذا قال امية
فارتفع صوت ام كلثوم ثانية وهي تقول : اذا فعلتما قتلت نفسي
وكانت ميمونة ساكتة ، فقالت :
ليست ام كلثوم من هذا الرأي ، فهي تخاف عبد الملك على عميها واخوتها ، وتخشى ان يغدر بهم كما غدر بابيها البريء
ـ نعم اخشى ذلك ، واطلب الى عمي وامية ان يصبرا ، ريثما ينتهي الامر بين عبد الملك وآل الزبير
ـ واذا ندبنا مصعب غدا الى القتال
ـ انه لا يفعل يا عم لانه يعلم انكم لستم من رجاله
ولكننا نعيش تحت رايته ..
ـ لم يكن العراق لمصعب واخيه بل هو للعرب
قال : سأراه غدا واتبين ما في نفسه
ـ بل تعدني الان بانك لا تحمل سيفا ولا تخرج الى حرب
قال : صعب علي ان استخفي وراء الجدران
ـ واصعب من هذا ان تموتوا ذبحا يا بني العاص
فدمعت عيون النساء ، ثم قال يحيى :
يجب ان اعرف رأي مصعب قبل ان اعد فقد يفكر الان فيما لا نفكر فيه
ونهض وهو يقول :
ومن يعلم ، فقد نبقى في منازلنا لا نخرج منها الى قتال احد ، حتى يجيء يوم لا نستطيع فيه البقاء
ونهض عنبسة ، ثم خرج الاثنان الى المنزلين القريبين ، اللذين يقيمان بهما ، وجلس محمد والفتيان الاربعة ، والمرأتان وام كلثوم ، يتحدثون
ولم تر ميمونة ان تخاطب ولادة ، بشأن الزواج في ذلك الليل ، بل كانت تؤثر الصبر ، ريثما تضمحل كآبة آل عمرو ، ويستعيدون الهدوء
ولو نظر القوم ، في تلك الساعة ، الى محمد وام كلثوم ، لرأوا ان هنالك لغة عيون ، يتلألأ فيها الحب ...

★★★

٢٠

قال مصعب لقيس بن الهيثم وهو من المخلصين له :
أرأيت يحيى بن سعيد وبني اخيه ؟
ـ لم يخطر لي ان ازورهم لاني لا اعرفهم ، بلى ، كنت اعرف عمروا ، واعلم عن بطولته الشيء الكثير
ـ يقولون لي ، ان احول عنهم وجهي، وانظر اليهم ، وهم في الكوفة، كما انظر الى كل غريب لا شأن له
ـ ولم ذلك ؟
ـ لان عمروا ، الذي ذبحه عبد الملك ، هو الذي تصدى لي يوم غزوت الشام ، وحال بيني وبين الفتح
قال : لم اكن معك يوم اتيت الشام غازيا ، ولكني سمعت في ذلك الحين ، انك كنت على رأس جيش قليل العدد لا يستطيع ان يثبت في وجه الجيش الكثير المدافع عن ارضه
ـ هو ذاك ، وكنت اظن ، ان الاثني عشر الفا الذين غزوا معي ، يقتحمون الموت ، ويخلعون مروان عن عرشه ولكنهم عندما رأوا ان جيش مروان يزيد على الثلاثين ألفا تراجعوا الى الوراء دون ان يشهر سيف
ـ ومن اجل ذلك يقول لك الناس اليوم ان تحول وجهك عن آل عمرو ..
ـ نعم ، فهم يظنون اني احفظ الحقد لبني العاص ، واني لم انس ان عمروا كان السبب في هزيمة الجيش ..
ـ مع انك لم تفكر في هذا
ـ فكرت كثيرا ، ثم رأيت ان اعترف بالبسالة لذلك القائد الذي ذبحوه غدرا واحيط اهله النازلين علينا بالعناية والفضل ..
وسكت قليلا ثم قال : ما رأيك في هذا ؟
قال : هؤلاء من بني امية ايها الامير ، وانا اخشى ان يكون لهم في الخلافة رأي غير رأيك
فابتسم قائلا : من هو سيد الامويين اليوم ؟

ـ عبد الملك
ـ وهو خليفتهم الذي يرجعون اليه
ـ نعم .
ـ وهل نسيت يا ابا الهيثم ، ان سيد الامويين الذي هو الخليفة نفسه ، غدر بعمرو بن سعيد وقتله في قصره ؟
ـ لم انس
ـ وكيف تظن اذن ان اهل القتيل يدافعون عن بني امية وينسون ما ذكرت ؟
ـ اردت ان اقول انهم يدافعون عن خلافة الامويين لا عن خلافة عبد الملك
ـ اي انهم يؤثرون ان تبقى الخلافة فيهم على ان تنتقل الى آخرين
ـ هذا ما يخطر لي
ـ ولكنهم لا يحبون هذا الخليفة الغدار الذي تخضبت يداه بدم عمرو
قال : احسنت ، ولكن من هو هذا العدو ؟
ـ هو انت
ـ اذن فالسياسة تقضي علي بان اغمرهم بالاحسان ليكونوا عونا لي، اذا امرني امير المؤمنين بالزحف الى دمشق.
سيكونون عونا لك على عبد الملك ليس غير ، واما ان يساعدوك في ابعاد بني امية عن العرش فذلك ما لا اؤمن به
قال : سنقرأ غدا اسرارهم ، ونلمس بالايـدي ما تحفظه الصدور لعبد الملك ، من حقد وبغض
ـ وهل يريد الامير ان يدعوهم اليه ؟
ـ بل نسير اليهم اذا ترددوا في المجيء
ـ ومتى تفعل ؟
ـ بعد بضعة ايام
قال : خير للامير ان يشعر بنو العاص بحاجتهم الى معونته
ـ بل خير له ان يشعروا بفضله ، وليس القوم من صعاليك العرب ، بل هم سادة الناس واشرافهم كما تعلم

قال : ليفعل الامير ما يشاء فليس لنا الا ان نعطيه

قال : لقد انتهينا من هذا الان وسننظر فيه بعد ايام

ثم نادى حاجبه فقال له : ادع قطن بن عبد الله الحارثي سيد مذحج، وحجار بن ابجر ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد

ثم سمى له عشرين رجلا من وجوه الكوفة وهو يقول : يجب ان يجيئوا الساعة

فلما اقبلوا قال : دعوتكم لاسألكم الرأي في امر الزحف الى الشام

وكان الناس في الكوفة يتهامسون قائلين : لقد كاتب عبد الملك وجوه القوم وسألهم ان يبايعوه ...

وهم يشيرون من وراء الستار ، الى هؤلاء الثلاثة الذين ذكرنا ، كما يشيرون الى عتاب بن ورقاء

ومصعب لا يعلم شيئا من هذا

وكان عتاب قد اقبل مع الجماعة فقال لمصعب :

لو امرتنا بان نسير ، ونحن تحت لوائك ، الى اقاصي الارض ، لما ترددنا في ذلك ، ولكن هنالك اشياء نذكرها لك ..

قال : ما هي ؟

ـ هي ان قتال عبد الملك في دار ملكه ، قتال فيه خطر

ـ واي حرب خضت غمارها يا عتاب ولم تجد فيها خطرا

ـ اردت ان اقول ان صاحب الشام ، وهو في بلده وبين عشيرته وقومه ، اقوى على الحرب ، منه وهو بعيد

ـ سترى انه اضعف مما تظن

قال : لقد حاولت ايها الامير ان تخضع الشام في عهد مروان فلم يكن الظفر حليفا لك

ـ ذلك لان الجيش الذي غزونا به ، كان قليل العدد

ـ واليوم ؟

ـ اما اليوم فسنسير بأهل العراقين وطائفة من اهل الحجاز ، حتى يبلغ الجيش خمسين الفا من الرجال

ـ ولكني سمعت ان اخاك امير المؤمنين لا يرضى بان تغزو عبد الملك،

بل هو يؤثر ان يغزوك ..

ــ اجل ، انه يؤثر ذلك ولكنه سيأذن لي اذا سألته

ولم يكن لاولئك الرجال رغبة في الزحف الى دمشق كما رأيت

فقال خجار بن ابجر :

لي كلمة ايها الامير

ــ ونحن دعوناك لتقول كلمتك

قال : قد تتردد عشائر العراق في الخروج الى الحرب

ــ لماذا ؟

ــ لان القتال لا يطيب لها في ارض الشام

قال : هذا هو العجز ...

ــ ولكنها تؤمن بان الحظ يخونها كلما جالت الخيل في تلك الارض..

فضحك قائلا : وانا مؤمن بان القوم الذين يترددون في الامر قوم جبناء ..

ثم قال لقطن بن عبد الله :

وانت .. ماذا ترى ؟

قال : انظر الى الامر من ناحيتين

ــ الاولى ؟

ــ اما الاولى فليس من الرأي ان يخرج اهل العراق جميعهم الى الشام وتبقى البصرة والكوفة ولا رجال فيهما

ــ اذن فانت تخاف ان يوجه عبد الملك جيشا يستولي على الاثنتين

ــ نعم ايها الامير ، هذا ما اخافه

ــ وتظن انه يجسر على ذلك ؟

ــ ولم لا ، وانت في الشام ، ورجال السيف حولك ، وليس في العراق غير طوائف النساء والاطفال ..

ــ والناحية الاخرى ؟

ــ وأما الاخرى ، فليس لك ولنا ، ان ننظر في امر الفتح ، قبل ان يرد علينا كتاب من امير المؤمنين ..

ــ وهل بقي لك ما تقول ؟

ــ لا ايها الامير

قال : ان لك من الناحية الاولى رأيا، وسنبقى في العراق ، اذا خرجنا، فهل يستطيع ان يحميه ..

ــ وكتاب الخليفة ؟

ــ اني اخو الخليفة يا ابن عبد الله ، أليس كذلك ؟

ــ بلى

ــ وانا من انصاره المخلصين له

ــ نعم

ــ وقد ولاني امارة العراق لاكون انا الآمر فيــه ويطيعني اهله ، فاخرج الى الحرب عندما اشاء وابقى عندما اشاء

ــ هذا ما اعلمه ، ونحن في الطاعة ..

قال : اني لم آت العراق لامكث به الى الابد ، بل يخطر لي ان اثب من قطر الى قطر لاجعل ارض العرب كلها خاضعة لذلك الخليفة المقيم بمكة

ــ ولكنك لا تفعل ذلك ايها الامير الا بأمر مولانا اخيك

ــ اجل ، افعله بأمره ، وقد عهد الي في اخضاع الاقاليم التي ينضم اهلها الى عبد الملك

قال : اذا رأيت ان تخرج الى الشام في هذه الساعة فنحن معك

فسكت قليلا ثم قال : لا .. انك مصيب من الناحيتين ، ولا بد لنا من ان نسأل امير المؤمنين رأيه ، قبل ان نصنع شيئا ..

وكان القوم واثقين ، بأن عبد الله ابن الزبير لا يأذن لاخيه في تــرك العراق والخروج الى قتال عدوه

وهذا معناه ، ان عبد الله كان يعلم ، ان في العــراق رجالا كثارا لا يرضيهم شيء ، ولا يطيب لهم غير تغيير الوجوه ...

ثم قال مصعب :

بقي امر لم نذكره لكم هو امر بني العاص الذين نفاهم عبد الملك الى الكوفة ، بعد قتل سيدهم عمرو ..

فقال عتاب : لم نر القوم

قال : وانا لم ارهم واني افكر في ان اسير اليهم بنفسي بعد ايام

ـ عليهم ان يمثلوا اولا بين يدي الامير ويظهروا الطاعة

ـ هم يظنون على ما ارى ، اني لا احبهم ، ولا اطيق ان يدخلوا قصر الامارة الا اذا دعوتهم اليهم

ـ وكيف ذلك ؟

ـ أنسيت ان القائد الذي تصدى لي ، يوم زحفت الى الشام ، هو القتيل عمرو بن سعيد نفسه ، الذي يبكونه اليوم ؟

ـ لا

وتعلم ان اخويه يحيى وعنبسة ، اللذين قدما الكوفة اليوم ، كانا يومئذ في طليعة الجيش الشامي ؟

ـ ما سمعت هذا قبل الآن

ـ لقد كان آل سعيد بن العاص ، اعوانا لبني مروان ، واعداء لبني الزبير ، وكانت سيوفهم تبني هذا الملك لعبد الملك

ـ وانهم اليوم يخجلون من المجيء اليك ، وقد كانوا اعداءك

ـ هذا اهون ما يظنون ، ولقد خطر لي ، ان ارحب بهم واضع يدي بايديهم واقول لهم على مرأى ومسمع من اهل الكوفة :

يا بني سعيد بن العاص ، لقد نسيت الماضي ..

ـ وما هي الغاية من هذا ؟

ـ الغاية منه ان يعلم هؤلاء الناس ، واهل الشام جميعهم ، ان بني الزبير يغفرون لاعدائهم ويحسنون الى اللاجئين اليهم

ـ ولكني اخشى ان يعلموا ، ان الامير يستغل العداوة بينهم وبين عبد الملك ، ويهش لهم ليجعلهم من اعوانه .

ـ ليظنوا ذلك فانا لا ابالي

فاشرق جبين قيس بن الهيثم وقال : هذا ما ذكرته له ..

فاسكته مصعب قائلا للحارثي : قل ما تعلم

فأراد الرجل ان يتسع الخرق بين بني الزبير وبني امية فقال : اعرف ان هؤلاء الامويين لا يريدون ان تنقاد اليكم الخلافة

قال : اذكر دائما ان عبد الملك قتل اعظم رجل من بني العاص ، وطرد

اطوله وبنيه من بلاده

ــ ذلك لا يمنعهم من ان يبغضوا عبد الملك ويحاولوا خلعه عن العرش ، دون ان يفكروا في نقل الخلافة من بيتهم الى بيت آخر

فقال ابن الهيثم : اسمعت ايها الامير ؟

قال : لقد كان جوابك وجوابه واحدا فكأنكما كنتما على عهد

ــ وعلى اي شيء عولت ؟

ــ على زيارة القوم ، مستعينا بالدهاء على قراءة الاسرار

ــ واسير معك

ــ نعم ، ويسير عيسى ايضا

« وعيسى ابن مصعب »

ــ ومتى تفعل ؟

ــ في هذين اليومين وسأسأل القوم رأيهم في عبد الملك دون ان ابوح لهم بالامر الذي افكر فيه

وصرف الناس فخرجوا ، وبعضهم يقول في نفسه :

يقول عبد الملك انه سيزحف الى العراق ، ويقول مصعب انه سيزحف الى الشام فلا نعلم اي الرجلين يسبق الاخر .

ثم يقول هذا البعض للبعض الاخر : ما كنا لنغزو الشام ولو امرنا بذلك عبد الله بن الزبير

★★★

٢١

عندما قتل المختار ، استوثق الحجاز كله لابن الزبير ، وتضعضع اصحاب محمد بن الحنفية ، المقيمون معه بشعب علي

وكان هؤلاء الاصحاب ، قد استأذنوا محمدا في قتال ابن الزبير وهو أبى ، ولا يريد ان تشتعل النار من اجله

فلما انتهى خبر المختار الى مكة ، دعا ابن الزبير اخاه عروة وقال له :

سر الى ابن الحنفية ، وادعه الى البيعة ، فان فعل ، فقد انتهى الامر ، والا فالسيف بيني وبينه

فاتى عروة محمدا فقال له ذلك

فاجابه قائلا : بؤسا لاخيك ما الجد فيما اسخط الله .. قل له اني سأشاور اصحابي في الامر ثم يأتيه جوابي

فرجع عروة بن الزبير ينقل هذا الجواب الى اخيه

وقال محمد لمن حوله :

ان ابن الزبير يريد ان يثور بنا ، واني قد اذنت لكم في الانصراف فانه لا زمام عليكم مني ولا لوم

قالوا : وانت ؟

ـ اما انا فباق الى ان يفتح الله بيني وبينه وهو خير الفاتحين

فقام ابو عبد الله الجدلي فقال : اني غير مفارقك

وقال غيره مثل قوله :

وبينا هم يتشاورون ، اقبل رسول عبد الملك بن مروان يحمل كتابا منه الى محمد وقد جاء فيه :

انك اذا قدمت الشام احسنت اليك ولك ان تنزل حيث تشاء حتى يستقيم امر الناس ..

فعول القوم على المسير ، وهم يرون ان العيش في ظل ابن مروان ، خير منه في ظل عبد الله

ثم خرجوا يريدون الشام ، ومعهم الشاعر كثير عزة ، وكان يقول :

هديـــت يا مهدينا ابن المهتدي　　انت الذي نرضى به ونهتدي

انت ابن خير الناس من بعد النبي　　انت امام الحق لسنا نمتري

يا ابن علي سر ومن مثل علي

حتى انتهوا الى مدين ، فرأوا بعض الرجال وهم راجعون من دمشق ، فقال لهم احد اصحاب محمد :

ما وراءكم ؟

وكان هوى القوم ، في بني سعيد بن العاص ، فقال كبيرهم : وراءنا الموت غدرا ، ذبحا بالسيف ..

فدعاه ابن الحنفية فقال : قص علينا خبرك ..
قال : قتل عمرو بن سعيد
ـ قائد جيش الشام ؟
ـ نعم
ـ ومن قتله ؟
ـ عبد الملك نفسه وهو في مجلسه ، وجعل يخبره بما جرى
فدخل خيمته ثم دعا رجاله فقال : لقد ندمت على المجيء وخير لنا الا نرجع
وقد خاف ابن الحنفية على نفسه ..
ثم رأى اصحابه ان يقيم بايلة ريثما يرى رأيا آخر
واقام بها ورجاله لا يفارقونه ، وقد تحدث الناس بفضله وعبادته ، وزهده
فلما بلغ ذلك عبد الملك ، ندم بدوره، على ذلك الكتاب الذي كتبه اليه
ثم وجه اليه رسولا آخر يقول له: لا يكون في سلطاني رجل لا يبايعني
فلم ير محمد الا ان يعود الى مكة ، وينزل شعب ابي طالب
فأرسل اليه ابن الزبير يأمره بالرحيل عنه . ثم كتب الى اخيه مصعب، يطلب اليه ان يسير نساء الرجال ، اصحاب بن الحنفية ، ويخرجهن من العراق
ففعل مصعب ما امره به
وكان بين النساء ، امرأة ابي الطفيل ، عامر بن وائلة ، فجاءت حتى انتهت الى زوجها ، فقال الطفيل شعرا :

ان يك سيرها مصعب ... فاني الى مصعب متعب
اقود الكتيبة مستبسلا ... كأني اخو عزة أحرب

وهي ابيات كثيرة لا يتسع لذكرها المجال
وظل ابن الحنفية في شعب ابي طالب ، وابن الزبير يأمره بالرحيل ويلج في طلبه دون ان يسكت
وكان محمد يقول : أللهم ألبس ابن الزبير لباس الذل والخوف ، وسلط عليه وعلى اشياعه من يسومهم ما يسوم الناس
ثم سار الى الطائف

فدخل ابن عباس على ابن الزبير واغلظ له ، ثم خرج فلحق بمحمد وتوفي بالطائف ، بين يديه .

★★★

٢٢

يكاد يكون منزل آل عمرو بن سعيد، منزلا لمحمد بن عبدالله الكناني ..
هو يزوره كل يوم ، في الصباح والمساء اذا شاء
ويخرج مع امية واخوته الثلاثة يطوفون في شوارع الكوفة وقد يسابقون الفتيان على الخيل
والحب ينمو ، ونار الغرام تتأجج في صدره وهو لا يعلم اي عاطفة تتردد في صدر ام كلثوم
اجل كانت عيناها ترسلان أشعة الغرام ، وتبوحان للفتى ، كل يوم ، بما يجول في ذلك الصدر من شعور فياض بالهوى ، ولكن محمدا لم يكن راضيا بما يرى ، بل كان يريد ان يسمع بأذنيه ، ويلمس بيديه ...
وقد علمت ولادة ، ان الفتى يحب ام كلثوم ، كما علمت ميمونة ان محمدا يحبها ، فطاب للمرأتين ، ان يبسط الحب فوقهما جناحيه
لقد كان اصهار ولادة من الامراء ، بينهم عبد الله بن يزيد ، بن معاوية، ولم يكن محمد من هذا الصف
على انه ، في شرفه وثروته ، وبسالته وادب نفسه ، اعظم شأنا من هؤلاء ، وقد يجعله القدر ، في الآتي القريب ، سيدا من سادات العرب ، اصحاب النفوذ والجاه
محمد فتى شريف المنبت ، كريم النبعتين ، وماضي ابيه ، حافل بالمكرمات والمفاخر ، فليس لولادة ان تشكو وتلوم الزمان
ذلك ما كانت تفكر فيه ارملة عمرو بن سعيد
وكانت تقول لبنيها : ان هذا الكناني خير الفتيان
ووافقها يحيى وعنبسة في الرأي ، وكان الفتى عندهما من اكرم الناس

ولكن لم يخطر لولادة ان تتزوج ام كلثوم ، في هذا العمر ، ولم يكن من رأيها اذا طلبها محمد ، ان تتعجل في الجواب

ذلك لان لزوجها القتيل حرمة ، فهي لا تزف ابنته ودمه لم يجف .. ولا ترضى من الناحية الاخرى بان تنتقل ام كلثوم الى بيت آخر ، وهي صغيرة السن

وهنالك شيء آخر ، هو ان القوم لا يعلمون ، الى اي هاوية يقذف بهم ، غضب عبد الملك

نفاهم الى العراق ، فأتوه ، ولكن قد يخطر له ، بعد زمن قصير ، ان يبعدهم الى اليمن ، او الحجاز ، او يرسلهم الى مصر ، بل قد يخطر له ، ان يعيدهم الى سجن دمشق ، الذي اخرجهم منه

الدولتان ، في الحجاز والشام ، تضطربان ، والناس ، كما علمت ، يشيعون في الظاهر للخليفة الحجازي، ويخونونه في السر، وانت لا تسمع، الا حدثت احدا بأمر السياسة ، غير الزفرات تخرجها الصدور ، ولا ترى غير الكآبة على الوجوه

والعرب كلها لا تعلم ، أيكبو فرس عبد الملك في الساحة فتمتد اليه يد عبد الله بن الزبير ، ام يخون الحظ عبد الله ، فيستولي عبد الملك على الدولتين

كلا الملكين يعد عدة القضاء على الاخر ، ورجال الخلافتين يفكرون في التخريب والغزو ، والتدمير والفتح

واغراض الامراء ، اصحاب النفوذ ، ورؤساء العشائر،تفسد الفضاء ، ورجال السؤ ، ينقلون الى الخليفتين ، ما يتحدث به الناس ، في المخادع والساحات

نعم ، كانت الحال ، في ذلك الزمان ، على ما رأيت ، رجال الشام يخافون اهل الحجاز ، واهل الحجاز يخافون اهل الشام ، وليس فيهم جميعهم ، رجل مؤمن بان الامر سيستقيم لخليفته

ان النصر في يد الله يهبه لمن يشاء

من اجل ذلك كانت ولادة تنظر الى الحياة نظرة الحذر ، ولا تجسر ، مع اخوي زوجها وبنيها على الاستسلام ، الى الاحلام

وهؤلاء جميعهم ، الا يحيي وامية ، يؤثرون الصبر في الحادثات التي تعرض لهم على التعجل في القول والفعل

وميمونة كما عرفت ، لم تكن تريد ان تخاطب ابنة عمها بشأن الزواج، الا بعد ان تتلاشى الاحزان ، وتزول الفوضى

اما محمد وام كلثوم ، فلم يفكرا فيما يفكر فيه القوم ، بل كانت رغبة الواحد منهما ، في ان يسمع من الاخر الفاظ الحب ...

وكان يحيى وعنبسة ، يهمان بالذهاب الى قصر الامارة ليريا مصعبا ، وامية يريد ان يسير معهما .. فلما عولوا على الخروج ، اقبل حاجب مصعب يقول :

لقد جاء الامير ، وابنه عيسى ، وقيس بن الهيثم

فمشى الرجلان والفتيان الاربعة لاستقبالهم ، ودخل محمد ، وكان في المنزل ، حجرة صغيرة عند الباب احتجب فيها عن عيني الامير

وهو يريد ان يجالس اميرته ام كلثوم ، عندما يجالس اخوتها وعماها، امير العراق ، وولده عيسى

وكان قد رأى الامير من قبل ، ولكن الامير لم يكن يعلم من هو

ودخل مصعب والابتسامة على شفتيه ، وجعل يصافح القوم واحدا بعد واحد ، ثم تقدمه يحيى الى قاعة الجلوس

ومصعب ، في مقتبل العمر ، لا يجاوز الخامسة والثلاثين ، وهو حسن الوجه ، براق العينين ، تقرأ على جبينه العظمة والجلال

ولم يلبث حتى استوى جالسا وهو يقول ليحيى : هؤلاء بنو اخيك القتيل رحمه الله

ــ نعم ايها الامير

ــ ولهم اخت تدعى ام كلثوم وهي صغيرة ، فاين هي ؟

فقال لاحد الغلمان : ادع ام كلثوم

فدعاها الغلام فأقبلت ، وهي مطرقة ، وعيناها ذابلتان ووجهها يفيض نورا وبهاء

فحنت رأسها ثم جلست بالقرب من اخيها اسماعيل

فقال مصعب : كانت ام كلثوم في عامها السادس ، يوم سرت الـــى

الشام لقتال مروان بن الحكم وكنتم انتم من انصاره •••
ــ وكيف يعرف الامير ذلك ؟
ــ يعرف الامير ما يريد ان يعرفه ، عندما يشاء
ثم قال : كيف رأيتم يا بني العاص ، دولة بني مروان ؟
ــ إنها دولة ظلم وغدر ، ولم يكن بنو العاص ، اول الناس الـذين خدعتهم المظاهر الكاذبة ••
قال : رفعتم مروان الى العرش ، فنكث العهد ، ثم رفعتم بعده ولده الملك • فأجرى دمكم عند قدمي عرشه ، وطردكم من دمشق ••
واومأ اليه ، بان يأمر ام كلثوم بالانصراف ••
ففعل يحيى ، وهو يرى ان الامير لا يحب ان يقول كل شيء والفتاة حاضرة ••
وخرجت ام كلثوم على ان لا ترجع
فقال : نستطيع الان ان تتحدث بجلاء دون ان تهيج عواطف النساء ••• كيف قتل عبد الملك عمروا ؟
فاختنق صوته وهو يقول : وضعه في جامعة ثم ذبحه بيده ••
ــ وبعد ذلك ؟
ــ قذف برأسه الى ساحة القصر ، ثم القى المال بالبدر ، ولم يلبث حتى استرجع ماله ، وجلس للناس في المسجد كأنـه لم يخضب يديه بدم البريء
ــ وانتم ماذا صنعتم يا فرسان الشام وابطال الامويين ؟
ــ زحفت الى القصر ، في الف من العبيد والموالي ، واقبلت اصيح بباب عبد الملك : اسمعنا صوتك يا ابا امية ، ولكن ابا امية كان قد قتل ، فجعلت اضرب الناس بسيفي واحاول الدخـول لاقضي على الغدار فلم اقدر •••
وكانت غاية الداهية ، ان يشعل النار من جديد ، قبـل ان يمعن في حديثه ، فقال وهو هادىء :
ثم ماذا ؟
ــ ثم كثر رجال الحرس بالحراب ، فتفرق القوم ، وطاب للظالم ان

يقتل ابرياء آخرين هم انا وعنبسة وهؤلاء الفتيان ..

ــ كما انه اراد ان يقتل حميد بن حريث وزهير بن الابرد ..

ــ نعم ايها الامير ، ولو لم يشفع اخوه عبد العزيز فيمن ذكرت ، لكنا الان جميعنا في القبور ...

فهز رأسه قائلا : لقد كان ذلك كما وصفت ، ثم خرجتم من دمشق يكتنفكم الذل دون ان تشهروا سيفا او تضربوا ضربة ..

قال : لم يتسع لنا المجال لنفعل هذا

ــ بلى ، انكم لو اردتم ان تفعلوه لرأيتم حولكم طوائف من الرجال تحمل السيف في وجه ابن مروان

ــ كانت هذه الطوائف يوم كان عمرو في الحياة

ــ وتفرقت بعد موته ؟

ــ نعم ايها الامير حتى اننا تركنا دمشق ، دون ان يشيعنا احد ، من اولئك الناس الذين كانوا يمشون في ركاب اخي ويهتفون باسمه

ــ وهذا معناه انهم خافوا ان يذبحهم عبد الملك كما ذبح اخاك ...

ــ او يغدر بهم كما غدر به .

ــ ومن بقي من اصدقاء الامس ؟ بقي العبيد الموالي ، الذين يعيشون في ظلكم ويأكلون خبزكم ولو كان هؤلاء احرارا لانضموا الى القاتل

وسكت قليلا ثم قال : وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فقد تعود الناس ان يكونوا عبيدا لك ، وانت ذو سلطان ، واعداء الداء عندما يجور الزمان وتزول النعم ...

وانتظر ريثما يسمع جواب يحيى ، ولكن يحيى لم يجب

فقال : وهل عولتم على ترك دمشق الى الابد ؟

قال : الدور والقصور في دمشق ، والضياع في الضواحي ، ولكننا لا نعلم أنعود اليها ام نبقى في الكوفة .. اننا ايها الامير من المغضوب عليهم ، وقد تطرحنا ايدي النوى ، في بلد آخر لا نعرف احدا من اهله

قال : انك ابن سعيد وفارس الهيجاء ، ولم يكن ابوك واخوك يقولان مثل قولك ...

ــ ان ابي واخي لم يجر الدهر عليهما كما يجور الان

ــ افتستسلم الى الضعف ، وتخور عزيمتك يا يحيى كلما عبس وجه خليفتك ؟ واي شيء هي بسالة بني العاص اذا كان غضب عبد الملك يمحوها فلا يبقى لها ظل ؟!

ــ وماذا يريد الامير ان نصنع ، وقد فارقنا الناس ؟ والحرس يقوم بالحراب على ابواب عبد الملك ، ورجال حربه جيش جرار ليس لنا مثله ؟

فهز رأسه قائلا : اريد ان تسترجعوا العز الذي خسرتموه .. ولو كنت انا من بني العاص لاسترجعته بقوة السيف !!

فخفض صوته وهو يقول : ليس لمثلنا سبيل الى ذلك

ــ لماذا ؟

ــ لانه ليس لنا جيش

قال : اتغزو عبد الملك بجيش العراق ؟

فعرف يحيى ان الامير يريد ان يستغل ، فقال :

تسير جيشك الى الشام ، وعلى رأسه رجل من بني امية هو من اعداء دولة الحجاز ؟

قال : كنت من اعدائنا فصيرك الزمان من الاصدقاء ...

قال : نسيت امرا ايها الامير

ــ ما هو ؟

قال : سأخرج من العراق لاحطم عرش الشام على رأس صاحبه ، اليس كذلك ؟

ــ بلى

قال : اخشى اذا اظفرني الله بعبد الملك ، ان تدفعني المطامع الى التربع على هذا العرش ..

ــ اذن نبعثك خاطبا فتتزوج ... اني راض بهذا الان ، ولا يبقى ، الا ان انحيك عن عرشك اذا قدرت .

ــ اما انا فلست براض كما ترى

ــ اي انك اضعف من ان تطلب بثأرك

ــ لا ايها الامير لست ضعيفا كما تظن ، ولكني لا اريد ان يغمرني الامير بفضله الى هذا الحد ، ويحسن الي هذا الاحسان الذي لم تتحدث

بمثله العرب •• اني ارضى بشيء واحد هو ان اسير تحت لوائك اذا غزوت الشام

وهذا ما يريد مصعب ان ينتهي اليه ، فقال : وثقنا بك الوثوق كله، فابيت ••

قال : ليس من المرؤة ان اسفك دماء رجال العراق ، من اجل قتيل واحد هو عمرو ابن سعيد ••

ــ وما رأيك في هذا الغزو ؟

ــ ليس لي ان انصح لك به لانني صاحب غرض ••• وقد يظن الناس، بل قد يظن الامير نفسه ، ان غرضي هو الذي املى علي ما اقوله له

ــ واذا خطر للامير ان يأمرك بالبقاء في الكوفة ، ويزحف هو الى قتال عبد الملك ، افتقول عندئذ ما تعلم ؟

ــ نعم

ــ اذا كان هذا فنحن نسألك عن عدد الجيش في الشام

ــ لو استعان عبد الملك ، بجند فلسطين ومصر ، لكان له اكثر من مئة الف نصفهم على الخيل

ــ وجميعهم من المخلصين ؟

ــ قد يكون بينهم من لا يعرف الاخلاص ولا يطمع الا بغنائم الحرب

قال : لو كان جيش عبد الملك عشرين الفا ، لوجب ان نلقاه بجيش يجاوز الاربعين الفا من اهل العراق

ــ كأنك تريد ان تقول ان اهل الشام ، اشد بأسا وابعد همة في ساحة الوغى ، من هؤلاء ••

ــ بل هم اشد اخلاصا لبني مروان ، من اهل العراق لبني الزبير ، واني سأسأل امير المؤمنين ، اذا انا عولت على الزحف الى الشام ، ان يرسل الي عشرين الفا من قومنا ••

ــ انه رأي لا بأس به فقد سمعت ان العراقيين يترددون في امر القتال ويرغب بعض وجوههم في الانضمام الى عبد الملك ••

فاضطرب قائلا : واين سمعت ما سمعت ، في الكوفة ام في دمشق ؟

ــ في الكوفة

قال : لا يطيب لاهل العراق ان ينازلوا عدوهم في ارض غير هذه الارض
ـ مع انهم كانوا يفعلون ذلك من قبل
قال : ما اظنهم يمتنعون اذا ندبتهم الى الخروج .. وهـذا قيس بن الهيثم سيد قومه ، سيكون اول مطيع
فقال قيس : وسيرى الامير ان اهل البصرة والكوفة عبيد له
ـ وسيكون يحيى وعنبسة وبنو اخيهما في المقدمة
فقال يحيى دون ان يتردد : اما انا واخي فنعم ، واما هؤلاء الفتيان فلا استطيع ان اعد الامير بانهم سيحملون السيف
ـ لماذا ؟
ـ لان امهم لا تريد ذلك
قال : هي من بني كلب ، وامي منهم ، وانا واثق بأنها ستدعوهم هي نفسها الى الخروج مع الجيش
ثم قال : يظهر انها تخاف ان يظفر عبد الملك
ـ هو ذاك وليس للامير ان يلومها على هذا
قال : اكتفي بان تكون انت وعنبسة في المقدمة وانا واثق بالنصر .. اجل ان عبد الملك شجاع ولكنه لا يثبت في وجه مصعب ، عندما تغير الخيل ..
فأراد يحيى ان يسبر الغور فقال : أتشهد ان لعبد الملك خبرة بالقتال ؟
ـ نعم ، انه خبير وله رأي ، وحوله القواد الاوفياء الذين خاضـوا الميادين في كل قطر ، وخبروا الحرب
قال : انها شهادة عدو لعدوه
قال : تعودت ان اقول ما اعلم وانا اعرف عبد الملك كما اعرف عيسى هذا ، وتشهد المدينة ، يوم كان فيها مع ابيه مروان ان بيني وبينه صلة ولاء وصحبة لا يستطيع ان ينساها وان يكن على العرش
لقد كنت اعلم ، ونحن الاثنين في الحجاز ، انه فقيه وبطل وذو رأي كما قلت ولكني لم اكن عالما بانه الظالم الغدار الذي ينسى المعروف ويذبح المحسن الى دولته . ولكنها الخلافة والعرش ... هذه الخلافة التي تمحو الرحمة فيها كل عاطفة هي التي تدفعه الى الغدر والقتل وتملي عليه ان يكون جزارا يذبح الناس الجالسين معه على سريره ...

ودار مصعب دورة اخرى حول غايته ثم قال : قلت انه لم يبق لك في الشام اصحاب يمشون وراءك ..

ــ لقد طلقنا هؤلاء الاصحاب عندما خرجنا من دمشق ، اما اليوم فلا اعلم اذا كان فيهم من يشاركنا في القتال

ــ وبنو كلب رجال حميد بن حريث وزهير بن الابرد ؟

ــ اظن انهم يكونون عونا لنا على الطاغية ..

ــ وكم هو عددهم ؟

ــ يبلغون الالفين

ــ وعندكم الف من الموالي ؟

ــ نعم

ــ اذن فجميع الانصار في الشام ثلاثة آلاف

قال : اذا بسم لنا النصر كثر الانصار .. ولكن هنالك شيء لم اذكره لك هو ان عبد الملك سيأتي العراق ..

قال : هذه الكلمة اسمعها منذ عام

ــ اما انا فقد سمعتها منذ ايام

قال : أتيت الكوفة فسمعت فيها كل شيء

ــ اجل ايها الامير ، ويظهر ان الاخبار تنتهي اليها من الشام قبل ان يعرفها الشاميون ..

قال : ليأت عبد الملك فذلك خير للكوفيين

ــ وما تصنع انت ؟ أتعد عدة الزحف الى دمشق ؟

ــ اكتب الآن الى امير المؤمنين وانتظر جوابه ، وانا اسألك في الوقت نفسه ان تكتب الى انصارك من بني كلب ليتهيأوا للقتال .

ــ افعل ذلك عندما تعول على ترك العراق ، لاني اخشى ان يعرفه عبد الملك فيحتاط لامره ..

وكان مصعب قد عرف ما اراد ان يعرفه ، وبقي عليه ان يوثق عرى الولاء بينه وبين القوم

لقد كان واثقا بان بني سعيد بن العاص ، لهم مقامهم في الشام ، والناس يعرفون من هم

وهو يحتاج الى الانصار الاقوياء يساعدونه في خلع عبد الملك عـن عرش الخلافة ويمهدون الاسباب لخلافة اخيه

ولا يبالي ، أكان هؤلاء الانصار من بني امية او من بني كلب •• ان غايته الوصول الى اخضاع العرب جميعها لاخيه عبد الله ، ومن الرأي ان يرحب بكل صاحب يماشيه في غايته

ويحيى بن سعيد عدو عبد الملك ، وهو من اشراف الناس ووجـوه العرب ، فاذا وضع يده بيده ، وجعله من اصدقاء بني الزبير الى الابد ، فقد انتزع من بني امية قوة هي ركن من اركان خلافتهم في القطر الشامي.

وهذه الصداقة لا تتم له بالحيلة والدهاء بل يبلغ الغرض منها بوضع القيد في الاعناق هو قيد الزواج •

وهذا ولده عيسى ، في زهرة العمر وميعة الشباب ، وام كلثوم ، فتانة المحاسن وذات جمال ساحر ، فخير له ان يخطبها له وينتهي الامر

ومصعب عندما يفكر في امر يمضي فيه ، فقال وهو يبتسم :

قل لارملة اخيك انها تستطيع ان تثق الوثوق كله بأمير العراق وان لها منا العناية والمال وما تشاء

قال : ما كنا لنستحق هذه النعمة منك

ـ بل تستحقون اكثر من هذا • وهذه ام كلثوم التي رأيتها الساعة اخطبها لعيسى

فجعل ينظر الى ابناء اخيه وهو ساكت فقال : أليس لـــك رأي في هذه الخطبة ؟

ـ انها لشرف لبني العاص • ولو كنت ولي امر ام كلثوم لجعلتها منذ الان جارية من جواري ولدك ولكن امها هي التي تتولى امر الجواب

قال : لقد خطبتها الان فاذا طاب للام ان تكون ابنتها زوجة لعيسى فقد اتحد البيتان الى الابد

ـ سأقول لها ذلك ايها الامير

ـ وتنقل الي جوابها غدا ؟

فقال سعيد بن عمرو : تنقل اليك الجواب الان اذا شئت

قال : افعل

فخرج ليخاطب امه بالامر ، وهي في احدى الحجرات مع محمد الكناني وام كلثوم .

ولكنه رأى ان يكتم ام كلثوم ومحمدا الخبر ، فدعا امه الى الرواق وجعلا يتهامسان ، ثم لم يلبث حتى رجع الى القاعة

فقال مصعب : هات يا سعيد

قال نحن جميعنا من المخلصين للامير المعترفين بفضله ، ولكن امي لا تريد ان تفكر في الخطبة او الزواج ، الا بعد ان تلمس بيديها مصير عبدالملك

ــ وبعد مصيره ؟

ــ تنظر امي في الامر الذي يرضيك

قال : ارجو ان تعلم ان ام كلثوم امست خطيبة لعيسى ، على ان يتم الزواج عندما تشاء

فقال يحيى : نسأل الله ان ينتهي امر عبد الملك الى ما نحب ، وكل شيء يهون بعد ذلك

قال : اصبت فليس لنا الا ان نعد العدة ، ونهض قائلا : ان ابواب القصر مفتوحة لك ولاهلك والشرطة والحرس جميعهم من رجالك ، فاذا اردت قضاء امر في الكوفة فهم بين يديك

قال : اشكر الامير على عنايته التي هي عناية الشريف بقوم زالت نعمتهم وقسا دهرهم

قال : سترجع هذه النعمة باذن الله

ــ : حسبي وحسب اهل بيتي ان يشملنا الامير برضاه

فخفض صوته وهو يقول : يطيب لي ان اقول لك الآن ما لم ارد ان اقوله منذ ساعة . ألم يجتمع رأي اهل الشام من قبل ، على ان تكون الخلافة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد ، ثم لاخيك عمرو بعد خالد ؟

ــ: بلى

ــ: وعلى ان تكون امارة حمص لخالد وامارة دمشق لعمرو ؟

ــ: بلى

ــ: ولكن بني مروان كانوا خونة ، فلم يذكروا ما وعدوا به ، ولم

يروا الا ان يجعلوا الخلافة في بيتهم لا تنتقل منه الى سواه ، ثم امعنوا في الخيانة فحرموا اخاك الامارة

ــ: ذلك ما جرى ايها الامير كأنك كنت حاضرا

قال : اما انا فقد كنت عدوا لكم وكنتم اعداء بي فلم اعدكم بشيء ولم انكث عهدا ، ولكني اعدكم الان ، بأن امارة دمشق ستكون لك او لامية ما دام لبني الزبير سلطان ...

قال : كفى فقد جعلنا احسانك عبيدا ارقاء ...

فمد يده يصافحهم ويهش لهم ، ثم خرج وهم وراءه يشيعونه الى الفناء ، وكان قيس بن الهيثم يهامسه قائلا :

لقد كان يحيى داهية ولكن الامير ضيع دهاءه

فبدت على شفتيه ابتسامة لا لون لها ، ولم تلبث حتى اختفت، وكان عيسى بن مصعب يقول في نفسه : ما رأيت بين حسان العراق فتاة مثل ام كلثوم ...



٢٣

خدم الحظ محمدا ، فجالس ام كلثوم ، عندما كان عماها واخوتها يجالسون امير العراق

وولادة تروح في الدار وتجيء ، وهي لم تخرج الى لقاء مصعب ، فقالت الفتاة لمحمد :

يظهر انك لا تحب مصعبا ..

قال : لم يسيء الي لابغضه ، وانا لا اعرفه ولا شأن لي مع الامراء .. ولو راجعت نفسي ، لرأيتها تميل الى آل الزبير ، دون ان يكون لي صلة مع احدهم

ــ: وهؤلاء اخوتي لا يعرفونه وقد مثلوا بين يديه ...

ــ: اما انا فقد استخفيت كي لا يراني ولا اراه

ـ: وما معنى ذلك ؟

فضحك قائلا : معناه اني اؤثر البقاء هنا على الجلوس هنالك ...

قالت : لو كان للنساء شأن بالسياسة لكنت الان بينهم اسمع ما يقولون عن عبد الملك

قال : تستطيعين ان تلحقي بهم واعود انا الى المنزل

ـ: لقد دخلوا الان وانتهى الامر ، ثم قالت :

من هو هذا قيس بن الهيثم الذي يرافق الامير ؟

ـ هو من وجوه الناس المقربين الى مصعب

ـ كنت اظن ان مصعبا شيخ ابيض اللحية والرأس ولم يخطر لي انه في ربيع العمر

ـ يقولون انه في عامه الخامس والثلاثين

ـ اصابوا ، وهذا ولده عيسى لا يحسبه الناظر ابنا له ، بل يقوم في ذهنه انه اخوه

ـ وعيسى من الفتيان البسلاء ، الذين يقتحمون الصفوف في ساحات الوغى ولا يبالون بالموت ، وهو كما ترين ، احسن فتيان الكوفة وجها وافصحهم لسانا

قالت : رأيتهم من هذا الباب وهم في آخر الرواق يهمون بالدخول ولم أر وجوهم ، ولو لم تقل لي ان الفتى ، عيسى بن مصعب ، لما عرفت من هو

ـ يخيل الي ان عيسى لم يأت الا لغاية في نفس ابيه ...

ـ ما هي ؟

ـ هي ان يدعو القوم الى نصرته ، ويخطب ام كلثوم لولده ...

فاحمر وجهها قائلة : ليس له ان يفكر في هذا ونحن من اعدائه ...

ـ كنتم اعداءه يوم زحف الى الشام ، اما اليوم فانتم اعداء عبد الملك كما هو عدوه ، وليس هنالك ما يمنعه من ان يجعل ولده صهرا لبني العاص..

قالت : سيتحدثون الان بأمر الخلافة والحرب

ـ كما يتحدثون بامر الخطبة فهذا القلب لا يكذب

فارادت ان تدفعه الى الاعتراف بهذا الهوى الذي تراه في عينه .

فقالت : ليتحدثوا بما يطيب لهم فالخطبة لا تتم الا اذا خاطبوا امي بالامر
ــ وانت ؟
ــ اما انا فلا رأي لي ..
ــ اذن ينتهي كل شيء بعد ساعة ..
قالت : اراك تذكر الخطبة كأنك واثق بانها امر لا بد منه ..
ــ نعم ، وارجو ان يكون لك فيها رأي ، لاسألك سؤالا واحدا ثم انصرف
ــ هب ان لي رأيا فما هو سؤالك ؟
ــ أترضين بعيسى ؟
قالت : ماذا تقول غدا لامير العراق اذا اراد ان يجعلك خطيبا لابنته ؟
ــ اقول له اني غير قادر على الرضى
ــ ولكن في قولك اهانة للامير لا يغفرها لك
ــ اذا استطاع الامير ان يجعل الناس عبيدا لمشيئته فهو لا يستطيع ان ينتزع غرامهم من الصدور ... سأقول له : اني لست اهلا لابنتك ، وهذا القلب لا يتسع لحب فتاتين .. أفهمت الان ؟
ــ لا
ــ اذن اقول : احببت فتاة لا يفصل بيني وبينها غير الموت ...
ــ وتذكر له اسم الفتاة ؟
ــ اذكره لكل من يسألني عنه ولا ابالي ..
ــ واذا لم يكن بينك وبينها عهد ؟
ــ لا انظر الى العهود ، بل اسأل هذه العاطفةالتي تخفق بين الضلوع ..
قالت : ألا يجوز ان يحب المرء فتاة لا ترغب فيه ؟
فاضطرب قائلا : بلى
ــ وهل باحث لك فتاتك بالهوى ؟
ــ لا
قالت : اخشى ان يبرح بك الغرام ثم تضيع الرجاء ..
فاصفر وجهه وزاد اضطرابه
ولكن ام كلثوم لم تر ذلك الاضطراب ، بل كانت تقول : خير لك ان

تقرأ اسرارها ، قبل ان ترد الامير وتقول له ما ذكرت

وكانت ام كلثوم تعني نفسها ، وهو يجهل ما تعنيه ، فقال :

بل خير لي ـ اذا كانت لا تحبني ـ ان اخسر الاثنتين

ـ ثم تشقى الى الابد ؟

ـ بل اموت فالموت خير مما تقولين !.

فرقص قلبها في صدرها ، وقد علمت ان محمدا صادق في غرامه ..

ولكنها رأت ان تجول معه جولة اخرى ، فقالت : اذن فانت تحب حبا لم ير الناس اعجب منه ..

ـ ذلك ما تمليه القلوب على المحبين

وهم في تلك الساعة ، بان يعترف لها بغرامه غير ان الغلام اقبل يقول لها :

ان مولاي يحيى يدعوك اليه

فقال محمد : لماذا ؟

ـ لان الامير اراد ذلك

فوضع يده على صدره ، ثم حول وجهه ، ليخفي تلك اللوعة التي بدت في عينيه

وكانت الفتاة قد احتجبت في الرواق .. ثم مثلت بين يدي الامير كما عرفت

ودخلت ولادة في تلك اللحظة تقول : اين ام كلثوم ؟

فاجابها محمد وصوته يرتجف :

اراد الامير ان يراها فدعاها الى الدخول

ـ واي شأن لها مع الامراء ؟

ـ شأنها ان عيسى ابن مصعب مع ابيه ...

فعرفت المرأة ان النار تتقد في صدره ، فقالت : ليس موقفنا اليوم ، موقف خطبة او زواج ، فليعلم ذلك مصعب ..

ـ ولكنه امير العراق ، واخو الخليفة ، وله ان يفعل ما يشاء

ـ ونحن نفعل ما نشاء

قال : ارى انه جاء ليخطب ام كلثوم

ـ لو كانت غايته الخطبة ، لدعاني يحيى
قال : يرى الامير ام كلثوم ، ثم يخاطبك يحيى بالامر ..
ـ اذا كانت غاية مصعب ما ذكرت فخير له ان لا يفعل
ـ وان فعل ؟
ـ ادعوه الى الصبر ريثما يستقيم امر الخلافة لاخيه ...
ـ اذن فانت تعدينه بان ام كلثوم ستكون لعيسى ..
ـ لا اعده ولا ارده ، ولكني اسأله ان يصبر كما قلت
وبينا هما يتحدثان ، رجعت الفتاة ، فقالت ولادة : ماذا جرى يا بنية؟
ـ دعيت الى الدخول ففعلت ، ثم امرني عمي يحيى بالانصراف فخرجت ، وانا لم انظر الى احد ..
ـ ولكنك سمعت حديث الامير
ـ نعم
ـ اعيدي علي قوله
ـ كان يسأل عن بني مروان وعمي يصف له ما يعلم
ـ وعيسى ؟
ـ لم اسمع صوته ولم ار وجهه ..
قالت : سيذكر الامير ليحيى ما يريد ان يذكره ، وانصرفت تأمر الجواري بقضاء بعض الحاجات
فقال محمد : ما هي هذه الدعوة ؟
فابتسمت قائلة : ارادوا ان يشاوروني في امر الحرب .. انها دعوة لم افهم منها شيئا ولم اسمع كلمة ..
ـ وماذا تظنين ؟
ـ اظن ان مصعبا سيخطبني لعيسى ..
ـ وتتم الخطبة ؟
ـ اجل ، ثم تتزوج بعد شهر !
ـ ولكن امك تقول انها لا تريد ان تفكر اليوم ، في الخطبة والزواج
ـ اذا وعد عمي مصعبا فقد انتهى الامر
قال : اسمع الان نغمة جديدة ما سمعتها منذ لحظة

قالت : سبحان الله ، انه يغير كل شيء ..

فاحس الفتى بالغيرة تنهش قلبه .. ذلك لانه لم يخطر له ، ان فتاة في هذه السن ، تستطيع ان تعبث به ، دون ان يبدو على وجهها مظهر واحد من مظاهر العبث

وقام في ذهنه انها راضية بابن مصعب

فقال : لقد رأيت الان سيد فتيان الكوفة فطاب لـــك ان تكوني زوجة له ..

ــ هو ذاك

ــ وكيف قلت لامك انك كنت مطرقة ولم تري احدا ؟

ــ خطر لي ان اقول ما قلت .

ودخلت ولاده عندئذ تقول لمحمد : لقد ارسلت الان غلاما لنا يدعو امك فلا تخرج عندما يخرج الامير

قال : كنت اهم بان انصرف الان

ــ بل تبقى لان ميمونة ستجيء

وجاء سعيد ، فنادى امه وجعل يهامسها في الرواق كما مر ، ولم يلبث حتى رجع

وقد سألها رأيها في قضية الخطبة

وكانت النار تزداد ضراما في صدر العاشق

وقد رأى ان في ذلك المجلس اسرارا يكتمونه اياها ، وبيت قصيدها ام كلثوم ..

فعول على السير وراء غيرته الى النهاية ...

وكانت ولادة قد خرجت الى الفناء فقال للفتاة :

اتعلمين اي خبر نقله سعيد الى امه ؟

ــ لا

ــ اما انا فقد علمت ، لقد جاء يحمل اليها رغبة مصعب

ــ ومن قال لك ذلك ؟

فوضع يده على ف»اده قائلا : هذا القلب المضطرب

قالت : ألا يطيب لك ان يخطبني الامير الفتى ؟

فسكت وجعل ينظر اليها بعينين يتلألأ فيهما الدمع ، وتطل منهمـ
لوعة نفسه

اما هي فغضت طرفها وكانت تقول : ارجو ان تجود علي بجوابك

قال : أتريدين ان تعلمي كل شيء ؟

ــ نعم

ــ اليوم ؟

ــ بل في هذه الساعة

ــ اذن فاعلمي اني لا اطيق ان يخطبك احد !!

فاختلجت عيناها ثم قالت : واي سبب يدعوك الى هذا ؟

ــ يدعوني اليه ، عاطفة وثابة تغمر نفسي يسمونها الحب ..

فضحكت لانها لم تفهم شيئا

قال : أتهزأين بحبي يا ام كلثوم ؟

قالت : ما كنت لاهزأ بشيء لا اعرف ما هو ..

ــ اذن اصفه لك بكلمات قليلة يقذف بها القلب .. واستوى جالسا وهو يقول : انه شعور عذب ، يملأ القلب ، ويطغى على الروح

فقهقهت قائلة :

صفه ايضا ..!

ــ ولهذا الشعور قوة خفية تخضع لها جميع قوى النفس ...

قالت : لم افهم

ــ وتستطيع هذه القوة ، ان تجعل الذليل عزيزا ، والجبان شجاعا ، والضعيف العاجز أثبت جنانا من الاسد .

قالت : لا أؤمن بشيء مما قلت ..!

ــ ولكنك ستؤمنين ، عندما يمسي العاشق المنكود الحظ ، جثة مضرجة بالدم ، عند قدمي الفتاة التي احب ..

ووضع يده على خنجره ، ثم قال :

احببتك حتى لاظن اذلي الهين احدهما في السماء، والاخر في الكوفة هو انت .. وكنت اعتقد ، ان عاطفتي لا تضيع ، وان حبي باق ، ولكن رأيت الان ان اعتقادي كان كاذبا ، والرجاء قد خاب ، فاسمعي يا ام كلثوم

.. ايتها الفتاة التي احبتها نفسي اسمعي .. ان الغرام الذي تردد في الصدر لم يبتسم الحياة الا ليفتح صاحبه ذراعيه للموت ، الذي يحمله الى عالم آخر لا شقاء فيه .. وليس لي ان ألوم احدا .. بل ليس لي ان الوم نفسي .. فقد فاجأها الهوى وهي عذراء ، ولم تكن لها حيلة في رده والهرب منه ... ولكني اقول كلمة واحدة قبل ان اذهب .. أتسمعين ؟

فقالت بهدوء :

اني سامعة

فنهض قائلا : اذكري ، ان الامراء ، والخلفـاء ، الذين تطمعين بان تمسي زوجة لاحدهم ، لا يستطيعون ، ولو اجتمعوا ، ان يحبوك كمـا احبك محمد ..

وجرد خنجره ثم قال : كلمة اخرى .. قولي لامي ان محمدا قتـله غرامه ... وقولي لعيسى بن مصعب الذي ستزفين اليه ، ان هذا القتيل ، مجنون جنى على نفسه ..

ورفع يده ليهوى بالخنجر الى القلب .. وقد اغمض عينيه ، وشفتاه ترتجفان .. ولكن يد الفتاة ، قبضت على يده وهي تقول : لا يستطيع الموت ان يمد يده اليك وانا هنا .. انظر ...

ففتح عينيه ، فرأى الدموع تسيل على خديها ، والهوى .. يجول.. في مقلتيها ، واصفرار الخوف يصبغ شفتيها . ثم سمعها تقـول ، وكأن قولها همس خفي :

اترك الخنجر .. فأنا احبك .. بل انا لك الى الابد ...

فسقط الخنجر من يده ، ثم خطا خطوتين وهو يترنح كما يترنـح السكران ، وجلس ووجهه بين يديه

ولكنه سمع بكاء ام كلثوم ...

فرفع رأسه وقال : لم تبكين ؟

قالت : كاد عبثي يذهب بحياتك

وقبل ان يعودا الى احاديث الغرام ، سمع يحيى يشكر مصعبا ، وقد خرج القوم الى الرواق ..

فمسحت الفتاة دموعها ، ثم تناولت الخنجـر ووضعته في ثوبها ،

واحتجب الاثنان وراء الجدار حتى انصرف الامير

ولم تلبث ميمونة حتى اقبلت ، واجتمع اهل المنزل في تلك الحجرة الصغيرة يتحدثون بما سمعوه من ابن الزبير ..

★★★

٢٤

قالت ولادة ليحيى : كيف رأيت الامير ؟

ــ رأيته جبارا يطمح الى الاستيلاء على كل بلد عربي ، وداهية يستهوي الناس باسلوبه اللين ، وجوادا يبذل المال لبني امية ، عندما يرى في هذا البذل مصلحة اخيه ..

ــ وهل يذكر مسيره الى الشام ورجوعه منها ، معثرا بالفشل ؟

ــ يذكر ذلك ، وقد نسي فشله ، وهو يريد ان يضع يده بأيدي بني العاص الذين تصدوا له في ذلك الحين ...

ــ يفعل ذلك ، ليزحف من جديد ، الى قتال عبد الملك

ــ نعم ، وقد عول على القتال ..

ــ ومتى يترك العراق ؟

ــ بعد ان يرد كتاب اخيه خليفة الحجاز

قالت : اتظن انه يظفر هذه المرة بعدوه ؟

ــ ان اميرا يخونه قومه لا يظفر بأحد .. بلى ، يظفر به ، اذا كان معظم الجيش من اهل الحجاز

ــ يقولون ان عبد الله ابن الزبير لا يصلح للخلافة وقد يضيع ، بسياسته ، اخاه مصعبا ، ويخسر العرش ..

ــ انه رجل زهد ودين ، ولم تخلق العروش للزاهدين

ــ وماذا صنعت انت ؟

ــ ماذا صنعت ؟ عولت على المسير الى الشام مع مصعب يوم يسير اليها فاما ان نظفر او نموت ..

قالت : أتكون عونا للقدر الجائر على اهل بيتك ؟
ــ بل اكون عونا لكل عدو من اعداء عبد الملك .. احاربه مع مصعب، ثم احاربه ان بقيت مع رجل آخر حتى اشفي غليلي او الحق بأخي ..
قالت : لا تفعل هذا فانا خائفة .. ان العرب ستدين كلها لابن مروان الظالم ويخلو له الجو ..
ــ هذه ظنون يمليها الخوف
ــ بل هي حقيقة رائعة سنلمسها بالايدي ، بعد زمن قصير ، أفلا ترى ان الطاغية يخفض الرؤوس المرتفعة ويخمد اصوات اعدائــــه ، بخنجره وسيفه ، وحيلته ودهائه ؟
ــ ولكن الزمان لا يصفو لاحد ، وسيجيء يوم ، يتفرق فيه الناس عن عبد الملك ، ويشهرون في وجهه السيف
ــ اذن فالحكمة تقضي بان نصبر الى ذلك اليوم
قال : لقد وعدت مصعبا بأني سأسير تحت لوائه ، واكون مع عنبسة، في مقدمة جيشه ، على ان يبقى امية واخوته في الكوفة
ــ وكيف تطمع بان تظفر بعدوك ، وانت تحارب في صفوف جيش يخون قائده ويبيع شرفه ؟!
ــ لا انضم الى هذا الجيش الا بعد ان اقرأ اسرار رجاله ... فاذا لمست الاخلاص والوفاء ، مشيت الى النهاية ، واذا كان هنالك خيانةتنحيت
ــ وتفعل مثل هذا اذا قدم عبد الملك العراق ؟
ــ اجل ، فانا لم اتعود ان اضع يدي بيد خائن
قالت : لقد هان الامر الان ولم يبق ما اخشاه
ثم ابتسمت قائلة : وام كلثوم ؟
ــ اما ام كلثوم فقد طاب للامير ان يخطبها لعيسى
فالتفت محمد الى الفتاة كأنه يقول : لقد كان القلب صادقا في ظنونه..
ثم قالت ولادة : ألم يقل له سعيد ، ما امرته بقوله ؟
ــ بلى ، قال له : ان امي لا تفكر في امر ام كلثوم ، الا بعد ان تعرف مصير عبد الملك
ــ وسكت الامير عند هذا الحد ؟

ـ كان يقول : ارجو ان تعلم ام امية ، ان الفتاة مخطوبة لعيسى ، ولها ان تزفها اليه ، عندما تشاء

ـ اما انا فأرجو ان يعلم ، اني لا اعترف بهذه الخطبة وهذا يكفي

قال : ماذا تصنعين ، لو تم الامر لابن الزبير ، بعد عام او عامين ، وجاء مصعب يطلب أم كلثوم ؟

ـ: أزفها اليه دون ان اتردد في الامر ، ولكني واثقة بأن الدهر لا يبسم لابن الزبير ، وعبد الملك حي

ـ: اذن فالحظ يخوننا ونحن لا نعلم وسيثبت عرش ابن مروان

ـ: اجل ، وانا ارى ان عبد الملك اليوم يتحفز للوثوب ، وانه يعد عدته من وراء الستار ليقضي على عدوه

ونظرت الى ميمونة وجعلت تقول : وكيف ارضى بأن يخطب عيسى ام كلثوم ، والخطر يكتنفه ويكتنف أباه ، والحرب على الابواب ، وقد يجرف تيارها الاثنين ، ويقضي على آمال بني الزبير الى الابد

وكانت ميمونة تريد ذلك ، ولكنها آثرت السكوت على الجواب ، خوفا من ان يظن القوم ان غايتها هي التي تتكلم

فقال امية : اما الخطبة فأنت لا تريدينها وقد انتهى امرها الان واما الحرب فليس لنا ان نفر منها ، ونحن ابناء عمرو بن سعيد ، فارس الشام ، وصاحب الفضل على الخلفاء

قالت : انا لا اريد يا امية ان يكون بنو عمرو بن سعيد من الجبناء ، ولكني مؤمنة بأن الخليفة الظالم هو الظافر ، فليس من الرأي ان ادفعكم بيدي الى اشداق الموت

ثم قالت : لقد خبركم محمد ، ان اهل الكوفة ، لا ينظرون الى اميرهم كما تنظر الرعية المخلصة ، ولا يطيب لهم الا ان يخونوه كما خانوا آل علي ، أفتريدون يا بني أن تخفق ألوية النصر فوق عبد الملك ، ثم يحصدكم سيفه لا يبقي على واحد من بني سعيد بن العاص ، أم تريدون ان ترى ولادة الكلبية بنيها جثثا مهشمة تحت حوافر الخيل ؟ اني امرأة وانا لا استطيع ان احتمل اكثر مما احتملت ..

قال : لقد خلق الرجال للحرب وبنو العاص لا يموتون حتف انوفهم

كما تعلمين

قالت : حاربوا ما شئتم فأنا لا امنعكم من الحرب ، ولكني لا احب ان تتصدوا لعبد الملك وتمسوا جميعكم ضحية لغدره .

ــ: اذن نحارب ابن الزبير لنجعل عبد الملك سيد العرب

ــ: لا تحملوا سيفا ، الا بعد ان ينتهي امر الشام والعراق ، بين عبد الملك وبين مصعب

قال : واذا انتهى هذا الامر الى ما يحب عبد الملك ؟

ــ : ننظر عندئذ فيما يجب ان نصنع

فقال يحيى : كفى فافعلوا ما تأمركم به فهي خائفة ، واظن ان ميمونة تشاركها في الرأي

قالت : لو سألني محمد ان يخرج اليوم الى القتال ، لمنعته

وكان محمد ، قد بدأ ينظر الى مصعب كما ينظر المرء الى عدوه

فقال : لا اسألك ذلك لاني لم افكر فيه ..

فقال امية : وأي رأي لك في هذا ؟

قال : ليس لي رأي في الحرب اليوم .. يزحف مصعب الى الشام او يزحف عبد الملك الى العراق ، فأنا لا ابالي

ــ: ولا تذكر ان اهل الشام قتلوا اباك ؟

ــ: بلى ، ولكن ابي قتل في ساحة الوغى وهو يحارب من اجل عقيدة كانت له وانا اذكر ان القوم بذلوا له الامان فلم يرض وآثر الموت على الحياة

فقالت امه في نفسها : لقد غير حديث الخطبة محمدا فهو يؤثر الان عبد الملك على مصعب

ثم قال امية : وليس لك ثأر ؟

ــ: لي ثأر لا اعرف صاحبه ، وانا ارجو ان اعرف قاتل ابي بعد حين فاقتله به

اجل ان الكلمة التي قالها مصعب عن الخطبة ، غيرت محمدا ..

لقد قام في ذهنه ، ان عيسى ابن مصعب ، اذا ظفر ابوه بعبد الملك ، كان اسبق منه الى استرضاء آل عمرو بن سعيد

وقد تغر الامارة ام كلثوم ، ويبهر عينيها عرش آل الزبير ، فتزف الى عيسى الذي يفاخر الفتيان بقوله : ابي امير العراقيين ، وعمي امير المؤمنين !!

وهب ان أم كلثوم حفظت عهده ، فأي عهد يستطيع ان يحول بين مصعب وبين الامر الذي يطمح فيه ؟

سيقول لهم مصعب ، اذا كتب له النصر :

اريد ام كلثوم زوجة لعيسى ، فينزل القوم عند رغبته دون ان يترددوا في الرضى ، وترضى ام كلثوم مكرهة لا تجسر على الرفض ..

وماذا يبقى لمحمد ؟

يسدل الستار على هذا الامل الذي يتردد في صدره ، وتدفعه الخيبة اما الى الموت ، او الالتجاء الى بلد بعيد يبكي فيه غرامه حتى تأتي ساعته

فخير له اذن ، ان ينحي الناس عن مصعب ، اذا استطاع ، ليكون النصر غدا ، خليفا لابن مروان

ولكنه لا يقدر ، وهو فتى ليس له في الكوفة نفوذ ورأي ، ان ينحي الناس عن امير العراق ، او يبعد احدا عنه

حسبه ان يجعل بني عمرو من انصاره ، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء

وكان امية قد سكت فجعل محمد ينظر الى ام كلثوم ، وهي تنظر اليه ، وعلى ثغرها ابتسامة الرضى

وبقي عليه ، ان يسألها رأيها فيما يفكر فيه



٢٥

اجل يا امي ، لم يخطر لي ان هذا القلب سيعلق في شرك الحب واني سأصبح ، بين ليلة وضحاها ، عبدا للهوى

ـ: ولكنه هوى غريب اخافه عليك ، واخشى ان ينتهي بك الى شقاء لا اريده لك ولا تريده لنفسك

ـــ: ولكنك انت التي اردت ان تخطبيها لي

ـــ: اجل ، اردت ذلك من قبل ، واريده الآن ، ولكني لم اظن ان امير العراق سيكون اسبق مني الى الخطبة

ـــ: وماذا تخافين الان ؟

ـــ: اخاف ان يعود مصعب الى الطلب .

ـــ: اذا فعل عادت ولادة الى الرفض

فهزت رأسها قائلة : انك لا تعلم يا بني ما يصنعه الامراء اذا كانت لهم غاية .. يجعلون البريء مجرما ، والمجرم بريئا ، ويسخرون الارض كلها لغايتهم لا يبالون بما يبذل حولم من مال ودماء

قال : يستطيع مصعب ان يفعل كل ذلك ، ولكنه لا يستطيع ان يكره أم كلثوم على الرضى بولده

ـــ: يكفي ان ترضى ولادة ، ويرضى يحيي وعنبسة

ـــ: لا يرضى هؤلاء الا اذا رضيت ام كلثوم

ـــ: ومن قال لك ان الفتاة ليست راضية ؟

ـــ: اعترفت لها بالهوى واعترفت لي ، ثم اقسمت انها ستحفظ عهد الحب وتكون لي الى الابد ..

ـــ: متى فعلت ذلك ؟

ـــ امس ..

ـــ لم يكن ذلك امس لاني كنت معك

ـــ عندما دعيت الى المنزل كان الامر قد انتهى

ـــ اذن بحت بهواك والامير في الدار

ـــ نعم

ـــ وانت واثق بان ام كلثوم ستفي لك

ـــ كما اثق بنفسي لان هذا القلب صادق فيما يحدثني به

فأطرقت قليلا ثم قالت : خير لك اذن ان تفعل ما آمرك به

قال : كنت مطيعا لك فيما صنعت

ـــ اعرف ذلك ، ولكني اريد ان تصغي ، من جديد ، الى ما اقوله لك

قال : اني سامع

قالت : لا تحدث احدا من آل عمرو ، بامر غرامك
ــ واغض الطرف عن ام كلثوم ؟
ــ لك ان تحدث ام كلثوم بما تشاء دون ان تقول لامها او لاخوتها كلمة ، عن هذا الغرام ..
ــ وما هي الغاية من هذا ؟
ــ الغاية منه ان نصبر حتى يعود مصعب الى طلبه او يسكت
ــ وهذا معناه انك تريدين ان تعرفي رأي القوم في عيسى
ــ اجل ، هذا غرضي ، فان كانت ولادة ويحيى يرغبان في الامير الفتى ، رجعنا ، من وراء الستار ، الى ام كلثوم ، نسألها رأيها فيك ، فقد تنسى عندئذ ما كان بينك وبينها من عهود ...
قال : ستبقى على العهد فالعاشق لا ينسى غدا ما يقوله اليوم
ــ من يعلم فقد تكون عهودها ثورة شباب لا عاطفة فيها ولا يعقبها وفاء
ــ انا اضمن وفاءها
ــ اذا ردت عيسى كان لنا رأي آخر
ــ ما هو ؟
ــ هو ان يخرج آل عمرو بن سعيد من العراق ما دام فيه مصعب .
ــ لماذا ؟
ــ لان مصعبا لا يطيق ان تعيش في ظله فتاة آثرت ابن عبد الله الكناني على عيسى
ــ وان لم يفعلوا ؟
ــ كان بقاؤهم خطرا عليهم
ــ ونخرج نحن ايضا ؟
ــ نعم اذ لا يبقى لنا امل بالحياة هنا ..
ــ والى اين نذهب ؟
ــ اما نحن فنستطيع الذهاب الى الشام،واما آل عمرو فهم لا يقدرون على الرجوع اليها الا اذا اذن لهم في ذلك عبد الملك
قال : ألا يجوز ان يغض مصعب طرفه عن ام كلثوم ؟

ـ بلى ، كما انه يجوز ان يضعها ويضع اهلها جميعهم في سجن الكوفة .. وكما يجوز ان يبعدنا ويبعدهم الى المدينة

قال : كنت ابغض آل مروان واحب آل الزبير ، فصيرتي مصعب عدوا له ولاخيه

قالت : ليس لك ان تبغض مصعبا يا بني ، فهو لا يعلم انك تحب الفتاة ، ومن حقه ان يخطب لولده من يشاء من حسان العرب

ـ ولكني لا استطيع ان احب الرجل الذي يسلبني ام كلثوم

ـ لم يسلبك اياها ، فهو يفكر في الخلافة والاستيلاء على الشام ، وسيستعين بالفتاة على بلوغ غايته ..

ـ وانا سأستعين بكل شيء على بلوغ غايتي ..

ـ ستبلغها ان شاء الله ، وستمسي الفتاة زوجة لك، فافعل ما اوصيتك به ولا تنس

قال : لا ابوح لاحد بما يتردد في هذا الصدر

قالت : احذر .. فان الامير لا يسكت اذا انتهى اليه امر غرامك ..

ـ واوصي ام كلثوم بالكتمان ؟

ـ اجل ، ولتحذر مثلك ، والا كان الامر وبالا عليكما انتما الاثنين

فوعدها بذلك ، وخرج في تلك الساعة ليقول للفتاة ما اوصته امه به، وهو مؤمن ، بان ام كلثوم ، تؤثره على عيسى

★★★

٢٦

نحن الان في السنة الحادية والسبعين ، وقد مرت سنتان على الحادثات التي قرأت

غرام ينمو ويشتد .. وولاء وثق عراه النسب، والجوار بين البيتين ، حتى لتظن ان القوم جميعهم ابناء بيت واحد

وميمونة ، تحجب عايتها وراء مظاهر القرابة .. وام كلثوم ومحمد ،

بحبان الهوى ، وراء مظهر الاخاء البريء ••
ولم يكن عيسى بن مصعب ، عاشقا برح به الحب ••
نعم لقد رأى ام كلثوم فأعجب بجمالها الفتان ، ولكنه لم يفعل كما يفعل العشاق ولم يغز اعجابه ، كما يصنع المحبون
خطب له ابوه فأبت ولادة ان تعده الوعد الصادق فاكتفى الفتى بأمله بان الفتاة هي له ••• واي كوفي يستطيع ان ينتزعها من يده،وهو ابن مصعب!!
وكان يأتي القوم ، ويجالس ام كلثوم وهي بين اخوتها واهل بيتها •• وعين محمد تراه ، وتحصي عليه النظرات ••
على انه لم يحدث احدا بأمر الخطبة ، ولم يخطر له ان يشير اليها بمظهر واحد من مظاهره
اجل ، لقد نهاه مصعب ، عن ان يستسلم الى خفة الشباب ، ويجعل اسم الزبير ، مضغة في الافواه ، وكان يقول له :
ليس هنالك ما يمنعك من الصبر ، حتى تعرف ولادة مصير عبد الملك
بل كان يقول : لا تزف ام كلثوم الى عربي ، وابوك حي •••
ولو درست شخصية عيسى ، لرأيت انه فتى ، يقوم في صدره ما يقوم في صدر ابيه ، من طموح الى المجد ، وسعي الى المعالي ، ورغبة دائمة في اخضاع العرب الخارجين على آل الزبير
ولعيسى ، شجاعة مصعب ، وعزة نفسه،واحب الاشياء اليه ان يخوض الميادين ، ويخترق ، وهو على فرسه ، صفوف الاعداء
وكان يعلم ، ان اباه ، يفكر في القضاء على عبد الملك ، وقد كتب الى عمه ، خليفة الحجاز ، يسأله ان يأذن له في الزحف الى الشام
وخليفة الحجاز لا يرى رأي مصعب، ولا يطيب له ان يقذف بالمخلص له ، الى هوة الفناء فكتب اليه يقول :
ابق في العراق ، ولا تنقل الى الشام قدما •• فان اتاك عبد الملك فدافع عن بلدك وقومك ما طاب لك الدفاع
ومصعب يكتب ويستأذن ، وعبد الله لا ينثني ••
حتى خاب رجاء مصعب ، وايقن بان الخليفة لا يمده بالجيش ، اذا هو

خرج بدون اذنه .. فلم يستطع الا ان يطيع ، ويعد عدة الدفاع عن العراق، عندما يغزوه عبد الملك

نعم ، لقد كان عيسى يعلم كل هذا ، فابوه لا يكتمه شيئا ، ولا يرى الا ان يستشيره في كل امر ، ومن اجل ذلك ، لم يستسلم الى العاطفة ، التي تغمر الفتيان ، وهم في سنه ، ولم يكن له ان يستعجل اباه في الزواج ، والحرب على الابواب ، كما انه لم يقم في ذهنه ، ان محمدا ، الذي يراه في منزل ولادة كلما اتاه ، يحب ام كلثوم ، وام كلثوم تحبه ، وقد تعاهدا على الوفاء ..

لقد كان يظن ان النسب وحده ، هو الذي يجمع الفتى وآل عمرو ابن سعيد

والايام تمر ، والحال على ما رأيت

حتى ملأت الشائعات الكوفة ، ان وجوه العراق ، كاتبوا عبد الملك كما كاتبهم واقسموا له انهم سيكونون اعوانا له ، اذا غزا ارض مصعب ..

على ان مصعبا لم يبال بما سمع ، وكان يقول لرجاله : ان انصار عبد الملك هم الذين يقولون ذلك ليبعدوا الناس عن آل الزبير ، ويبعثوا الوهن والخوف الى القلوب ..

ولكن الشك ، كان يتغلل في صدره ، فيدعو الوجوه والقواد ويسألهم عما يتحدث به الناس ، فيبتسمون ، ابتسامات الاستخفاف .. ثم يعدونه من جديد بانهم سيبذلون المال والدماء ، في سبيل الطاعة والدفاع عن العراق .. فيضمحل الشك ، امام المظاهر الكاذبة ، ويقوم مقامه التفكير في أساليب الحرب ..

ثم يمر يوم ، فيجيء غلام من غلمانه فيقول :

لقد صدق الذي قال ان عبد الملك يكاتب القوم ، ويعد كل واحد منهم بامارة اصبهان ..

فيضطرب ، ثم يغضب ، ثم يدعو الناس ليعيد السؤال ويعيدوا الجواب ..

حتى دخل عليه في احدى الليالي ، قيس بن الهيثم فقال : لقد سمعت منذ ساعة ، ان بعض وجوه الناس في الكوفة سيتخلون عنك يوم يجيء ابن مروان

ــ ولكنك لم تكن تصدق هذه الاخبار منذ يوم
ــ واما الان ، فقد دب الريب في الصدر
ــ ومن خبرك ؟
ــ غلام من غلمان عتاب بن ورقاء
ــ اعد علي ما سمعت
ــ يقول ان مولاه من انصار عبد الملك، والناس الذين حوله يماشونه فيما يرغب فيه

قال : الم يقل عتاب في هذين اليومين انه عبد من عبيد دولة بني الزبير ، وعدو لخليفة الشام ؟

ــ بلى
ــ وتظن انه كاذب ؟
ــ ليس لي ان استسلم الى الظنون قبل ان ارى واسمع .

فرفع صوته قائلا : قل ، اتتهم ابن ورقاء ؟

فخاف ابن الهيثم ان يتهمه ثم تظهر البراءة ، فقال : لو كانت اسباب التهمة في يدي لمشيت الان الى الرجل وضربت عنقه واعناق الرجال الذين معه ..

ــ وما رأيك فيما حدثك به الغلام ؟
ــ الرأي ان تبث العيون فينقلوا اليك ما يعلمون
ــ لقد جعلناك عينا على القوم ..
ــ انهم يكتمونني امرهم فخير لك ان تختار سواي
ــ ليس لنا ثقة بهؤلاء الناس ، الذين يجالسوننا كل ليلة ، ويروحون ويجيئون في قصر الامارة كأنهم هم الامراء ..

قال : اترك هؤلاء ايها الامير

ــ لقد فعلت ، فاختر لي رجلا آخر

فجعل يفكر وهو لا يجسر على ان يسمي احدا

وكان عيسى حاضرا ، فقال : عروة بن المغيرة بن شعبة

قال : هذا من اقرب المقربين الي فهم يخافونه ..

فقال قيس : اني سأتولى الامر

ــ انت ؟
ــ نعم
ــ وكيف رضيت الان وقد ابيت منذ لحظة ؟
ــ خفت ان يخونك الرجل الذي تبعث به
قال : افعل ، بارك الله فيك
ــ وماذا تصنع اذا اتيتك بعد ايام ، حاملا اليك خبر الخيانة ؟
ــ احتاط لامري ، واغض طرفي عن القوم ..
قال : ثم يجيء عبد الملك فيتفرق هؤلاء عنك
ــ بل اندبهم الى القتال قبل ان يتفرقوا ، فاذا حملوا السيف كانوا لي ، والا فهم لعبد الملك ، وانظر عندئذ فيما يستحقون
قال : سأبدأ الليلة
ــ وانا واثق بانك ستعلم كل شيء ، وتقص علي ما تسمعه ، بعد رجوعي من البصرة .
قال : اذاهب غدا ؟
ــ اجل ولا اعود منها الا بعد ان اعد عشائرها للقتال
ــ ويبق عيسى في الكوفة ؟
ــ بل يسير معي اليها لانه لا يطيق الابتعاد عن ابيه ... وانا اوصيك بان تحصي على عتاب بن ورقاء انفاسه ، ولا تغفل عن الرجال الذين تظن انهم كاتبوا عبد الملك
ــ وبعد ذلك ؟
ــ حدث الناس بأمر الدفاع عن العراق واذكر لهم دائما غدر بني مروان
ــ ذلك ما اقوله كل يوم لاهل الكوفة
ــ ولا تنس ان ترسل الى البصرة من يحمل الي الاخبار
ــ سأفعل
فصرفه قائلا : الى اللقاء وسنظفر ان شاء الله

★★★

٢٧

لم يكتف قيس بن الهيثم بما سمعه من الغلمان ، ولم يشأ ان يجالس ابن ورقاء ورفاقه ، خوفا من ان يظنوا به الظنون

اجل ، كان مؤمنا بان القوم يخونون في مصعبا، ولكن البرهان لم يكن في يده فآثر الهدوء والصبر على التعجل في حكمه، وهو يصغي الى احاديث الكوفيين وهمس المتآمرين ...

ثم ذكر ان يحيى بن سعيد ، خبر مصعبا ، وهو معه ، بما يتحدث به اهل الكوفة فرأى ان يزوره ، ليعلم اسماء الرجـــال الذين يناصرون خليفة الشام

ويحيى وهو عدو عبد الملك ، لا يكتمه اسماءهم ، ولا يتردد ، اذا استطاع ، في القضاء على قاتل اخيه

فلما طلع الصبح ، وعرف الا الامير ترك الكوفة ، مشى الى منزل آل عمرو ، وهو واثق بانه سيبلغ غايته

فلما انتهى اليه ، رحب به القوم ، وقام في ذهن يحيى ان الرجل لـــم يأتهم الا لامر

ولكنه لم يسأله عن حاجته ، بل جعل يحدثه بامر السياسة ، ويسأله رايه في قضية الحرب

وابن الهيثم يذكر له ما يعلم وهو هادىء ثم قال :

ما رأى الكوفيون اميرا مثل مصعب ، يعطيهم ماله ويبذل لهم النصح ويستشيرهم في كل امر من امور العراق

فقال يحيى : ومع ذلك فأهل العراق يؤثرون عبد الملك على صاحبك

قال : سمعت ذلك منك ، يوم كنت مع مصعب ، في هذه الدار ، وانا اسمعه الان ...

ــ نعم اذكر اني خبرته

ــ وكيف انتهت اليك هذه الاخبار وقد كنت في دمشق ؟

ــ قصها علي فتى اؤمن بما يقوله

ــ وهو من اهل الكوفة ؟

ــ اجل ، ولكن ليس له رأي فيما يصنعه انصار عبد الملك وانصار مصعب .

ــ اذا لم يكن له رأي فله هوى ..

ــ خيل الي ان هواه في بني الزبير

ــ فمن هو ؟

ــ من كنانة

ــ اعرف جميع رجال العشيرة التي ذكرت

ــ الا هذا الفتى فانك لا تعرفه

وبينما هما يتحدثان ، دخل محمد ، فقال يحيى لقيس :

اتعرف هذا ؟

ــ اجل ، انه ابن عبد الله بن عزيز

ــ اذن فاسأله عما تشاء فهو يعلم ما لا تعلم

ــ وهو الذي خبرك ؟

ــ نعم

قال : اسمعت يا بني ان اهل الكوفة سيكونون اعوانا لعبد الملك ؟

ــ سمعت ذلك من زمن ليس بالقصير

ــ وتذكر اسماء الذين خبروك ؟

فكره الفتى ان يبوح باسماء الفتيان الذين كانوا يحدثونه بامر مصعب ، فقال :

اذكر انهم فتيان الكوفة الذين يجولون في ميادين السباق

ــ وكانوا يقولون ان عبد الملك كاتب القوم ؟

ــ اجل

قال : ان شئت فسم لي واحدا من هؤلاء

ــ لا استطيع ان افعل

ــ لماذا ؟

ــ لاني نسيت اسم القائل

ــ اهو اسيد بن حجار ام ابن عتاب ؟

ــ لقد نسيت ، كما قلت ، فانا لا اذكر شيئا

فقال يحيى :

ما هي الغاية من سؤالك ؟

ـ الغاية منه ان يعرف الامير انصاره واعداءه

ـ انه يستطيع ان يدعوهم اليه ويقرأ اسرارهم

ـ ولكنه اليوم بعيد عن الكوفة

قال : لقد رأيته امس في المسجد

ـ اما اليوم فقد غادرنا الى البصرة

فاطرق قليلا ثم قال : واذا خانه الناس ، فماذا يصنع ؟

ـ لم يبح لي بما يفكر فيه

ـ وما رأيك انت ؟

ـ جئت اسألك الرأي في الامر

قال : خير له ان ينحي الخونة ويستعين بأهل الحجاز

ـ يفعل ذلك عندما يلمس الخيانة بيديه وهذا امر لا يتم له اليوم

قال : لو كنت مصعبا لجعلت عيوني في منازل القوم حتى اعلم كل شيء

قال : قد يكون له رأي آخر هو ان يضع اللين في موضع الشدة ويعمد الى الدهاء

ـ اي انه لا يريد ان ينفر العشائر التي تلتف حوله

ـ هذا ما يبدو لي

ـ ولكن العشائر التي عاهدت عبد الملك ، على الوفاء كما يقولون ، ستتخلى عنه يوم تستعر النار ..

ـ وعندئذ يتخلى الحظ عنه ويسقط في الساحة

ـ ويخيب رجاء بني الزبير بالخلافة

ـ هو ذاك

ـ اذن فمن الرأي ان يضرب الامير ضربته اليوم ، ويبعد الرؤساء الاندال عن العراق

ـ اذا فعل ثارت العشائر

قال : الا تذكر لي هؤلاء الرجال الذين تحوم حولهم الظنون ؟

ـ هم حجار بن ابجر ، وعتاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله ، ومحمد

ابن عبد الرحمن بن سعيد وغيرهم ، وجميعهم من رجال الحرب

ــ ومن هم المخلصون ؟

ــ عروة بن المغيرة ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وابرهيم بن الاشتر صاحب الموصل ..

ــ هذا في الكوفة

ــ نعم

ــ وفي البصرة ؟

ــ لا يثق مصعب ، بأمير من امرائها ، وثوقه بالمهلب بن ابي صفرة

قال : ابن ابي صفرة يقاتل الخوارج

ــ ولكنه سيدعوه اذا اقبل اهل الشام

قال : هب ان الامير ابعد ابن ورقاء ورفاقه فماذا يحدث ؟

ــ تقوم الفتنة مقام الهدوء وقد تمتد الى اطراف الامارتين

ــ اذن يبعد العشائر والرؤساء في وقت واحد

قال : يخرجون عندئذ ليلحقوا بعبد الملك ويحملوا معه السيف .

ــ ذلك خير من ان ينضموا الى جيشه ، عندما يجيء

قال : نسيت ان اقول لك ان ابن الزبير امير المؤمنين لا يريد ان يرسل الى مصعب جيشا من الحجاز

قال : وهذا معناه ان العراق سيخرج من يده

فلم يرد ابن الهيثم ان يجاريه في ظنونه ، فقال : ارجو ان يخذل الله ابن مروان ، كما اني ارجو ان تكون اخبار الكوفة اخبارا كاذبة

ــ وماذا سمعتم عن عبد الملك ؟

ــ يقولون انه يتهيأ للقتال

ــ ولم تنته اخبار الشام الى مصعب ؟

ــ انتهى اليه ان الرجل سيغزو العراق

ــ اذا كان هذا فلم يبق الا ان تعدوا العدة

قال : سترى الجيش بعد بضعة عشر يوما يملأ الكوفة

ونهض غاضبا وهو يقول : اني ذاهب الى منزل عتاب وسأنتزع الاسرار من الصدور ... ثم خرج دون ان يزيد كلمة

فقال يحيى لبني اخيه ، ومحمد بينهم :
ــ ماذا رأيتم ؟
فقال امية : اما انا فقد رأيت ان احارب مع الصفوف، واسير في الساحة الى حيث يسير مصعب ، لادافع عنه
ــ وانت يا سعيد ؟
ــ وكان سعيد فصيح اللسان وله رأي ، فقال :
سيبسم النصر لعبد الملك ، ويخضع له هذا القطر ..
ثم قال اسماعيل :
ان القائد الذي يخونه جيشه لا يظفر
اما محمد الكناني فقال : ليس من الرأي ان نموت جميعنا في سبيل مصعب ...
وسكت الفتيان ليسمعوا رأي يحيى ، فقال لاخيه :
يا عنبسة ، اي شيء اخذت من حديث ابن الهيثم ؟
ــ اخذت منه انه غير واثق بقوى ابن الزبير
ــ وانا قد اخذت ما اخذته ، فالخلافة باقية لعبد الملك ، والحجاز نفسه لا يسلم من سيفه ..
وظهرت الكآبة على جبينه .. ثم وضع رأسه بين يديه وهو يفكر فيما سمع ، والالم يملأ نفسه
ودخلت عندئذ ولادة وام كلثوم ، فقال سعيد : هذا قيس بن الهيثم جاء يدعونا الى حمل السيف ..
فصاحت امه قائلة : خير لنا ان نرحل الى خراسان من ان نحمل سيفا
قال : اذا لم نفعل خلا الجو لعبد الملك
فقالت : كفى فليفعل عبد الملك ما يشاء وليسد العرب كلها فانا لا ابالي
وتلالات في عينيها الدموع
فقال يحيى :
اصاب سعيد ، فعبد الملك سيسود العرب ، ولا خير في السيوف نحملها من اجل مصعب ، وخلافة اخيه
ــ وماذا جرى الان ؟

يكفي ان تعلمي ان في الكوفة طائفة كبيرة تدين لبني مروان ، وهي تلبس لمصعب ثوب الوفاء ..

ــ لقد عرفت ذلك من قبل

ــ ولكنك لم تعرفي ان عبد الملك سيغزو العراق قبل ان تمتد يد مصعب الى هذه الطائفة ..

ــ وكيف يتردد في ذلك ؟

ــ انه لا يجسر على اغضاب العشائر

ــ اذن ذهبت دولة الحجاز

ــ ان لم تذهب اليوم ذهبت غدا ولم يبق لنا امل بالقضاء على قاتل عمرو

فرفعت عينيها الى العلاء قائلة : ذلك ما يريده الله فلا حول ولا قوة الا به .. وخرجت من قاعة الجلوس وهي تقول لام كلثوم : خير لي ان اري بني حولي وليكن ابن مروان سيد الارض ...

وكان محمد بن عبد الله يقول ليحيى : على اي امر عولت ؟

فقال : اتنحى اذا تنحى الناس واحارب اذا حاربوا

ــ ونحن نفعل .. ما تفعل

وانصرف ليجالس ام كلثوم ويتشاكيا الهوى وهو مؤمن بان النصر سيكون حليفا لخليفة الشام

وكان القوم جميعهم يظنون ، ان عبد الملك سينفيهم عن العراق ، اذا استقام له امره وثبتت قدمه فيه ..

***

٢٨

من حق آل عمرو بن سعيد ، ان يلوموا عبد الملك ، وينظروا اليه ، نظرهم الى رجل مجرم يقتل الناس في مجلسه

ومن حقهم ان يقولوا : هذا هو الخليفة الظالم الذي يمشي الى غايته على جثث الابرياء

ذلك لانهم يمشون وراء العاطفة ، وينظرون الى حادث القتل من ناحية واحدة لا يرون فيها غير دمهم المسفوك

ولكن ، ليس للتاريخ ان يقول ما يقولونه ..

ان عمرا ، في رجوعه من حلب الى دمشق ، واستيلائه على الامارة بقوة السيف ، كان متمردا خارجا عن الطاعة

والخليفة ، لا يصلح للعرش ، اذا هو لم يعمد الى سيفه ، في حفظ الخلافة وهيبة الملك

على انه اذا جاز للسلطان ، من اجل الدفاع عن عرشه ، ان يكون قاتلا ، فلا يجوز له من اجل هذا الدفاع ، ان يكون غدارا .

ان سيد المسلمين ، الذين حطموا الآلهة الكاذبة ، ورفعوا في المشرق والمغرب ، لواء العظمة والاخلاق والمروءة والوفاء ، ان سيد هؤلاء الناس لا ينسى امانة ولا يغدر ...

فاذا عتب المؤرخون على عبد الملك ، فانما هم يعتبونه على ذلك الغدر، الذي نهى عنه الاسلام .. قتل عمروا ، ثم بعث برسله ورجاله الامناء ، الى مدن القطر الشامي وقراه ، يحملون اليه المترددين في طاعته ، فيأمر بالقتل او يعفو ، حتى صفت له الشام كلها من ادناها الى اقصاها ، ونشرت هيبته ظلها فوق الربوع

فلم يبق له الا ان يحول نظره الى العراق ، ويضرب بني الزبير ضربة قاضية ، لا يرتفع لهم بعدها صوت

وعبد الملك لا يتردد في امره ، كما علمت

فدعا اصحابه واهل بيته ، وامر غلمانه بان ينحوا الناس عن بابه ، ثم قال : هذه الشام أنتهى امرها وبقي العراق ، فما الرأي ؟

فقال عمه يحيى بن الحكم :

أيطيب لك ان تسير الى العراق غازيا في هذا العام ؟

ــ بل في هذا الشهر

ــ انت نفسك ؟

ــ نعم

قال : اخشى ان تخسر جيشك ، فيخيب املك

ـ ان النصر يا عم بيد الله
ـ اجل بيد الله ولكن ارى ان تقنع بالشام ومصر وتترك ابن الزبير
فالتفت الى القوم قائلا : من اراد صـــواب الرأي فليخالف يحيى ،
وجعل يبتسم ابتسامة الاستخفاف
ثم قال لاخر : وماذا ترى انت ؟
قال : العام عام جدب وقد غزوت سنتين فلم تظفر فان شئت فأقم عامك
هذا على ان تغزو بعد حين
قال : الشام بلد قليل المال وسينفد ما عندنا ، وقد كتب الي فريق من
اشراف العراق يدعونني اليهم فمن الحكمة ان اذهب
فقال اخوه محمد بن مروان : الرأي ان تطلب حقك وتسير الـــى
العراق فاني ارجو ان ينصرك الله
وكان خالد بن عبد الله بن خالد حاضرا ، فقال : خير لـــك يا امير
المؤمنين ان تقيم ، وترسل بعض اهلك على رأس الجيش ، ثم تمده بالجنود
حتى يظفر
قال : لا يقوم بهذا الامر الا قرشي له رأي ، ولعلي ابعث شجاعا لا
رأي له ، ثم قال : واني بصير بالحرب ، وشجاع الجأ الى السيف عند
الحاجة ، كأني جندي ، ومصعب شجاع ، وهو من بيت شجاعة ، ولكنه
لا علم له بالحروب ، وحوله رجال يخالفونه في رأيه ، وعندي رجـــال
ينصحون لي ...
فقالوا جميعهم : الى العراق
فقال لخالد : انظر في امر الجيش .. ثم قال لاخيه محمد :
واعد انت المؤونة والمال فنحن سائرون بعد بضعة ايام
فلما ملأ الجيش ضواحي دمشق ، قيل لعبد الملك :
لك ان تأمر بالمسير عندما تشاء
فخرج مناديه ينادي :
من كانت له حاجة فليرجع الى امير المؤمنين قبل ان يترك دمشق
وقضى ثلاثة ايام ينظر في الحاجات
ثم امر فمشى الجيش ، وقبل ان يخرج من القصر ، دخل على زوجه

عاتكة ، بنت يزيد بن معاوية يودعها ، ويسألها ان تدعو له

فبكت المرأة ، وبكى جواريها لبكائها

فقال : قاتل الله كثير عزة ، فكأنه رآنا حين يقول :

اذا ما اراد الغزو لم يثن همه حصان عليها عقد در يزينها

نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم غادر دمشق ، وعلى مقدمته اخوه محمد ، وخالد بن عبد الله

وكان يقول لقواده : زفر بن الحرث قبل مصعب

فقال محمد : الى قرقيسيا ؟

ــ نعم فزفر على بيعة ابن الزبير وفي طاعته ، فاما ان يدخل في طاعتنا او يموت

وانتهى الجيش الى قرقيسيا ، فحصر زفر فيها ، ونصب عليها المجانيق

فأمر زفر من ينادي ، في جيش عبد الملك : لم نصبتم علينا مجانيقكم؟

قالوا : لنحطم الاسوار

فقال : نحن لا نقاتلكم من وراء الجدر ولكننا نخرج اليكم

وكان بنو كلب يقولون لعبد الملك :

انا اذا لقينا زفر انهزم بنو قيس الذين معك ، فنحهم عنا

ففعل ما اشاروا عليه به

فلما عرف بنو قيس ذلك ، كتبوا على نبالهم :

ليس يقاتلكم غدا مضري ..

ورموا بالنبال الى قرقيسيا

واصبح القوم ، فقال زفر لابنه الهذيل :

اخرج اليهم ، واقتحم الصفوف حتى تطأ حوافر فرسك فسطاط ابن مروان ، والله لئن رجعت دون ان تفعل لاقتلنك

فجمع الهذيل خيله وحمل على الناس، فصبروا قليلا ثم تفرقوا وتبعهم الهذيل بالخيل حتى قطعوا بعض اطناب الفسطاط ورجعوا دون ان يدخلوه

فقبل زفر رأس ولده وقال له : ان عبد الملك سيحبك بعدها

فقال : والله لو شئت ان ادخل الفسطاط لفعلت

فقال زفر :

الا لا ابالي من اتاه حمامـه اذا ما المنايا عن هذيل تجلت
تراه امام الخيل اول فارس ويضرب في اعجازها ان تولت

وكان جيش الشام ، من ناحية القائد حريث بن بحدل قـد ثلم بالمنجنيق ، برجا من ابراج السور ، فقال لعبد الملك بعض اهله :

لو قاتلت القوم من ناحية البرج ، ببني قضاعة ، لملكتهم

فخرجت قضاعة الى القتال ..

ولكنها انكشفت بعد ساعة وكثر فيها القتل

فأقبل روح بن زنباع الى اهل البرج يقول لهم : كم قتلنا منكم ؟

ـ والله لم يقتل منا احد ولم يجرح غير رجل واحد لا بأس عليه ، ثم قالوا له :

وانتم كم قتلنا منكم ؟

قال : عدة فرسان وجرحتم ما لا يحصى فلعن الله ابن بحدل

ورجع الى عبد الملك فقال : ان ابن بحدل يمنيك الباطل فاعرض عنه

قال : ارى ان امر الحصار سيطول

ـ نعم ، فالقوم ابطال وهم يؤثرون الموت على الاستسلام

ـ اذن نعرض عليهم الامان

ـ لامير المؤمنين رأيه في هذا

ـ سننظر في الامر غدا

وكان هنالك رجل من كلب ، يقال له الذيال ، يخرج كل يوم فيسب زفر ويلعنه على مرأى ومسمع من الناس ، فقال زفر للهذيل :

اما تكفيني هذا ؟ قال ساحمله اليك الليلة

وخرج ليلا فدخل معسكر الشام وجعل ينادي :

من يعرف بغلا صفته كذا وكذا .. حتى انتهى الى خباء الرجل وقد عرفه ، فقال له الذيال :

رد الله عليك ضالتك .

فقال : يا عبد الله اني قد تعبت فلو اذنت لي في الدخول ..

فاذن له

والرجل وحده في خبائه

فدخل الهذيل ، ورمى بنفسه الى الارض متظاهراً بالاعياء
ولم يلبث الذيال حتى استلقى على فراشه
فقام ابن زفر فقال له :
والله لان تكلمت لأقتلنك ، فذعر وقال : وما حاجتك ؟
- : تخرج معي الى زفر ، ولك عهد الله وميثـــاقه ان اردك الى المعسكر بعد ان يصلك زفر ويحسن اليك .
فنهض وخرج معه دون ان يقول كلمة والهذيـل ينادي نداءه الاول حتى انتهيا الى زفر .
فخبره الهذيل انه قد امنه
فوهب له مالاً ، ثم حمله في هودج للنساء ، والبسه ثوباً من ثيابهن ، واعــاده الى المعسكر مع رجل من خاصته
فلما اقبلا ، قال الناس : هذه جارية بعث بها زفر الى امير المؤمنين .
ثم دنوا من الهودج فعرفوا الذيال،فنقلوا الخبر الى عبد الملك، فضحك وقال:
والله ان قتل زفر وقومه لذل ، وان تركهم لحسرة ، لقـــد استطاعوا ان يلحقوا بنا الاذى ولم يفعلوا .. ودعا اخاه محمداً فقال له :
اعرض على زفر وابنه الهذيل الامان على انفسهما ومن معهما على ان نعطيهما ما احبا .
ففعل محمد ما أمره به فقال الهذيل لابيه :
صالح هذا الرجل فقد اطاعه النـــاس وهو خير لك من ابن الزبير الذي لا يراه ، وهو بعيد عنك .
قال : اصالحه ، على ان لي الخيـــار في بيعته سنة واحدة ، وان انزل حيث اشاء ، ولا اعينه على قتال ابن الزبير .
وبينا الرسل تروح بينهما وتجيء ، دخل رجل كلبي على عبد الملك يقول له :
لقد هدم من المدينة اربعة ابراج.
فقال لقواده : اذن لا أصالحهم ...

وامر الجيش بان يفتح المدينة ..

فزحف أهل الشام .

ولكن اصحاب زفر أرجعوهم الى المعسكر بقوة السيف فرأى عبد الملك عندئذ انه غير مصيب ، فقال :

اعطوهم ما ارادوا .

وقيل ذلك لزفر ، فقال : اذا رضي عبد الملك بما اشترط صالحته ، والا فالقتال .

قالوا : وما هي شروطك ؟

قال : لا ابايع عبد الملك حتى يموت ابن الزبير لان لهذا بيعة في عنقي .

— : وغير ذلك ؟

— . وان يعطيني مالا اهبه لاصحابي.

فقال عبد الملك : رضينا فينزل زفر .

فخاف ابو الهذيل ، ان يغدر به اذا نزل اليه ، كما غدر بعمرو بن سعيد ، فقال : اخشى ان تذهب حياتي اذا نزلت .

فبعث اليه الخليفة بقضيب النبي اماناً له .

فنزل واقبل الى الفسطاط وهو ينظر الى جـانبيه بعين كعين النسر حتى دخل عليه واجلسه على سريره .

فقال ابن عضاة الاشعري :

لقد كنت احق بهذا المجلس منه .

فاجابه زفر قائلاً : كذبت ، اني عـاديت فضررت ، وواليت فنفعت .

فابتسم ابن مروان ، وأومأ الى الاشعري بان يسكت ، ثم قال . هذا مالنا فخذ منه ماشئت ، ولا تبايع حتى يهلك ابن الزبير ، افتريد شيئاً آخر ؟

— : ليس هنالك ما اطلبه الآن .

فاراد ان يمازحه فقال : لو عرفنـا من قبل ، انك في هذه القلة لحاصرنا حتى تنزل على حكمنا وانت مكره ..

فرفع صوته قائلا : ان شئت رجعنا ورجعت ...

قال : بل نفي لـك يا ابا الهذيل ، ونجعل لوفائنا اثراً لا يمحوه الزمان ...

واشار عندئذ الى ولده مسلمة ثم قال : اتعرف هذا ؟

ـ . انه مسلمة ابن امير المؤمنين .

ـ . وهل يطيب لك ان يكون لك صهراً ؟

فتردد قليلا ثم قال : قد لا استحق ذلك ..

ـ : بل تستحق اكثر منه ، وقـال لمسلمة : لقد خطبنا لك الرباب اخت

الهذيل على ان تزف اليك قبل مسيرنا الى الكوفة ..

فظل زفر ساكتاً ، فقال له : اراضٍ أنت؟

ـ . وكيف لا ارضى وقد اردت ان تشرفني وتضم الرباب الى اهل بيتك .

ـ . اذن فاجعل للزواج موعداً .

ـ . الامر لك انت .

قال : نكتب اليوم الى ام مسلمة ، ويتم الزواج بعد اربعة ايام .

ـ . ليكن ما تشاء .

ـ . وقد اذنا لولديك الهذيل والكوثر ان يدخلا على امير المؤمنين في اول

الناس كلما طاب لهما الدخول .

فانحنى زفر شاكراً .

ثم قال عبد الملك : ما رأيك في قتال مصعب ؟

ـ : ان لبني الزبير بيعة في عنقي ، كما قلت ، فلا رأي لي

قال : كنا نظن انك ستكون عونا لنا في هذه الحرب

ـ . لا استطيع ذلك يا امير المؤمنين، لاني ان فعلت كنت رجلا لا عهد له،

والله نفسك لا تريد ان اضيع شرفي ..

ـ والهذيل ؟

ـ . اما الهذيل فلا عهد عليه وله ان يسير معك .

والتفت الى ولده قـائلا : أسمعت يابني ، ان امير المؤمنين يريد ان تسير معه الى الكوفة وتشاركه في قتال مصعب ، فتهيأ للرحيل .

فاكفهر وجه الفتى ثم قال : سأكون في طليعة الجيش ، مع اخي الكوثر .

فقال زفر في نفسه : لا يطيب للهذيل ان يكون عدواً لمصعب .

ثم قال : متى يرحل امير المؤمنين ؟

ـ . بعد الزواج فلم يبق لنا مانصنعه في قرقيسيا .

قال : سمعت ان في العراق رجالا يؤثرونك على ابن الزبير .

ـ . هو ما تقول وقد كاتبنا هؤلاء الرجـال وكاتبناهم ، وعاهدونا على خلع الرجل المعتصم بالكعبة ...

ـ . وتظن انهم يحفظون عهدك ؟

ـ . نحن واثقون بذلك ، وستسمع بعد زمن قصير ، ان العراق خرج من يد مصعب وانضم الى الشام .

ـ . والحجاز ؟

ـ . اما الحجاز فسيجيء دوره، وما نحن براجعين عنه حتى يدخل صاحبه البيعة او يهلك .

ثم قال :

ليست الخلافة حقاً لابن الزبير، انه طامع مغتصب لم يخلق لها ولم تخلق له، وبخيل لا يجود على الناس بدرهم ولا يحسن الى أحد، وهو القصير النظر في السياسة، والعاجز عن القيام بامور المسلمين .

فلم يشأ أبو الهذيل ان يوافقه في رأيه ، او يخـالفه فيه ... بـل كـان يقول : ليس من الصواب ان يكون للمسلمين خليفتان .

وسكت ، وعبد الملك يتكلم حتى غربت الشمس .

فاستأذن في الانصراف على ان يعد عدة الزواج .

ولم تمر الايام الاربعة ، حتى زفت الرباب الى مسلمة بن عبد الملك ، ومشى الجيش بعد يومين يريد الكوفة ، ومعه الهذيل والكوثر .

★★★

٢٩

انتهى الى مصعب ، وهو في البصرة ، خبر خروج عبد الملك من دمشق يريد العراق .

ثم بلغه بعد ذلك انه في قرقيسيا فدعا اهل البصرة يستشيرهم في الامر فقالوا :

نخشى ان نترك البلد ونسير معك الى قتال عبد الملك .

ــ : وماذا تخشون ؟

ــ : ان تزحف الخوارج الى البصره فتصنع فيها ما تصنع .

قال : سأولي أمر قتالهم رجلاً تعرفونه .

قالوا : لا نرضى الا ان تولي المهلب بن ابي صفرة

ــ : ولكن المهلب سيدافع معي عن العراق وأولي سواه

ــ : اذن لا نخرج ..

فعرف الأمير انهم سيتخلون عنه ، اذا لم يفعل ما يقولون

فارسل الى المهلب يدعوه .

فلما اقبل قال له :

اردت ان استشيرك في أمر هذه الحرب .

ــ : بينك وبين عبد الملك ؟

ــ : نعم

قال : لقد كاتب الرجل اهل العراق وكاتبوه فلا تبعدني عنك .

قال : حاولت ان أضع يدي على هؤلاء الذين ذكروهم لي، فاخفوا خيانتهم ولم اعلم شيئاً .

ــ : ان الخبر صحيح لا شك فيه

ــ : ومن هم الرجال الذين فعلوا ذلك ؟

ــ . رؤساء العشائر الا واحداً منهم او اثنين .

قال : اواثق انت ؟

ــ : أجل ، فاحذر ، ولا تغرك المظاهر .

فاطرق مليا ثم قال : الويل لهؤلاء اذا ظفرت بعبد الملك.

قال : سأرى فيهم رأيي قبل ان تستعر النار .

ــ : ولكنك بعيد عنهم وقد لا تراهم الا بعد عام

ــ : وكيف ذلك ؟

ــ : ان الخوارج قد بلغوا سوق الاهواز .

ــ : لقد عرفت

ــ . واهل البصرة لا يسيرون الا اذا جعلتك على هؤلاء .

ــ : انه امر لم يخطر لي.

ــ : وانا لم افكر فيه من قبل ، وقد قام في الذهن اني سأتصدى لعبد الملك وانت على مقدمة الجيش .

قال : خير لأهل البصرة ان يقاتل احدهم خوارج الاهواز ، واقاتل انا معك ابن مروان ..

ــ : ولكنهم لا يفعلون

ــ : ذلك لأنهم يرغبون في الخضوع لخليفة الشام ، وكأنهم يريدون ان يبعدوا عنك ، الرجال المخلصين لك ..

قال : انا اكره ، اذا سار عبـــد الملك الي ، ان لا اسير اليه .. فاكفني الخوارج ، والأتكال على الله .

قال : لا يستطيع الخوارج ان يخطوا خطوة واحدة الى الامام وانا هنا

فلم يزد على قوله : بارك الله فيك .

وودعه والألم يملأ نفسه .

ثم خرج مناديه بعد يوم يدعو الناس الى المسير .

ومشت الرجال الى الكوفة ، ومصعب يخطب فيهم ، ويحرضهم على الدفاع، بإيمان واخلاص ، وهو غير مؤمن بأنهم اوفياء له .

وكان اهل الكوفة عندئذ فريقين ، هـــذا يفكر في امر الدفاع عن بلده ، وهذا يفكر في التخلي عن مصعب ، يوم يشهر السيف .

فلما انتهى اليها جيش البصرة ، اقبل القوم ، الخيانة في قلوبهم ، ومظـاهر الوفاء الكاذبة على الوجوه ، وجعلوا يستشيرون مصعباً في امر الحرب،ويحاولون ان يقرأوا اسراره ...

وهو يبتسم لهم ويقول : انا سنظفر باذن الله، وسنمشي الى قتال عبد الملك، كما يمشي الواثق المطمئن ، الى عدوه .. ثم يقول : ستعلمون غداً كل شيء .

حتى دخل عليه قيس بن الهيثم ، فقال له : ما وراءك ؟

قال : ما لمست بيدي غير الوفاء لك .. ان القوم جميعهم ينفضون ايديهم من عبد الملك ورسائله .. ويحلفون انهم على طاعة امير المؤمنين اخيك لا يخرجون عنها ولو ذهبت ارواحهم في الميادين ...

— : وما تقول انت ؟

— : اما انا فلا اؤمن بما يقولون ..

قال : خيانة في البصرة ، ومثلها في الكوفة ، وقـد تخلى عني الناس .. اني والله سأحارب عبد الملك ولو لم يبق معي غير عيسى، والموت في ساحة الحرب، خير من الاستسلام الى هذا الاموي الغدار .

— : وماذا رأيت في البصرة ؟

— : رأيت قوماً لا يخرجون معي ، إلا اذا أبعدت المهلب عن الجيش ...

— : وكيف ابعدته وهو فارس العرب ؟

— : أبوا إلا ان اجعله على قتال الخوارج ..

قال : لو كان المهلب على الجناح الأيمن ، وابن الاشـــتر على الجناح الايسر ، لضمنت لك النصر .

قال : ولو بعث اليّ امير المؤمنين ، برجال الحجاز ، لجعلت الشام قطعة من دولته بعد شهر . نحن لا نتمنى الآن فالموقف موقف نظر ورأي ... ادعُ يحيى بن سعيد .

فأرسل ابن الهيثم غلاماً يسأله ان يجيء .

وقد عرف يحيى ما يريده مصعب .

فلما اقبل ، هش له الامير وجعل يقول : لقد أتت الساعة التي تطلب فيها بدم اخيك . .

قال : اني انتظرها منذ عامين .

— : على اني كنت ارغب في ان نغزو دمشق ، نحن الاثنين .

قال : الغاية من الغزو ان تقضي على عبد الملك ، وهذا عبد الملك قـد أقبل اليك فاقضِ عليه ان قدرت .

— : سأفعل ان شاء الله .

ودار دورة قصيرة ثم قال : أعهد اليك في قيادة الجناح الأيمن .

فأخفى يحيى اضطرابه وراء مظاهر الجلد وقال عندك المهلب وابن الاشتر للجناحـين .

— : انـ المهلب يقاتل الخوارج في الاهواز .

— : ولم يرضَ ان يقاتل عبد الملك ؟

— : لو كان الامر في يدي لرأيته الآن في مقدمة الصفوف .

قال : ليس في العراق يد فوق يد الأمير .

— : أصبت ، ولكن البصريين يخافون الخوارج على البصرة ، فطلبوا الي ان يحمي المهلب ديارهم ، اذا خرجوا الى القتال ، وقد فعلت .

قال : ارى ان تختار رجلاً آخر ، يصلح للقيادة .

— : انت وابن الاشتر .

– : اما أنا فقد أقسمت ان لا احارب عبد الملك، الا اذا كنت الى جانبك

– : وأخوك عنبسة ؟

– : واما عنبسة فلا يترك أخاه ...

– : اذاً نجعل ابن الاشتر على المقدمة ونكون نحن حوله ووراءه .

قال : أليس في الكوفة رجل تجعله على احد جناحيك ؟

فوضع يده على جبينه وقال : فكرت في جميع الرجال الذين يصلحون للامر فلم أجد غير ثلاثة ... ابن الهيثم هذا ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وعروة ابن المغيرة ، وأنا احب ان تكون افراس هؤلاء جميعهم عند فرسي .

– : والآخرون ؟

– : لا يخطر لي ان أفكر في الآخرين ... !

– : اي انك غير واثق بأحد منهم ؟

– : اجل ، لست واثقاً ، ولا اريد ان اولي رجلاً لا أثق به .

فقال يحيى في نفسه : مسكين مصعب ، انه يريد ان يفتح الشام بجيش العراق ، وهو لا يجد بين رجال هذا الجيش ، قائداً مخلصاً له ..

ثم قال : افعل ما تشاء ، فأنا طائع .

قال : لولا قسمك لوليتك ..

والتفت الى غلامه قائلاً : اكتب : من مصعب بن الزبير الى ابراهيم بن الاشتر

سلام عليك

اما بعد فاذا أتاك كتابي فاحضر ، فأنا في الكوفة ...

وبعث بالكتاب ، مع غلام آخر وأمره بأن يتعجل في المسير .

ثم أومأ الى من حوله ، فانصرفوا ، وكان يقول : تشاوروا ريثما يجيء ابراهيم

ورجع يحيى فقال لأهله ومحمد الكناني بينهم : الرأي أن نتنحى عن الحرب، فمصعب سيسقط عندما تجول الخيل ..

★★★

٣٠

أقبل عبد الملك فنزل بموضع يقال له مسكن ، وعلى مقدمته كما عرفت ، اخوه محمد بن مروان ، وخالد بن عبد الله .

وخطر له ان يكاتب وجوه العراق من جديد ، لا يستثني احداً منهم ، حتى انه كاتب ابن الاشتر .

فبقي الكتاب مختوماً حتى قدم ابراهيم الكوفة ، فدفعه الى مصعب وهو يقول : هذا كتاب من صاحبك ..

فقرأه مصعب ثم قال :

أتدري ما فيه ؟

قال : لا .

— : انه يدعوك الى البيعة .

قال : كذبت ظنونه ..

— : ويعرض عليك امارة العراق .

— : لست بحاجة الى امارته .

قال : هذا امر يرغب فيه يا ابراهيم..

قال : ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة ، ووالله لو عرض علي عبد الملك عرشه لرددت هذا العرش ..

فارتجفت شفتاه قائلا : مثلك فليكن الأوفياء .

قال : ليس في ذهن عبد الملك رجل هو أبأس منه مني ، ومع ذلك فقد كتب إلي كما كتب الى جميع اصحابك ..

— : كانوا يقولون ، انه كتب اليهم قبل اليوم ..

— : وكتب الآن كما كتب بالأمس ، وهو يعرض عليهم الامارات .

ثم قال : ألم تقرأ كتبهم ايها الامير ؟

– وكيف اقرأها وهم ينكرونها ويظهرون الولاء لي .

قال : لقد رأيت لك رأياً .

– : ما هو ؟

– : هو ان تضرب اعناقهم ، فأطعني ولا تتردد في الأمر .

قال : أخشى ان تثور العشائر .

– : اذن فقيدهم بالسلاسل وابعث بهم الى السجن في ابيض كسرى .

– : وبعد ذلك ؟

– : واجعل عليهم رجلاً من خاصتك ، فان غلبت ، وتفرقت عشائرهم عنك ، اضرب رقابهم ، وان ظفرت ، كان لك في اطلاقهم ، فضل على العشائر التي ذكرت .

قال : اني لفي شغل عن ذلك ، فرحم الله الاحنف بن قيس ، لقد كان يحذرني غدر اهل الكوفة ويقول لي : انهم كالمرأة التي تريد كل يوم بعلاً ، وهم يريدون كل يوم أميراً .

وكان قيس بن الهيثم قد عرف كل شيء ، وقرأ بعض الكتب الواردة على الرؤساء ، فأتاهم وهم مجتمعون فقال : ويحكم يا اهل الكوفة ، لا تدخلوا اهل الشام عليكم فان عيشكم سيضيق ووالله ستندمون اذا فعلتم ..

ولكن القوم لم يسمعوا له .

فجاء الى مصعب ، وعنده ابراهيم فقال : أعولت على المسير ؟

– : أجل ، نسير غداً وابراهيم على المقدمة .

– : ولكن الخونة قد كثروا وقد ظهر أمرهم .

– : وعرفت من هم ؟

– : عرفتهم واحداً واحداً ونصحت لهم بأن يبتعدوا عن ابن مروان فلم يصغوا الى ما قلت .

– : وجاهروا بالعداوة ؟

– : لا ، ولكني علمت انهم سيتراجعون عندما تتلاحم الصفوف .

فرفع رأسه بعظمة وكبر قائلاً : سأخرج غداً من الكوفة عندما تطلع الشمس دون ان ادعو احداً الى اللحاق بي وسأشهر السيف في وجه عبد الملك ولو كنت وحدي

قال : ان اهل البصرة مخلصون للأمير .

— : ومن دلك على ذلك ؟

— : رجل بصري كان يقول : والله يا أهل الكوفة لو تخليتم جميعكم عن مصعب اثبتنا نحن .

قال : كنت اظن انهم من الخونة .

— : أنا احلف لك انهم اشد اخلاصاً من رجال قصرك ..

قال : لقد طابت نفسي الآن فليخن اهل الكوفة .

— : وهل تريد ان تدعو يحيى بن سعيد ليتهيأ غداً ؟

قال : سينادي المنادي غداً والناس يسمعون ، فمن اراد البقاء فليبق ، ومن أراد الخروج فليفعل اني لا ادعو احداً كما قلت .

وقضى القوم ليلتهم لم يغمض لهم جفن .

فلما بزغ الفجر ، كان مصعب وابنه عيسى على فرسيهما، ومسلم بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ينظران في أمر الجيش .

وابراهيم بن الاشتر في المقدمة وكأنه مدعو الى عرس .

وبدأت الصفوف تنضم الى الصفوف ، من اهل الكوفة واهل البصرة ، كأن لها جميعها عقيدة واحدة ورأي واحد ..

حتى ان الخونة انفسهم ، يتقدمهم عتاب بن ورقاء ، مشوا مع عشائرهم الى قتال الخليفة الغازي ... الا يحيى بن سعيد فلم يرَ الناس له وجهاً في ذلك اليوم، ولم يخطر لمصعب ان ينتدبه الى الخروج .

وكيف يعمد يحيى وبنو اخيه ، ومحمد الكناني ، الى السيف ، وهم واثقون بأن مصعباً سيفشل ، وان العراق سيخضع لعبد الملك ، بل كيف يقاتلون ، وقد لمسوا الخيانة بالأيدي ، ورأوا آثارها على وجوه القوم .

انهم يريدون ان يقاتلوا ليظفروا لا ليموتوا .

وليس في العالم كله ، قوة تستطيع ان تكره ولادة ، على ارسال بنيها الى حرب يحصدهم فيها السيف .

وهم يسمعون لها ولا يخالفونها فيما تأمرهم به .

وكذلك كانت ميمونة وابنها محمد .

على انهم ارسلوا غلاماً لهم يسير وراء الجيش ، وأوصوه بأن ينقل اليهم اخبار الحرب ، دون ان يشارك الناس في القتال .

واقاموا بالكوفة ينتظرون غلامهم ، وهم يسألون الله ان يظفر مصعب ، ويخيب رجاء القاتل ابن مروان .

وكانت ولادة تقول ليحيى : ماذا تصنع غداً اذا دخل عبد الملك الكوفة دخول الظافر .

— : نستخفي في هذا المنزل لا نخرج منه .

— : ولكنه يعلم انك هنا وسيدعوك اليه .

— : وانا امثل بين يديه ولا ابالي .

فتمتمت قائلة : اخشى ان يأمر بضرب الاعناق ...

— : لو كانت هذه غايته لما عفا عنا ونحن في دمشق .

— : ومن يعلم فقد يخطر له ان يفعل ذلك ونحن في الكوفة .

قال : لا يجسر الخليفة على ان يقتل احداً بدون ذنب .

— : الخليفة الذي يغدر بالناس يفعل كل شيء .

— : انه لا يقدر على ذلك .

قالت : سيخلق لك ذنباً .

— : ما هو ؟

— هو انك لم تخرج للقائه ، ولم تكن عوناً له على مصعب .

قال : المغضوب عليه لا يخرج للقاء الرجل الذي نفاه . واما اني لم اقاتل مصعباً فليس لي ان اقاتله وأنا في ظله وقد أحسن الي .. وعبد الملك لم يكتب

الي كما كتب الى الآخرين .
ـ : اذن يدعوك الى البيعة .
ـ : اذا فعل بايعت وانا مكره ..
ـ : وكيف نبايع قاتلنا ونخضع له ؟
فارتجفت شفتاه وجعل يقول : لم يبق الا ان اجرد سيفي واهوي بـه الى عنقه ، وينتهي الامر .
فصاحت قائلة : لا .. لا .. انك ان فعلت ذهبت حياة هؤلاء الفتيان .
ـ : وماذا اذن ؟
فقالت م كلثوم :،
يا عم ، ان أملنا بمصعب سيضيع كما تقول .
ـ : هذا ما اراه .
ـ : ونحن اضعف من ان نثأر بقتيلنا.
ـ : نعم .
ـ : كما اننا مكرهون على الخضوع للقاتل .
قال : اقتله ولا اخضع له .
ـ : ولكن بني مروان يقتلون بنيـك وبني اخيك وآل سعيد بن العاص جميعهم لا يبقون على احد .
ـ : قد يكون ذلك .
ـ : ويطيب لك يا عم ان تقتل رجلاً يقتل منا بعده مئة ؟
ـ : لا .
ـ : اذن بايعوا وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء .
فقالت ولادة وميمونة :
نعم بايعوا ، وارجعوا الى دمشق اذا اذن لكم في الرجوع .
فحنى القوم رؤوسهم وساد السكوت ...

وكان محمد بن عبد الله يقول : هذا هو الرأي ... وكان قلبه يخفق ، كلما فكر في عيسى بن مصعب ...

★ ★ ★

٣١

ضرب مصعب خيامه بالقرب من جيش عبد الملك ... واحاطها بحراس من اهل البصرة ، الذين اثبت له ابن الهيثم ، انهم من المخلصين له

وكان بين الجيشين ثلاثة فراسخ ، وعبد الملك لا يكف عن الكتابة الى الوجوه والرؤساء ، وهو يبذل لهم الوعود الخلابة .

وكانت أم مصعب كلبية ، كما قرأت

فلما تدانى الجيشان ، دعا عبد الملك رجلاً من بني كلب وقال له : سنبعث بك اليوم الى مصعب

ـ : وأحمل اليه رسالة منك ؟

ـ: لا ، فرسالتنا انت وستقول له ما نأمرك به

قال : اخاف ان يسيء بي ظنه

ـ : ليس هنالك موضع لما تقول .. انك رسول امير المؤمنين وسيعلم من الكلام الذي تنقله اليه ، انك غير كاذب

ـ : وبماذا يأمرني امير المؤمنين ؟

قال : احفظ ما نقوله لك ولا تنسَ كلمة

ـ : ما كنت لأنسى ما تأمرني بحفظه

قال : تنقل اليه سلامنا عندما تمثل بين يديه ، ثم تسأله ان يكف عن القتال، حقناً للدماء ..

وجعل يوصيه بما يقوله

فخرج فأتى معسكر مصعب واستأذن عليه

فقال لحراسه :

اسألوه عن حاجته قبل ان تأذنوا له

ففعلوا ، فقال الرجل :

اني من اخواله بني كلب ، وأرجو ان أراه

ـ : ولكنك من اهل الشام

ـ : نعم

ـ : وانت قادم بأمر عبد الملك

ـ : نعم

ـ : وأين كتابه ؟

ـ : لم يعطني كتاباً وانما عهد اليّ في كلام اقوله له دون سواه

فقالوا لمصعب : الرجل من اخوالك..

قال : بل هو من اعدائي لأن اخوالي لا يجردون في وجهي السيف

وأذن له في الدخول

فأقبل الرجل فقال : السلام على ابن اختنا ..

قال : وعلى خالنا السلام ... من ارسلك لنا ؟

فلم يجسر على ان يقول : امير المؤمنين ، بل قال : عبد الملك بن مروان .

ـ : ماذا يريد عبد الملك ؟

ـ : حملني سلامه ...

ـ : ونحن نحملك سلامنا ... ثم ماذا ؟

ـ : ثم امرني بأن اقول لك كلمة

ـ : قل كلمتين

قال : يسألك ان تدع دعاءك الى أخيك خليفة الحجاز

فابتسم قائلاً : وبعد ذلك ؟

ـ : وهو يترك دعاءه الى نفسه

ـ : ثم يجعل الامر شورى وعلى المسلمين ان يختاروا ...

ـ : نعم

قال : انه لداهية ولكنه ينسى والخلفاء لا ينسون

ـ : وماذا نسي ؟

ـ : نسي ان يجعل الامر شورى ، يوم مات ابوه مروان ، وأقبل اهـل الشـام يبايعونه ... وكذلك نسي انه سفـك الدماء ، وقتل الابرياء ، من اجل عرشه .

قال : ذلك زمان وهذا زمان ايها الامير

ـ : اصبت ، وانا لفي زمن لا يستطيع المرء فيه الا ان يدافع عن نفسه .. قل لعبد الملك : السيف بيننا

ـ : خير لك وله ان تحقنا الدماء

قال : يأتينا صاحبك غازياً ثم تسألنا ان نكف عن القتال ؟

ـ : ولكنه يطلب اليك ان تجعل الأمر شورى

ـ : كان عليه ان يطلب ذلك وهو في دمشق

فحاول الرجل ان يحمله على الرضى فلم يقدر ، وما لبث مصعب حتي أمره بالانصراف وهو يقول : لا نزيد كلمة على ما قلناه

فخرج الكلبي وهو مؤمن بأن مصعباً لا يثبت في الساحة

وكان عبيـد الله بن قيس الرقيات ، الشاعر ، في فسطاط مصعب ، وهو زبيري الهوى ومن المخلصين الصادقين في الولاء ، وقـد خرج معه الى الحرب ، فقال له : أسمعت ما يقوله عبد الملك ؟

ـ : سمعت

ـ : وماذا ترى ؟

ـ : بيني الآن وبين الرأي ، مثل ما بين مكة ودمشق ...

قال : لقد رأيت دلائل الغدر ممن معي فليس لي رجاء بما اصنع وسيكون

النصر حليفاً لابن مروان

ـ : لقد سألك هذا الكلبي ان تجعل الامر شورى فلم ترض وكان عليك ان تفعـــل ..

قال : نخشى ان يقول الناس : خاف مصعب ..!

ـ : ولكن عبد الملك نفسه هو الذي اراد ذلك ..

ـ : ان عبد الملك ، الذي لا يفكر الا في العرش ، لا يبالي بما تقوله العرب

قال : حسبك ان يقول الناس فيك ما يقولونه فيه

ـ : اذا رضيت خرجت الخلافة من يد عبد الله

ـ : وقد تخرج من يد عبد الملك

فهز رأسه قائلاً : ان الخلافة لا تستقيم لرجل رعيته خائنة .. العراق غدار كما رأيت ، وقد يمتد هذا الغدر الى فارس وغيرها من الاقاليم ، فاذا رضينـــا بالشورى فقد خسرنا الخلافة ... لا لا .. ان السيف وحده هو الحكم بيننا ، فاما ان نحطم عرش الشام او يحطم عبد الملك عرش الحجاز ، ونموت كراماً في الميادين ...

ووضع رأسه بين يديه ، وغاص في لجة التفكير ..

وكان الشاعر مطرقاً لا يقول كلمة

ومرت ساعة والامير ساكت، ثم دعا بمناطق ومال كان عنده ، فملأ المناطق من ذلك المال وقال : ادن يا عبد الله

فدنا منه ، فألبسه بعض مناطقه ثم قال : انطلق حيث شئت فاني مقتول

قال : لا والله لا اخطو خطوة واحدة حتى ارى سبيلك

ـ : بل تذهب فلا خير في بقائك

وابن قيس الرقيات هو القائل :

انما مصعب شهـــاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منـــه ولا كبرياء

ونهض مصعب ليدعو اركان حربه الأوفياء ..

فدخل غلامه فقال : الهذيل بن زفر
قال : بلغني ان الهذيل والكوثر خرجا مع عبد الملك .. ادخل يا هذيل
فلما توسط الفسطاط ، نظر اليه طويلاً ثم قال : لقد تم الصلح بين أبيك وبين عبد الملك
- : اجل ولكن أبي لم يدخل في بيعته
- : وزفت اختك الرباب الى مسلمة ؟
- : نعم
- : وخرجت انت مع اخيك الى قتال مصعب ؟
- : خرجنا من اجل هذه الغاية وانا الآن بين يديك
- : وأي غرض لك ؟
- : ان انضم الى حرسك ، واكون حيث تكون لنت ..
قال : انه وفاء ليس هنالك أصدق منه .. ولكن ...
- : ولكن ماذا ايها الامير ؟
- : ولكن لو بقيت مع عبد الملك لكان ذلك خيراً لك
قال : أتأبى ايها الأمير ان احارب في ظلك ؟
- : ما اردت هذا ولكني اخاف عليك ..
وكره ان يذكر له خوفه ، ثم قال : اين أخوك ؟
- : سار مع الرباب الى دمشق وسيعود
قال : الويل لك من غضب عبد الملك اذا ظفر
- لو كنت خائفاً لما خرجت من جيشه
قال : سيطلبك ولو كنت في حضن قيصر
- : ليفعل ما يشاء
فقال لغلامه : ادعُ من تعلم
فانصرف الغلام ، ثم اقبل بعد لحظة ، ابراهيم بن الاشتر ، وعروة بن المغيرة ،

ومسلم بن عمرو الباهلي ، وابن الهيثم ، فقال لهم :

لقد أتت الساعة

فقال مسلم : ساعة خير وظفر ان شاء الله

قال : ابراهيم على المقدمة ، وسأبعث به عندما يبعث عبد الملك بأخيه محمد ، وأنا أمده كل يوم

ـ : وتقيم بمكانك هذا ؟

ـ : نعم فاذا مشى عبد الملك مشيت

قال : اني سائر مع ابراهيم

ـ : لك ذلك

فقال ابن الاشتر :

أسألك قضاء أمرين ؟

ـ : ما همـا ؟

ـ : ان تسير وراء المقدمة فترى كل شيء ، وان لا تمدني بأهل الخيانة والغدر فأنت تعرف هؤلاء ..

ـ : سأمدك بمن معي فاتكل على الله

وباتوا ليلتهم يتحدثون بأمر الحرب حتى بزغ الفجر .



٣٢

خرج ابن الاشتر ، وقد طلعت الشمس ، وخرج من الناحية الاخرى محمد بن مروان ، فتلاقى الجيشان

وقد اختار مصعب موضعاً يرى منه كل شيء ، وقامت بالقرب منه طوائف

الخيل عليها اهل الكوفة

ومن جانبيه ، ابن قيس الرقيات ، وعروة بن المغيرة

وكان ابن الاشتر من اشجع الناس ، فلما رأى عدوه، أومأ الى الخيل فأغار، وفعل محمد بن مروان مثلما فعل ، وارتفعت الاصوات ..

وما هي الا جولة ، حتى قتل صاحب لواء محمد ، وسمع مصعب اهل البصرة يقولون : لنا النصر ..

فابتسم ابتسامة قصيرة لم يتلألأ فيها نور من انوار الأمل ثم قال لمن حوله : سيحمل اللواء رجل آخر وهذا محمد يندب الناس لحمله ..

وعيناه لا تنظران الا الى ابراهيم ..

انه ينقض على الصفوف كما تنقض العقاب ، ويثب من مكان الى آخر فيثب معه الموت .. والخيل تقع على الخيل فراراً من سيفه ...

ومصعب يقول : سلمت يا فارس العرب ، ويا سيد الميادين .

حتى أزال محمداً عن موقعه ، وتراجع جيش الشام

فأشرق جبين الامير ... ثم لم يلبث حتى اكفهر ..

ذلك لأنه رأى جيشاً آخر عليه عبد الله بن يزيد بن معاوية يصل الى الساحة، ولقد اشتد القتال فجأة ، وحجب الغبار الجيشين عن العيون ..

وكان مسلم بن عمرو يفعل فعل ابراهيم ، وصوته يرتفع كلمـــا جال جولة وضرب ضربة .. حتى غاب بين الصفوف

وبعد لحظة كثر جيش عبد الملك ، وسمع قائل يقول : قتل مسلم الباهلي

فاضطرب مصعب ونادى : عليّ بعتاب بن ورقاء ...

فأقبل عتاب على فرسه ، فقال له :

سيفك وقومك يا ابن ورقاء وكن عونا لابراهيم ...

فلوى عنق فرسه وتبعه قومه الى الميـــدان دون ان يتكلم ، وكان مصعب يقول في نفسه :

لعله يدافع باخلاص وشرف ...

فلما رآه ابن الاشتر ، قال لابن عم له :

قلت لمصعب : لا تمدني بعتاب ورفاقه .. إنا لله وانا اليه راجعون ..

وهمز جواده واغار ، والفرسان تسقط بين يديه .

ولكن اهل الشام كثروا حوله وحول عتاب ..

وبينا الناس ينتظرون ان يقاتل ابن ورقاء ، بإيمان وصبر ، كما يقاتل ابن الأشتر سمعوه يدعو قومه الى الفرار...ثم رأوه يخرج من بين الصفوف ويخرجون خلفه لا يبالون بابراهيم .. !

وعين مصعب ترى ذلك ، فقال لعيسى : لقد فر الخائن ..

— : وترك ابن الاشتر دون ان يلتفت اليه ... انظر .. ان ابراهيم يضرب الناس ولكن القوم يحاولون ان يجعلوه داخل نطاق من الرماح .. نعم يا ابي ! لقد حصروه . وهذا رجل وراءه يهوي بسيفه ... آه لقد قتلوه ...

وهم عيسى عندئذ بان يقتحم النـــاس فاستوقفه قائلا : نعم لقد قتلوه ... ودمعت عيناه ، وارتجفت شفتاه ..

كان قاتل ابن الاشتر ، عبيــد بن ميسرة ، وهو من موالي بني عذره وقد حمل رأسه الى عبد الملك

وزحف الجيش الشامي الى الامام ..

فجعل مصعب ينظر الى من حوله ثم قـــال لقطن بن عبـد الله الحارثي : قدم خيلك يا أبا عثمان

فقال : اكره ان تقتل مذحج .. !

فقال لحجار بن أبجر :

يا أبا اسيد ، قدم خيلك ..

قال : لا يطيب لي ان احارب هؤلاء ... ؟

فقال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد :

وانت ؟

قال : ما فعل أحد هذا فافعله .. !

فجعل يقول : يا ابراهيم ... ولا ابراهيم لي اليوم ..
ثم التفت فرأة عروة بن المغيرة ، فاستدناه وقال : خبرني كيف صنع الحسين
بامتناعه عن النزول على حكم ابن زياد
فخبره ، وهو يعلم انه لا يبرح حتى يقتل
وكان محمد بن مروان قد أقبل على رأس الجيش ،فنادى قائلا : يا مصعب انا
ابن عمك محمد بن مروان فاقبل امان امير المؤمنين
قال : امير المؤمنين بمكة ..
هو يعني اخاه عبد الله بن الزبير
قال : ان القوم خاذلوك اليوم
فحول وجهه عنه ولم يجب .
فنادى عيسى بن مصعب
فقال ابوه : انظر ما يريد منك
فدنا منه ، فقال محمد : اني لك ولابيك ناصح ، ولكما الامان
فرجع الى ابيه فخبره ، فقال : اظن ان القوم يفون لك ، فان أحببت ان
تأتيهم فافعل
فقال الفتى : لا تحدث نساء قريش غداً اني خذلتك ورغبت عنك
قال : اذهب انت ومن معك الى عمـــك بمكة فخبره بما صنع اهل العراق
فاني مقتول
— : لا اخبر قريشاً ابداً بما جرى ، ولكن يا ابت الحق بالبصرة فانهم على
الطاعة او الحق بامير المؤمنين .
قال : لا تتحدث قريش اني فررت ، ثم قال : تقدم اذن فقاتل
فتقدم ، ومعه طائفة من الرجال ، فقتل وقتلوا ..
واقبل رجل من اهل الشام ليحمل رأس عيسى
فحمل عليه مصعب فقتله ثم شد على الناس فانفرجوا له
فقال عبد الملك للناس :

ابذلوا له الامان وقولوا له انه يعز علينا ان يقتل ، فليقبل اماننـــا وله حكمه في المال والعمل

فأبى وجعل يقاتل والناس ينفرجون له

ثم دخل فسطاطه فتحنط ، وخرج . فاتاه عبيد الله بن زياد ، بن ظبيان ، فدعاه الى البراز

وكان النابىء ، اخو عبيد الله ، قد قتل في الكوفة ، بأمر مصعب

فقال مصعب : مثلي يبـــارز مثلك وحمل عليه فضربه على الخوذة فكسرها وجرحه

فرجع عبيد الله وعصب رأسه

وكان الناس في تلك الساعة قد تخلوا عن مصعب وخذلوه ولم يبق حوله منهم غير سبعة اشخاص

وقد كثرت جراحه ، واصابته النبال .. ثم عاد ابن زياد ، فضربه مصعب ضرب عاجز سال دمه فلم يصنع شيئاً

وضربه ابن ظبيان فقتله ثم اخذ رأسه فألقاه بين يدي عبد الملك وأنشد :

تعاطى الملوك الحق ما قسطوا لنا   وليس علينـــا قتلهم بمحرم

فلما رأى عبد الملك الرأس ، سجد

وكان ابن ظبيان يقول بعد :

« هممت بان اقتل عبد الملك وهو ساجـــد فاكون قد قتلت ملكي العرب وأرحت الناس منهما »

وعبد الملك يقول :

« هممت بان اقتل ابن ظبيان فاكون قد قتلت افتك الناس باشجع الناس . »

وأمر عبد الملك لابن ظبيان بألف دينار

فلما حملت اليه قال : لم اقتله على طاعة امير المؤمنين وانمـــا على قتل اخي النابىء ، ولست بحاجة الى هذا المال

ولم يأخذ منه شيئاً

وجعل الخليفة ينظر الى رأس مصعب ويقول :
متى تغذو قرشية مثلك .. ان الحرمة بيننا قديمة ولكن الملك مقيم ...
وامر بدفن الاثنين ، عيسى ومصعب ، في ذلك الموضع ، الذي هو عند دير الجاثليق بالقرب من نهر دجيل
وبعد أن واراهما الثرى، نظر الى اخيه محمد قائلا : يجب ان يبايع جند العراق قبل ان يعود الى الكوفة
قال : لقد فر منه من تعلم
سننظر في امر هؤلاء .. خذ الرأسين فاحملهما معك فسنبعث بهما الى عبد العزيز في مصر
وكان المنادي قد نادى :
يا جنود العراق لا ترجعوا الى الكوفة قبـــل ان يأذن لكم امير المؤمنين
وقد طاب للخليفة ان يبايعه ذلك الجند ، قبل ان يرحل ...



٣٣

بقي عبد الله بن قيس الرقيات ، مع مصعب ، حتى قتل
فلما رأى ان الامر قد انتهى ، سار الى الكوفة ، يحجبه الظلام عن عيون الناس وهو لا يعرف الى اين يمضي
وكان في طرف الكوفة ، من ناحية مسكن ، بيت منفرد يحيط به سور عال لا يرى الناس ما وراءه
وعبد الله الشاعر ، لم يره من قبل وقد انتهى اليه عند بزوغ الفجر فدخله فاذا امرأة معها ابنتان كأنهما ظبيتان .

فرحبن به وهن يبتسمن له دون ان يسألنه عن اسمه، اما هو فقال لهن :أني خائف وقد لجأت الى هذا البيت

فأومأت اليه المرأة بان يصعد الى غرفة لها عالية ، تطل على ما حولها من جبل وسهل .

فقعد فيها ، وقد امرت له بما يحتاج اليه من طعام وشراب وفراش لا تسأله من هو ولا يسألها من هي

وكان عبد الله بن يزيد ، بن اسد ، ويحيى بن معيوف الهمداني، قد لجأا الى علي بن عبد الله بن عباس .

ولجأ الهذيل بن زفر ، وعمرو بن يزيد الحكمي ، الى خالد بن يزيد ، بن معاوية

فلما اصبح عبد الملك ، دعا جنداً للعراق الى بيعته فبايعوه جميعهم ولم يبق منهم احد .

وسار عند الظهر حتى دخل الكوفة، والى جانبه قطن بن عبد الله الحارثي، احد الرجال الذين تخلوا عن مصعب

ثم قام في المسجد خطيبا يعد المحسن، ويتوعد المسيء ، حتى قال ،والمسجد يغص بالناس .

ان الجامعة التي وضعناها في عنق عمرو بن سعيد ، باقية عندنا ، ووالله لا نضعها في عنق رجل ثم ننتزعها الا صعداً لا نفكها عنه فكا .. فاصغوا الى ما نقوله ولا تهدروا دماءكم والسلام

وهي خطبة بليغة رهيبة كما ترى

ثم خرج فاقام بالنخيلة وقال لمستشاريه : مروا العشائر بان تبايع ولا تنسوا احداً

وكان قطن يسمي له الناس

فاقبلت قضاعة فبايعت ، ثم جاءت مذحج ، فقال عبد الملك

ما ارى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً . ثم قال للرؤساء : ائتوني بابن

اختكم وهو يعني يحيى بن سعيد وكانت امة مذحجية
فقالوا : أهو آمن ؟
قال : وتشترطون ايضاً
فاجابه رجل منهم قائلا ما نشترط جهلا بحقك ولكنها دالة الولد على ابيه..
قال : نعم الحي انتم .. لقد كنتم فرساناً في الجاهلية .. ليحضر فهو امن
فانصرف احدهم يدعو يحيى،فقال:أأمثل بين يدي عبد الملك ولا امان لي ؟
— : بل انت آمن وقد اشترطنا
— : ولكنه امن عمرواً من قبل ، وانا اخشى ان يكون اماني مثل امانه
قال : ليس المجال اليوم مجال غدر ، فاخرج
قال : يخطر لي والله ان لا ابايعه ..
— : اذن تقتل كما قتل اخوك ويقتل معك هؤلاء الفتيان
فقالت ولادة : ليس لك سبيل غير هذا فان اردت فاذهب ولو كان لك امل لما فعلنا
وهكذا قالت ميمونة،وكانت حاضرة
قال : لقد خاب رجاؤنا بمصعب رحمه الله
فقال محمد الكناني : ورحم الله عيسى .. إن الرجاء قد خاب كما قلت ، فاذا طاب لكم ان ترحلوا الى الحجاز ، فعدوا عبد الملك بانكم تبايعونه غداً، وارحلوا في هذا الليل ، والا فالبيعة امر لا بد منه
فقال يحيى للمذحجي : اعد علي ما قاله عبد الملك
— . قال : ائتوني بابن اختكم وهو آمن
قال : عدني بانك تعطيني في مجلسه سيفاً ، اذا اراد ان يغدر بي
— . لقد وعدتك
فقال لابناء أخيه ولمحمد وعنبسة :
اخرجوا فقد اتكلنا على الله
فلما دخلوا عليه قال : يا يحيى ، ألا تبايع إلا اذا دعوناك ؟

قال : ليس لي ان امثل بين يديك إلا باذن منك ..

ـ : اذن كان عليك ان تستأذن دون ان يدعوك أحد

ـ : لا افعل ، وانا من المغضوب عليهم ، وقد ابعدتني وابعدت اهلي من الشام وهممت بقتلي وقتلهم من قبل ..

قال : ما فاتنا بالامس لا يفوتنا اليوم ..

ـ : انك لا تستطيع ان تفعل ..

ـ : لماذا ؟

ـ : لانك قلت لمذحج اني آمن ، والخليفة لا يقتل الناس ، الذين بذل لهم أمانه منذ ساعة ...

ـ : ولكننا لم نؤمن هؤلاء

ـ : متى كنت أنا آمناً فهم آمنون .. ومع ذلك فهذه رقابنا فاعمد الى سيفك .. واجرِ دمنا على بساطك ..

قال : انت تعلم انك تستحق القتل

ـ : في اي شيء

ـ : في هذا الاستخفاف الذين ظهر منك .. لقد عرفت ان أمير المؤمنين خرج من الشام ليقاتل مصعباً .. ثم عرفت انه انتهى الى مسكن ، من اجل هذه الغاية ، فبقيت في دارك لم تحمل سيفك لتحارب بين يديه !

فابتسم قائلاً : أكنت تريد ان اخرج للقائك ، واعرض عليك سيفي ، وانا من ضحايا غضبك ، ودم عمرو الذي سال في مجلسك ...

واختنق عندئذ صوته فلم يعرف الناس ما الذي اراد ان يقوله ..

اما عبد الملك ، فقد عرف ، فقال : دع الماضي فلا حاجة لك الى ذكره

ثم قال لابناء عمرو :

انكم اهل بيت لم تزالوا ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم ، وان الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً وانما كان قديماً في انفس اوليائكم على اوليائنا في الجاهلية ...

فسكت أمية ولم يقدر ان يتكلم

فقام سعيد بن عمرو فقال : يا أمير المؤمنين ، ما تبغي امرأ كان في الجاهلية وقد جاء الله بالاسلام فهدم ذلك ووعدنا جنته وحذرنا النار .. واما الذي كان بينك وبين ابي فانه كان ابن عمك وانت اعلم بما صنعت وقد وصل أبي الى الله .. ثم قال :

ولعمري لئن أخذتنا بما كان بينك وبينه لبطن الارض خير لنا من ظهرها . فاعمل الان ما تشاء

قال : أنت سعيد ؟

— : نعم

— : انك فصيح اللسان ثابت الجنـــان ، فاسمع ، لقد خيرني ابوك بين ان يقتلني او اقتله فاخترت قتله على قتلي ..

— : واما نحن ؟

— : فرق لهم عبد الملك وقال اما انتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم.. اجلسوا ..

ثم التفت الى محمد بن عبدالله فقال : وانت من انت ؟

— : محمد بن عبدالله بن عزيز الكناني

— : عبد الله بن عزيز .. هـــذا ، كان من المتشيعين لعلي .. وقد قتل مع سليمان بن صرد .. أليس كذلك ؟

— : بلى يا امير المؤمنين

فقال أهل المجلس في نفوسهم :

لا ينسى عبد الملك شيئاً ولا يغفل عن شيء

ثم قال : ومن أمرك بالمجيء ؟

— : رأيت الناس يبايعون امير المؤمنين فجئت أبايعه

— : وتكون مخلصاً لنا كما كان ابوك مخلصاً لآل علي؟

— : ما عودني ابي وقومي ان اخون احداً ..

قال : بارك الله فيك .. ثم قال ليحيى :
قم فبايع .
فبايعه ، ثم بايع بعده عنبسة والفتيان الخمسة وهموا بالانصراف .
فأمرهم بالبقاء ..
ودخل عندئذ بنو عدوان، وبين أيديهم فتى جميل الوجه ، فقال عبد الملك :

عذير الحي من عدوا ن كانوا حية الارض
بغى بعضهم بعضا فلم يرعوا على بعض
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالفرض

ثم أقبل على ذلك الفتى يسأله ان يقول الابيات الباقية
فقال : لا ادري
وكان معبد بن خالد الجدلي ، وراء الفتى ، فقال :

ومنهم حكمٌ يقضي فلا ينقض ما يقضي
ومنهم من يجيز الحج بالسنة والفرض
وهم من ولدوا سنوا لسير النسب المحض

فقال الخليفة للفتى : من انت ؟
—: لاادري
فقال معبد من ورائه : هو ذو الاصبع ..
فقال له : لماذا يسمونك ذا الاصبع ؟
—:لا ادري
فقال معبد : لان حية نهشت اصبعه فقطعتها
— : وما كان اسمك ؟
— :لاادري
فقال معبد : حرثان بن الحرث
— : ومن ايكم هو ؟
— : من بني ناج

فقال له : كم عطاؤك
- : سبعمائة ..
- : وعطاؤك انت يا معبد ؟
: ثلاثمائة يا أمير المؤمنين
فقال لكاتبه :
اجعل معبداً في سبعمائة وانقص من عطاء هذا اربعمائة
ثم اقبل كندة
فنظر الى عبد الله بن اسحق بن الاشعث وهو غلام ، ثم اوصى به اخـــاه بشر بن مروان
ودخل بعدهم دواد بن قحذم ، في جمع كثير من بكر بن وائل ، فجلس مع عبد الملك على سريره
فأقبل عليه عبد الملك ، ثم نهض فنهضوا معه ، فقال : هؤلاء الفساق لو لم يأتني صاحبهم لما اعطاني احد منهم طاعة .. اين عبـــدالله بن يزيد ويحيي بن معيوف ؟
فقال قطن بن عبد الله . سمعت انهما لجأا الى علي بن عبدالله بن عباس
- : وسمعت شيئاً عن عمرو بن يزيد الحكمي والهذيل بن الحرث ؟
- : قيل لي انهما استجارا بخالد بن يزيد
قال : اذا سألنا علي بن عبدالله وخالد بن يزيد ان نؤمن هؤلاء فعلنا
وصرف الناس ، الا بعض خاصته ، وبني سعيد بن العاص ، وابن حريث ثم قال لغلامه اعط كل واحد من هؤلاء بذرة من المال
واشـار الى يحيى بن سعيد ومن معه فأحضر المال بين يديه ، فقال : واعط كل واحد منهم سيفاً يشهره في وجوه اعداء امير المؤمنين ...
ثم قال لهم :
ان الماضي مضى فلا تسألونا ولا نسألكم عنه ، أليس كذلك يا يحيى ؟
- : أما نحن فلا يطيب لنا يا امير المؤمنين ان نسألك عن ذلك

— : ونأذن لكم في الرجوع معنا الى دمشق

— : انها نعمة لا ننساها

— : ونعيد اليكم من بيت المال ما خسرتموه ، ثم نعطي كل واحد منكم في كل عام ، عطاء رجلين من خاصتنا ولكم فوق ذلك ما لاهل بيتنا من مقام في القصر وخارج القصر

— : أطال الله بقاء أمير المؤمنين

— : وبابنا مفتوح لكم جميعاً تدخلون علينا في أول الناس لا يمنعكم الحراس ولا يستأذن لكم حاجب

قال : كفى يا مولانا فقد غمرتنا بالفضل

— : وانت ايها الكناني ، أتسير الى الشام ؟

فرفع الفتى رأسه قائلا : ان بقيت في العراق او سرت الى دمشق فانا في ظل أمير المؤمنين وعينه ترعى المخلصين له ولو كانوا في آخر الارض

قال : اردنا ان تذهب لنختبر اخلاصك ...

— . سأفعل ما تأمرني به

قال : نمكث بالنخيلة اربعين يوماً ثم نعود الى الشام فاذا انقضت هذه الايام التي ذكرنا فتهيأوا للسفر

واقبل عمرو بن حريث .

فقام يحيي ومن معه فاستأذنوا ثم خرجوا وكان يحيى يقول من كان يظن ان عبد الملك يحسن الينا ويأمرنا بالرجوع الى دمشق فقال سعيد :

لقد ساعده الحظ في العراق ، فهو يريد ان يكثر حوله الاصدقاء ، ليمد هذا الحظ يده اليه ، يوم يسير الى الحجاز

قال : كنت واثقاً بأني سأرى السيف

وعندما انتهوا الى المنزل ، كانت النساء الثلاث ينتظرنهم عند الباب ، فقالت ولادة :

ارى الابتسامات تغمر الوجوه .

فقال يحيى ان الرجل الذي كان عدواً لنا ، احاطنا باحسانه واذن لنا في العودة الى البلد الذي خرجنا منه .. وهذا احسانه في الايدي

وقص عليهن ما جرى

فتجهم وجه ام كلثوم .. ولم تجسر على السؤال الذي فكرت فيه .

وكانت ميمونة ساكتة ، فقالت : ونبقى نحن في العراق ؟

— : بل تخرجين معنا فقد أمر عبد الملك محمداً بان يتهيأ للرحيل

فاشرق جبين الفتاة ، وحنت ميمونة رأسها تفكر في الامر



٣٤

كان عبد الله بن خازم ، عاملاً لمصعب على خراسان

فلما بلغه مسير مصعب الى قتال عبد الملك ، قال للرجل الذي خبره : أمعه عمر بن عبيد الله ، بن معمر ؟

قال : لا فقد استعمله على فارس

قال : أمعه المهلب بن أبي صفرة ؟

— : لا فالمهلب يحارب الخوارج ؟

— . أمعه عباد بن الحصين ؟

— . لقد استخلف عباداً على البصرة

قال : وانا بخراسان ..

خذيني فجريني جعاد وابشري بلحم امرىء لم يشهد اليوم ناصره

وايقن عندئذ بان عبد الملك سيظفر بمصعب ، وان اخبـــار هذا الظفر ستنتهي اليه بعد ايام

اما المهلب ، فقد كان يوم قتـل مصعب ، في بلد من بلاد فارس ، يقال له سولاف ، على شاطيء البحر

وقد بلغ الخوارج ، خبر مقتله ، قبل ان يبلغه هو

وكان ذلك في مساء يوم اشتد قتاله وسالت فيه الدماء ..

فلما كان الصباح ، صاح الخوارج باصحاب المهلب :

ما قولكم في مصعب ؟

قالوا : أمير هدى ، وهو ولينا في الدنيا والآخرة ونحن اولياؤه

— : وما قولكم في عبد الملك ؟

— : ذاك ابن اللعين نحن نبرأ الى الله منه ..

قالوا : لقد قتل عبد الملك مصعباً،وستجعلون عبد الملك غداً اماما لكم..

ثم اقبلت الرسل تنعي مصعباً الى المهلب فدعا النـاس ، وأمرهم بان يبايعوا ابن مروان

فصاح بهم الخوارج : يا اعداء الله ما تقولون في مصعب

فكرهوا ان يكذبوا انفسهم ، فقالوا : انكم لا تسمعون جواباً

— : وما قولكم في عبد الملك ؟

— : هذا خليفتنا .. !!

ولم يجدوا بداً ، اذ بايعوه ، من ان يقولوا ذلك

قالوا : يا اعـداء الله ، انتم بالامس تبرأون منه في الدنيـا والآخرة ، وهو اليوم خليفتكم ، وقد قتل اميركم الذي كان وليكم .. قولوا ، ايها المهتدي ، وايها المبطل...

ـ : رضينا بذلك اذ كان يتولى امرنا

ـ لا والله ولكنكم اخوان الشياطين وعبيد الدنيا ..

وانتقل المهلب ، بين ليلة وضحاها ، من حال الى اخرى

كان عاملا لابن الزبير ، يقـاتل اعداءه ، ويبذل دمه من اجله ، فأصبح اليوم من المتشيعين لعبد الملك ، يأمر الناس بأن يبايعوه، ويدعوهم الى الدفاع عن

خلافته

تلك هي ناحية ، من نواحي التشيع للخلفاء في ذلك الزمان

واما عبدالله بن الزبير ، فلما انتهى اليه قتل اخيه ، خطب فقال :

« الحمد لله الذي له الخلق والامر يؤتي الملك من يشاء ، وينتزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، الا وانـه لم يذلل الله من كان الحق معه وان كان فرداً ولم يعزز من كان وليه الشيطان وان كان الناس معه .. الا وانه قد اتانا من العراق خبر احزننا وافرحنا ، اتانا قتل مصعب ، رحمه الله . فاما الذي افرحنا ، فعلمنا ان قتله شهادة ، واما الذي احزننا فان لفراق الاخ لوعة يجدها اخوه عند المصيبة ، ويرعوي بعدها ذوو الرأي الجميل الى الصبر وكريم العزاء .

« وما مصعب الا عبد من عبيد الله ، وعون من اعواني ، الا وان اهـــل العراق اهل الغدر اسلموه وباعوه باقل الثمن ، فـــان يقتل فوالله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو ابي العاص ... والله ما قتل رجل منهم في زحف لا في الجاهلية ولا في الاسلام ولا نموت الا قعصا بالرماح وتحت ظلال السيوف ...

« الا انما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطـــانه ، ولا يبيد ملكه ، فان تقبل لا آخذها أخذ البطر ، وان تدبر لم ابك عليها ، أقول قولي هذا واستغفر الله »

انها لخطبة طيبة ، ورثاء بليغ ، رثى به خليفة الحجاز اخـــاه ، بل رثى نفسه ، وانه لفخر لآل الزبير ، ان يموتوا كما قال

وكان عبد الملك ، قد بعث برأس مصعب الى أخيه ، عبد العزيز بن مروان ، امير مصر فلما رآه ، وقد قطع السيف انفه قال : « رحمك الله ، اما والله لقد كنت من احسنهم خلقاً واشدهم بأساً واسخاهم نفساً » ثم امر فارسل الرأس الى الشام. فنصب بدمشق ، ثم ارادوا ان يطوفوا به في النواحي .

فاخذته عاتكة ، بنت يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك ، فغسلته ودفنته

وكانت تقول ، اما رضيتم بما صنعتم ، حتى تطوفوا به في المدن ... هذا بني..»

قال عبد الملك يوماً لجلسائه : من هو اشد الناس بأساً ؟

قالوا : امير المؤمنين

قال : اسلكوا غير هذا الطريق ..

قالوا : عمير بن الحباب السلمي

« وقد قرأت في الجزء الماضي شيئاً عن عمير »

قال : قبح الله عميرا ، انه لص ، وثوب لا وفـــاء له فجعلوا يذكرون اسماء الابطال وهو يقول لا ، حتى سكتوا ، فقـــال : الا تعلمون من هو أشجع النـــاس ؟

ـ من ؟

ـ . مصعب ، كان عنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، ثم هو اكثر الناس مالاً ، جعلنا له الامان وولاية العراق وعلم اني سأفي له ، للمودة التي كانت بيننا ، فحمي انفا وابى وقاتل حتى قتل

قال الاقشر الاسدي من قصيدة :

حمى انفه ان يقبل الضيم مصعب | فمات كريماً لم تـذم خلائقــه
ولو شاء اعطى الضيم من رام هضمه | فعاش ملوماً في الرجال طرائقه

وقال عرفجة بن شريك :

ما لابن مروان اعمى الله ناظره | ولا اصاب رغيبات ولا نفـلا
يرجو الفلاح ابن مروان وقد قتلت | خيل ابن مروان حراً ماجداً بطلا
يا ابن الحواري كم من نعمة لكم | لو رام غيركم امثالهـــا شغلا
حمـــلتم فحملتم كل معضلة | ان الكريم اذا حملته حمـلا

وقال عبد الله بن الزبير الاسدي ، في ابراهيم بن الاشتر ، من قصيدة :

« الزبير هنا بفتح الزبير وكسر الباء »

سأبكي وان لم تبك فتيان مذحج | فتاها اذا الليـــل التمام تأوبا
فتى لم يكن في امرة الحرب جاهلا | ولا بمطيع في الوغى من تهيبـــا

ومنها :

فمن يك أمسى خائناً لاميره   فما خان ابراهيم في الموت مصعباً

وكان عمر مصعب حين قتل ، ستاً وثلاثين سنة

★★★

٣٥

صنع عمرو بن حريث لعبد الملك ، طعاماً كثيراً

وسأله ان يجلس في قصر الخورنق ـ من قصور ملوك الحيرة ـ ويأذن اذناً عاماً للناس ...

ففعل ، واخذ الناس مجالسهم ، واجلس عبد الملك عمراً معه على سريره ، ثم جاءت الموائد ، فقال :

ما ألذ عيشنا لو دام ، ولكننا كما قال القائل :

وكل جديد يا أميم الى بلى   وكل امرىء يوماً يسير الى كانا

فلما فرغوا من الطعام ، طاف الخليفة في القصر ، وعمرو بن حريث معه ، وهو يسأله ، لمن هذا الاثر ومن بنى هذا البيت ، وعمرو يخبره ، فقال :

فكأن ماقد كان لم يك اذ مضى   وكأن ماهو كائن قد كانا

ثم أمره بالجلوس ، بين انقاض الخورنق ، وقال لغلامه :

ادع قطن بن عبد الله ، ويزيد بن رويم ، ومحمد بن عمير الهمداني وليحضروا وحدهم الساعة ولا تقل لاحد اين نحن

فلما اقبلوا قال ليزيد : أعد عدتك فقد جعلناك على الري

قال : اني اشكر لامير المؤمنين احسانه الي ، متى تريد ان انصرف ؟

ـ : غداً ، وعليك ان تقضى حاجاتك كلها في هذا الليل

ثم قال للهمداني : وانت تنصرف الى بلاد قومك همدان ، فقـد استعملناك عليها ، وافعل الليلة ما يفعله ابن رويم

قال : استأذنك في البقاء ثلاثة ايام

— : ولم ذلك ؟

— : ان ابن عم لي جرح في مسكن وانا ارجو ان يبرأ في الايام الثلاثة فينقل معي الى بلده

قال : إفعل ، وهذا كاتبنا يعطيك ويعطي ابن رويم من المال ، ما تحتاجان اليـــه

وامرهما بالانصراف ثم قـــال لقطن : يا ابا عثمان ، لقد وليناك الكوفة على شرط ..

— . ما هو يا امير المؤمنين ؟

— : أتعرف عبيد الله بن قيس الرقيات ؟

— : وكيف لا اعرفه ، وهو الشاعر المنقطع الى عبد الله بن جعفر « بن ابي طالب » وقد مدح مصعباً وخرج معه الى قتالك ..

قال : لقد فر من مسكن ، كما تعلم ، ونحن لا يطيب لنا ان نـترك العراق قبل ان تقبض عليه

— : وهذا شرطك ؟

— : نعم

فأطرق قليلاً ثم قال : ما ادري في اي ارض من ارض العراق وقفت راحلة ابن قيس

— : قيل لنا انه في الكوفة لم يخرج منها ، ونحن ، منذ قدمنا النخيلة ، نرسل الحراس ورجال الشرطة يسألون عنه فلا يجدونه

قال : سيدخل صاحب الشرط بيوت الكوفة بيتاً بيتاً حتى يجده ، واما اذا كان قد خرج منها فلا حيلة لي

قال : لا تتردد في الأمر ، واكتم الناس خبره فنحن نخشى ان يعلم غايتنـــا

فيمعن في الاستخفاء . ثم قال : وانا لا نسألك عنه الا عندما تهم بالرجوع الى دمشق ، فاذا كان امره قد انتهى ، فأنت باق على الكوفة ،وإلا فأنت معزول.. اذهب .

ثم عاد الى مجلسه وقال لأخيه محمد : ادعُ القواد وأهل الرأي

فملأ هؤلاء المجلس ، فقال لهم :

ان الأمر الذي دعوناكم من أجله أمر خطير يتعلق بالخلافة ونحن نسألكم الرأي فيه ... ماذا تقول يا ابن حريث ، وقد استولى امير المؤمنين على العراق وفارس ، ودانت له البلاد من مصر وما وراءها ، الى الشام ، الى هذه الأرض ....؟

ـ : اقول أدام الله ملك مولانا امير المؤمنين ..

ـ : وتتمنى لنا شيئاً آخر ؟

ـ : أسأل الله عز وجل ان يجعل ايام ملكك عهد خير وبركة

فضحك قائلاً لخالد بن عبد الله : وأنت ايها القائد ؟

ـ : أتمنى ان يكون عهدك عهد رخاء للاسلام ..

ـ : هذا ما يقوله كل رجل يتملق امير المؤمنين .. وأنتم يا أهل العراق ؟

فجعل كل واحد منهم يقول مثل هذا

حتى قام فتى في الحادية والثلاثين من عمره فقال : أما أنا فأقول غير هذا

ـ : ماذا ؟

ـ : اقول ان امير المؤمنين ، اذا اراد ان تدين له العرب كلها ، فليستول على الحجاز ، كما استولى على العراق

فأشرق جبينه قائلاً : أحسنت ايها الثقفي .. انه الجواب الذي أردناه ... ولكن الاستيلاء على الحجاز صعب كما ترى

قال : ما رأيت شيئاً صعباً على امير المؤمنين .. ان السيف الذي تضرب به عدوك هنا ، تضربه به هناك

ـ : غير ان الحجاز بعيد ، واصحاب ابن الزبير كثار فيه ، وقد لا يستطيع

جيش الشام ان يظفر بالرجل المعتصم بالكعبة ..

قال : أنا أضمن لك النصر ..

ـ : انت ؟ وهل تقدر على ذلك وانت فتى لم تشهـد حرباً ولم تزحف الى قتـــال ؟

ـ : نعم اقدر ، والشجاعة لا تظهر الا في الميادين

وكان ذلك الفتى ، الحجاج بن يوسف الثقفي

فقال الخليفة : اما انك عرفت غايتنا فنعم ، واما ان نرسلك الى قتال ابن الزبير فهذا ما لم نفكر فيه

وجعل ينظر الى القوم كأنه يختار احدهم

فقال الحجاج :

اني أقص على امير المؤمنين حلماً رأيته ، قبل ان يختار احداً من هؤلاء

ـ : ماذا رأيت ؟

ـ : رأيت اني اخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثني اليـــه ، وولني قتاله ، واعلم اني سأكون عند حسن ظنك

فضحك وقال :

لقد كان حلمك رهيباً يا حجاج .. ويكفي امير المؤمنين ان تظفر بعدوه ، لا ان تسلخه ولو في الحلم ..

ثم قال دون ان يلتفت الى ما حوله : لقد وليناك فاذكر حاجتك ..

قال : اذا اراد امير المؤمنين ان يطلعني على ما صنع في الحجـاز منذ انتهت اليه الخلافة الى اليوم فليفعل

ـ : لقد وثقنا الآن بأنك فتى الحرب والرأي ... هذا ما فعلناه ، فاسمـع وليسمع الناس فقد نمدك براحد منهم

فأصغى القوم ، فقال : عندما بايعنا الناس ، بعثنا الى المدينة عروة بن انيف في ستة آلاف رجل من اهل الشام

ـ : اعرف ذلك

ـ : وأمرناه بأن يعسكر بالعرصة ولا يدخل المدينة ، حتى يرى ما يصنعه ابن الزبير .

وكان عامل ابن الزبير على المدينة ، الحرث بن حاطب ، فهرب منها ، وابن انيف يدخل ويصلي بالناس ثم يعود الى معسكره

وأقام شهراً يفعل ما ذكرناه ، وابن الزبير لم يبعث احداً .

ـ : ثم امرت الحرث بالرجوع الى الشام .

ـ : اجل ، فلما رجع استعمل عبد الله سليمان بن خالد الانصاري ، على خيبر وفدك ، وأعاد الحرث بن حاطب الى المدينة ، فلم نر عندئذ الا ان نرسل عبد الملك بن الحرث ، بن الحكم ، في اربعة آلاف وقد أمرناه بأن ينزل وادي القرى ، ويعرض ، بدهاء وحكمة ، لجيش عبد الله

ولكن عاملنا لم يرد الا ان يسعر النار ، فسير طائفة من رجاله الى سليمان ، وكان قد هرب ، فلحقوا به فقتلوه ، وهو المسلم الصالح الذي قتل بغير ذنب .

ثم عزل ابن الزبير الحرث ، واستعمل جابر بن الاسود بن عوف ، فاستعملنا نحن طارق بن عمرو ، مولى الخليفة عثمان ، وأمرناه بأن ينزل بين ايلة ووادي القرى ، ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار

فوجه ابن الاسود جيشاً الى قتال طارق ، فدارت الدائرة على هذا الجيش ، ورجع طارق الى وادي القرى ، وهو فيها الى هذا اليوم ، وعلى المدينة طلحة بن عبد الله بن عوف

ثم قال : هذا ما جرى في الحجاز خبرناك به فانظر في أمرك

فقال الحجاج :

لقد نظرت يا أمير المؤمنين فيما اصنع ولم يبق إلا ان تأذن لي في المسير ، مع الجيش الذي تختاره لي

قال : تسير بعد شهر في ألفين ، ثم تتبعك الجيوش الواحد بعد الآخر حتى ترى انك قادر على الظفر بعدوك

قال : سيرى امير المؤمنين ان ابن الزبير لا يستطيع ان يثبت في وجه

الحجـاج ..

ـ : وهل تريد ان يكون رجالك من اهل الكوفة ؟

فجعل ينظر الى الناس ثم قال : أؤثر ان يكونوا من اهل الشام ...

ـ : اذن تبقى في الكوفة ريثما نعود الى دمشق ونختار لك الرجال

ـ : اني باق حتى تأمرني بالرحيل

فسكت الخليفة قليلاً ثم ابتسم وجعـل يقول : والكن لا نريد ان تسلخ عبد الله كما رأيت في نومك

ـ : اذن اصلبه اذا اظفرني الله به

قال : سنكتب معك أماناً له ولمن معه ان اطاعوا فاحـذر ان تمرض لهم بسوء اذا فعلوا

ـ : ما كنت لأخالف امير المؤمنين فيما يشاء

قال : انصرف الآن ، وسنراك بعد أيام

وقال لجلسائه :

سينتهي أمر عبد الله كما انتهى أمر مصعب ، ولا يبقى عندئذ غـير خليفة واحد يرفع شأن الاسلام

وأمرهم بالانصراف ، فتفرقوا ، وهم واثقون ، بأن الأمر سيستقيم له وحده ، كما قال .

***

٣٦

الحجاج

في ساعة « سوداء » طلق المغيرة بن شعبة زوجته فارعة دون ان يكون هنالك ما يدعوه الى ذلك

ثم ندم على ما بدر منه وخرج آسفاً

وبينا هو بين البيوت ، لقي يوسف بن ابي عقيل فقال له :

هل لك الى شيء ادعوك اليه ؟

قال : وما ذاك

قال : نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فانها تنجب لك

فتزوجها الرجل فولدت له الحجاج

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة :

ان الحجاج بن يوسف كان يعلم الناس بالطائف واسمه كليب ، وأبوه يوسف معلم ايضاً ، وفي ذلك قال احدهم :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان ، عبداً من عبيد اياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويغادي

فلما كبر الحجاج واشتد ساعده ، لحق بروح بن زنباع وكان من وزراء عبد الملك ، فجعل في شرطته

وكان الناس، في اول خلافة عبد الملك ، يترددون في الرحيل والنزول معه، كلما اراد ان يغزو

فشكا ذلك الى روح بن زنباع ، فقال له :

ان في شرطتي رجلا لو قلده امير المؤمنين أمر جيشه ، لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله ..

قال : ما اسمه ؟

ـ : الحجاج بن يوسف

قال : لقد قلدناه ذلك فليحضر

فلما اقبل قال عبد الملك :

أتستطيع انت ايها الفتى ان تخضع الجيش في النزول والرحيل ؟

ـ : أنا لها يا امير المؤمنين

وقد رأى الخليفة فتى فصيحاً جريء القلب ، فقال :

نخشى ان تتراجع

قال : لو علم امير المؤمنين اي فتى انا لأطلق يدي في كل أمر ..

ـ : لقد أطلقنا يدك في هذا فافعل ما تشاء

فخرج ، ولم يجسر أحد ، بعد ذلك ، على ان يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع

فوقف عليهم يوماً وهم على طعام يأكلون ، فقال : ما منعكم من أن ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟

فجعلوا يضحكون ، ثم دعوه الى الطعام ، فقال :

هيهـــات ..

ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وأحاطهم بنطاق من رجاله ، وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار ...

فدخل روح على عبد الملك والكآبة على وجهه ، فقال له :

ما لك يا ابن زنباع ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، الحجـــاج بن يوسف الذي كان في شرطتي ضرب عبيدي وأحرق فساطيطي ...

قال : عليَّ به

فدخل الحجاج وهو يبتسم ابتسامة الواثق بنفسه فقال عبد الملك : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : ما أنا فعلته يا امير المؤمنين !

ـ : ومن فعله ؟

ـ : امير المؤمنين نفسه .!

ـ : نحن

ـ : أجل والله انت فعلت وانما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين الا ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرني فيما فعلت

قال : أصبت ، وسنعطي وزيرنا ما ذكرت

وعلت منزلة الحجاج ، وكبر في عيني عبد الملك . وكان ذلك اول ما عرف من كفاءته للحكم

قال ابو الحسن المدايني :

كان الحجاج بن يوسف يضع في كل يوم ألف خوان في رمضان على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان !!

وهذا معناه انه كان جواداً يطعم الناس

ولكنه كان ظالماً بطاشاً قاسياً لا يلين إلا اذا غضب امير المؤمنين .. ولا يعفو الا اذا أكره على ذلك

بلى ، كانت هنالك ساعات ، تتغلغل الرحمة فيها الى قلبه .. ولكنها ساعات قليلة في العمر ..

وهو ، من طبيعته ، مستبد عباث ، مشغوف بالحكم ، يبذل ماله كله من اجل الولاية ، وينزل عن عزته وكبريائه ، عندما يتغير عليه ولي امره

وللحجاج هيبة في الاقاليم التي رسخت فيها قدمه لا تذكر معها هيبة امير المؤمنين الجالس على العرش

يخشاه الناس ولا يحبونه ، ويخافون سيفه الذي لا تجف الدماء عنه

وله في عهد ولايته الطويل ، حادثات كثيرة ، ستقرأ بعضها في الفصول التي ستجيء .

قيل ، ان عمر بن عبد العزيز ، المسلم الصالح ، ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من الولاة ، ايام الوليد بن عبد الملك ، فقال :

الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالمدينة ، وخالد بن عبد الله القسري بمكة .. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس ..

وذكر الحجاج في مجلسه مرة اخرى فقال لمن حوله :

لو جاءت كل امة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم

وسئل ابراهيم الشجاعي عن الحجاج فقال :

ألم يقل الله ألا لعنة الله على الظالمين ..

وقال عبد الملك يوماً للحجاج :

ما من احد الا وهو عارف بعيوب نفسه، فعب نفسك ولا تخف منها شيئاً ، فقال :

يا امير المؤمنين « انا لجوج حقود »

قال : اذن بينك وبين ابليس نسب .

قال : ان الشيطان اذا رآني سالمني

وقال حبيب بن ابي ثابت :

ان علياً قال لرجل : لا تموت حتى تدرك فتى ثقيف

فقيل له : وما فتى ثقيف يا امير المؤمنين ؟

قال : رجل يقال له يوم القيامة اكفنا زاوية من زوايا جهنم .. يملك عشرين او بضعا وعشرين سنة لا يدع لله معصية الا ارتكبها حتى لو لم تبق الا معصية واحدة بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها . يقتل بمن اطاعه ، من عصاه

قيل للحسن بن ابي الحسن البصري

ما تقول في قتال الحجاج ؟ فقال :

ان الحجاج عقوبة الله فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف ..

سئل ميمون بن مهران : كيف ترى في الصلاة خلف رجل يذكر انه خارجي . فقال للسائل :

انك لا تصلي له بل تصلي لله .. قد كنا نصلي خلف الحجاج وهو جروري ازرقي ، ثم قال :

اتدري ما الجروري الازرقي ؟ هو الذي ان خالفت رأيه سماك كافراً واستحل دمك ، وكان الحجاج كذلك

قال ابو العتبي :

ما رأيت مثل الحجاج ، كان زيه زي شاطر ، وكلامه كلام خارجي ، وصولته صولة جبار

زد على هذا ان طائفة من الناس تقول ان الحجاج كان كافراً

قيل لمجاهد :

انا قد اختلفنا في الحجاج فما تقول ؟

فاجابهم قائلاً : اجئتم تسألوني عن الشيخ الكافر

وكان القاسم بن احمد يقول :

كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الاسلام عروة عروة

ومما كفرت به العلماء الحجاج قوله وقد رأى الناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : انما يطوفون باعواد ورمة

قال الشيباني، عن الهيثم ، عن ابن عباس :

بينا نحن عند عبد الملك بن مروان، اتاه كتاب الحجاج، يعظم فيه امر الخلافة ويزعم ان السموات والارض ما قامت الا بها ، وان الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين ، وذلك ان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة ، واسكنه جنته ، ثم أهبطه الى الارض ، وجعله خليفته ، وجعل الملائكة رسلا اليه ..

فاعجب عبد الملك بذلك وقال ·
لو كان عندنا بعض الخوارج لخاصمناه بهذا الكتاب
وكان عبـــدالله بن يزيد حاضراً ، فلما انصرف الى منزله ، حدث ضيوفه بما سمع فقال له حوار بن زيد الضبي وكان هارباً من الحجاج :
خذ لي من عبد الملك اماناً ثم اعلمني به
فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال هو آمن على كل ما يخاف
فانصرف عبد الله الى خوار فخبره بذلك فقال : غداً ان شاء الله ..
وعند الصباح اغتسل ولبس ثوبين ، ثم تحنط ومشى الى دار الخلافة ، فقال ابن يزيد لعبد الملك : هذا الرجل بالباب ، فقال : ادخله يا غلام
فدخل رجل عليه ثياب بيض ثم قال :
السلام عليكم . ثم جلس ، فقال عبد الملك لغلامه :
اعطنا كتاب الحجاج
فأتاه به فقال : اقرأ
فقرأ حتى اتى على آخره
فقال حوار : أراه قد جعلك في موضع ملكاً، وفي موضع نبياً ، وفي موضع خليفة ، فان كنت ملكـــاً فمن انزلك ، وان كنت نبياً فمن ارسلك ، وان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ ...
ثم قال : انك يا عبد الملك لم تكن خليفة من مشورة من المسلمين ولكنك ابتززت الناس امورهم بالسيف ..
فظهر الغضب على وجه الخليفة وقال : قد أمنـــاك ولا سبيل اليك والله لا تجاورني في بلد ابداً فارحل حيث شئت
قال : اني قد اخترت مصر ..
ورحل اليها فلم يزل بها حتى مات عبد الملك
كتب عبد الملك الى الحجاج في اسرى الجماجم قال :
اعرضهم على السيف ، فمن اقر منهم بالكفر بخروجه علينا ، فخل سبيله ،

ومن زعم انه مؤمن فاضرب عنقه

فلما عرضهم ، اتى بشيخ وشاب ، فقال للشاب :

امؤمن انت ام كافر ؟

قال : بل كافر

ـ : ولكن الشيخ لا يرضى بالكفر

فقال له الشيخ :

اعن نفسي تخادعني يا حجـــاج ، والله لو كان هناك شيء اعظم من الكفر

فضحك وخلى سبيلها

ثم اتى برجل آخر فقال له :

على دين من انت ؟

ـ : على دين ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين

قال : اضربوا عنقه

ثم قدم آخر فقال له ؟

على دين من انت ؟

ـ : على دين ابيك الشيخ يوسف

قال : اما والله لقد كان صواما قواما : خل عنه ياغلام

فلما فعل ، دنا الرجل منه فقال :

يا حجاج ، سألت صاحبي على دين من انت فقال على دين ابراهيم فامرت به فقتـــل ، وسألتني على دين من انت فقلت على دين ابيك فخليت سبيلي وكنت تقول :

اما والله لقد كان صواماً قواماً .. والله لو لم يكن لابيك من السيئات الا انه ولد مثلك لكفاه ..

فامر به فقتل ..

ثم اتى بسعيد بن جبير ، فقال له :

انت سعيد بن جبير ؟

ـ : نعم
ـ : لا ، بل شقي بن كسير
قال : امي اعلم باسمي منك
قال : شقيت وشقيت امك..
قال : الشقاء لاهل النار
ـ : اكافر انت ام مؤمن ؟
ـ :ما كفرت بالله منذ آمنت به ، قال :
اضربوا عنقه ...

تلك هي صفات الحجاج وبعض اخباره ، ذكرناها لك لتعلم اي رجل هو ولا تنس انه كان من فصحاء الناس ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : ما رأيت أفصح من الحجاج ومن الحسن ، وكان الحسن أفصح ..

***

٣٧

قبل ان يخرج عبد الملك من الكوفة راجعاً الى دمشق ، دعا قطن بن عبدالله فقال له :

ماذا صنعت بابن قيس الرقيات ؟

قال : دخلت اكواخ الكوفة وقصورها ، وطفت في الأحياء والضواحي ، نهاري وليلي ، ورجال الشرط حولي ، فلم أجد له أثراً ..

ـ : ألم تجعل لمن يدلك على مكانه أجراً ؟

ـ : بلى يا امير المؤمنين ، والمنادي ينادي كل يوم : من يقبض على ابن قيس الرقيات ، أو يدل الأمير عليه ، فله عشرة آلاف درهم ..

ــ : وتظن انه غادر الكوفة ؟

ــ : اني واثق بذلك

ــ : ولكنك جعلت رجال الشرط والحرس على الأبواب

ــ : نعم

ــ : وكيف استطاع ان يخرج ؟

ــ : لا أعلم ... ثم قال : يخيل الي يا امير المؤمنين انه هرب بعد مقتل مصعب ولم يدخل البلد

قال : خبرني بعضهم انه لجأ الى بلدك ولم يخرج ... قل انك ضعيف عاجز لا تصلح للولاية ..

والتفت الى غلامه قائلاً :

اكتب الى طارق بن عمر في وادي القرى ، ومره بأن يبعث رسله الى مكة يسألون فيها عن ابن قيس الرقيات على ان يكتموا أهله السر .. ان مكة بلد ابن قيس وهو لا يلجأ الا الى منزله ..

ثم قال لأمير الكوفة : لقد عزلناك فانصرف الى بيتك

وقال لأخيه بشر بن مروان : وليناك الكوفة ونحن لا نوصيك ..

قال : سأجعل همي ابن قيس الرقيات

قال : اذا كان فيها فابعث به الى دمشق يوم تقبض عليه

ونادى حاجبه فقال : ادع خالد بن عبد الله

فأقبل خالد فقال : بين يديك يا أمير المؤمنين

قال : وليناك البصرة ، فلا تهمل أمر الخوارج الذين يحاربهم المهلب بن ابي صفرة ولا نخيب ظن امير المؤمنين

قال : سيرى امير المؤمنين ما يسره .

قال : انصرف الآن الى عملك وابعث الينا بأخبارك

ثم قال للحجاج : اما انت فامكث بالكوفة حتى يأتيك الجيش من الشام ومعه أمرنا بالزحف الى الحجاز لقتال ابن الزبير .. ان في الكوفة اليوم جيشا من اهل الشام ، ولكننا لا نريد ان نبعث به ، قبل ان نستشير خاصتنا وننظر معهم في أمر القتال

ـ : اني باق يا امير المؤمنين حتى يأتيني امرك ..

فأمر المنادي عندئذ بأن يدعو الناس الى الرحيل

وخرج من الكوفة تخفق فوق جنده أعلام الظفر

حتى دخل دمشق ، وقد خرج اهلها لاستقباله ينثرون على جيشه الأزاهير

وكان يفكر ، وهو في موكبه الرائع ، في اخضاع خليفة الحجاز ، وجعل العرب كلها من رعاياه

وقد قضى ، بضعة عشر يوماً، وهو يستقبل وفود المهنئين ، ورؤساء العشائر والأمراء النازلين في ارض الشام

ثم دعا اخوته وأعمامه ورجال دولته، بينهم روح بن زنباع ، احد وزرائه وقبيصة بن ذؤيب صاحب الخاتم ، وابن ابي كبشة رئيس شرطته ، والريان قائد حرسه ، وسرجون .. نعم سرجون الرومي نفسه ، الذي عرفته وقرأت اخباره في عهد معاوية ويزيد ، وكان كاتبه على الخراج والجند ، ورجاء بن حيوة ، وهو على الخزائن وبيت المال ، وأبو زرعة كاتبه على الرسائل ، وأبو يوسف رئيس حجابه ، وغير هؤلاء من القواد والأشراف

فلما أقبلوا قال :

هذا أمر العراق قد انتهى كما ترون ، فهل يطيب لكم ، وأنتم رجال الدولة المخلصون لنا ان ينضم الحجاز الى الشام ؟

فقال ابن زنباع : ليس هنالك امر أحب الينا من هذا

ـ : ولكنكم تعلمون ان الأمر لا يتم لكم الا اذا عمدتم الى السيف

قال : السيف يا امير المؤمنين ..

ـ : وكيف تستطيعون ان تضعوا أيديكم على عبد الله بن الزبير وهو

معتصم بالكعبة ؟

فقال ابن ذؤيب : اذا لم يخرج ابن الزبير الى القتال لجأنا الى الحصار

ـ : ان الحصار أمر لا بد منه ، ولكن عند عبد الله المؤونة والزاد والرجال وقد يمتد اجل الحصار الى اكثر من عام

ـ : خير لنا يا امير المؤمنين ان يمتد اجله ..

ـ : لماذا ؟

ـ : ليجوع انصار عبد الله ... انهم اذا جاعوا تفرقوا عنه

ـ : غير ان جيشنا يمل وليس في ذلك رأي

ـ : اذا رأيت هذا فاعمد الى المنجنيق ..

ـ : ونضرب البيت ؟

ـ : أجل يا مولانا وذلك ما صنعه الحصين بن نمير بأمر يزيد بن معاوية ..

ـ : ولكن ألا تذكر ان الموت فاجأ يزيد عندما كان رجاله يضربون الكعبة ؟

قال : اما الموت فسيحصدنا حصداً وليس فينا من يعلم يومه

فسكت قليلاً ثم قال : سننظر في هذا في وقت آخر فاختاروا الآن رجلاً وليه القتال

واشار الى الرجال الذين كانوا معه في العراق بأن يسكتوا ، ولا يذكروا اسم الحجاج

فقال قبيصة : ولّ أخاك الامير محمداً

ـ : اذكر غير محمد لأننا سنوليه امراً غير هذا

ـ : اذن تولي أخاك بشراً ..

ـ : لقد وليناه الكوفة

ـ : اختر يا امير المؤمنين اميراً من ابنائك

ـ : ليس لنا رغبة في ان نعهد الى احدهم في ذلك

قال : اذا كان المهلب قد بايع امير المؤمنين فاعهد اليه

ـ : المهلب يقاتل الخوارج ، وهؤلاء اعظم خطراً من ابن الزبير وأبعد صوتاً .

ـ : وخالد بن عبد الله

ـ : استعملناه على البصرة

ـ : ان طارقاً بن عمرو في وادي القرى فليقاتل عبد الله

ـ : خير لنا ان يظل طارق بعيداً عن الكعبة

قال : لم اجد الآن يا امير المؤمنين غير من ذكرت

ـ : اما نحن فقد وجدنا ولم يبق الا ان نسمع آراء من في المجلس.. لقد ولينا الحجاج بن يوسف ..

ونظر الى ابن زنباع فقال :

ماذا تقول انت ؟

ـ : انه لها ورب الكعبة ..

ـ : وأنت يا ابن ذؤيب ؟

ـ : ليس للرجل خبرة بالحرب

ـ : قل انه من اصحاب الرأي ، ورجال السيف ، وهذا يكفي

فقال الناس : لا يذل ابن الزبير غير الحجاج ، الا سرجون فانه لم يقل شيئاً .

فقال عبد الملك : رأيك يا سرجون

قال : اذا كانت للحجاج ، في مكة ، شدة تشبه شدته في دمشق ، على رجال وزيرك ابن زنباع ، فالحجاز لك

فضحك قائلا : لا يطيب لك في كل مجلس ، ايها اللعين ، الا ان تداعب الوزير ... ان شدة الحجاج ستزداد ...

ـ : وابن الزبير سيسلم او يموت

ـ : اذن فانظروا الآن في امر الرجال الذين يخرجون الى القتال

ـ : ذلك شأن ابن زنباع وابن ذؤيب ..

ـ : وشأن كل رجل وفيّ للعرش مثلك .. لقد وعدنا الحجاج بأن نرسل اليه من الشام ألفين من الرجال

ـ : ذلك عدد قليل يا امير المؤمنين

ـ : ولكننا سنرسل اليه مثله كل شهر

وجعل ينظر الى الناس كأنه يسألهم الرأي

فوافقه الجمع فيما رآه ، ثم خرجوا ، وقد سبقهم المنادون يندبون الناس الى القتال

وتحدث الناس بالشام ، هذا يقول ان الحجاز سيبتلع جيش عبد الملك ، وهذا يقول : سيخسر ابن الزبير كل شيء وينتهي امره

اما عبد الملك نفسه فكان مؤمناً بالظفر .



٣٨

همّ بنو سعيد بن العاص ، بالرجوع الى الشام ، كما رأيت

وكان يحيى وعنبسة قد رضيا بما لقيا من عبد الملك

ولكنهما ترددا في الخروج معه ، يوم ترك الكوفة ، ثم عدلا عن الاقامة بالشام ، وهو خليفتها وصاحب الامر فيها

وقد فكر يحيى في المسير الى الحجاز ، يقضي ايامه في ظل ابن الزبير ، وطاب لعنبسة ، ان يبقى في الكوفة ، قريباً من بشر بن مروان ، بعيداً عن امير المؤمنين

كان يحيى يقول :

أسير اليوم الى الحجاز ، فان صفا الزمان لابن الزبير بقيت فيه ، وان خانه

الحظ رجعت وأنا مكره

وكان عنبسة يقول :

العيش مع بشر خير من العيش مع عبد الملك .

وجلس القوم يوماً يتحدثون ، ومعهم ميمونة ومحمد

فقالت ولادة ليحيى :

أذن لكم عبد الملك في الرجوع الى دمشق ووعدتموه بأنكم سترجعون وقد عدلتم الآن ، فماذا نصنع ؟

قال : أخاف عبد الملك ولا أثق بأمانه

قالت : لو اراد ان يغدر لفعل .

ـ : لا يستطيع احد ان يعلم اليوم ، الذي يطيب لعبد الملك ان يغدر فيه

قالت : كان عبد الملك خائفاً فغدر اما اليوم فقد زال خوفه ، ولم يبق في دمشق رجل مثل عمرو ، ينازعه السلطان

قال : لا تنس ان في البلاط رجالاً يعكرون الماء .. سيقولون غداً لابن مروان : ان امية واخوته ، بني عمرو بن سعيد ، يطمعون بما كان يطمع به ابوهم القتيل ، وهم يتآمرون من وراء الستار ، ليقوضوا أركان العرش ..

ـ : ولكنه لا يصدق ، لأن امية واخوته سيعتزلون السياسة ويبتعدون عن البلاط

ـ : اما اعتزالهم السياسة فلا سبيل لهم اليه

ـ : لماذا ؟

ـ : لأن الخليفة قربهم وأحسن اليهم ، فاذا ابتعدوا عنه ، ولم يشهدوا مجالسه مع رجال الخاصة ، كان ذلك مظهراً من مظاهر الجفاء ، الذي لا يطيقه الملوك .

قالت : يشهدون هذه المجالس دون ان يكون لهم رأي ..

ـ : اذا فعلوا ذلك دب الريب في صدره

ـ : اذن يكون رأيهم مثل رأيه وينتهي الامر

ـ : ومع ذلك فأنا خائف ، وقد اخترت الحجاز مقاماً لي حتى يحكم الله بين الخليفتين

فقال سعيد : أتأذن لي يا عم ان اقول ما اعلم ؟

ـ : هات

قال : ترحل انت الى الحجاز ، ويقيم عمي عنبسة بالكوفة ، وهذا يعني ، انكما لا تريدان أنتما الاثنين ، ان تجاورا الخليفة الذي اعتذر عما مضى وأحسن جزاءك وجزاء بني اخيك

فأطرق ملياً ثم قال :

أصبت يا بني ، ولكن لي رأياً آخر أرجو ان توافقوني فيه

ـ : ما هو ؟

ـ : لقد رضيت بأن ترجعوا أنتم الى دمشق

ـ : وأنت ؟

ـ : أسير الى مكة ويبقى عنبسة هنا ...

ـ : انك رأيت ان نتفرق

ـ : نعم

ـ : والحكمة من هذا ؟

ـ : ان تطيب نفس عبد الملك وتضمحل ظنونه

ـ : وما هي هذه الظنون ؟

ـ : اذا اجتمعنا في بلد كثرت ظنون عبد الملك

ـ : ولكنه سيسألنا عنك

ـ : تقولون له انه سيقضي في الحجاز عامين ثم يعود

ـ : وعمي عنبسة ؟

ـ : وان عنبسة سيقيم بالعراق قريباً من الأمير بشر

ـ : وأي شيء يدعوك يا عم الى هذا التدبير ؟

ـ : اريد ان أتبين أمر عبد الله بن الزبير ، فاذا انتهى كما انتهى أمر مصعب

رجعت الى دمشق ، والا فأنا باق ، وقد تلحقون بي ، بعد حين

فقال اسماعيل ؟

خير لنا جميعنا ان نلجأ الى عبد الله

ـ : اذا فعلنا ، قام في ذهن ابن مروان اننا أعوان لعدوه

ـ : وسيقوم في ذهنه ، اذا سرت انت ، انك من اتباع ابن الزبير

ـ : قولوا ان لي في الحجاز ضياعاً وأموالاً أنظر في أمرهـا ، وهو يعلم اني غير كاذب

ـ : وهل تظن ان عبد الملك سيغزو الحجاز كما غزا العراق ؟

ـ : اني واثق بذلك ، وقد ولى الحجاج بن يوسف الثقفي ، قيادة جنـده ، وهو يعد اليوم عدة القتال

فقال محمد بن عبد الله :

من هو الحجاج ؟

ـ : هو رجل من رجال شرطة دمشق ، ضمه زوح بن زنباع الى رجاله ، ثم عهد اليه عبد الملك ، في اخضاع الجنود المترددين في الطاعة

ـ : وهو شجاع ؟

ـ : يقولون انه أشجع من مصعب وأشد بأساً . ألا تذكر مجلس عبد الملك ، يوم دعانا اليه ؟

ـ : بلى

ـ : لقد كان الحجاج معنا ، في ذلك المجلس ، وكان جالساً الى جانب قطن ابن عبد الله الذي عزل عن الامارة

ـ : لقد عرفته .. انه في زهرة الشباب

ـ : أجل ، فهو لا يجاوز الحادية والثلاثين ، ويقولون انه بطاش سفاح ليس في قلبه موضع للرحمة ..

ـ : ومتى يخرج من الكوفة ؟

ـ : يوم يأتيه الجيش من الشام

ـ : اي ان الحرب ستستعر نارها في هذا العام

ـ : او في العام الذي بعده

ـ : وترحل أنت قبل ذلك ؟

ـ : نعم

ـ : اذن سيندبك الخليفتان الى الحرب

ـ : ولكني سأصنع في الحجاز ، ما صنعته وأنا في العراق ، حتى يخلو الجو لأحدهما ويستأثر بالخلافة

وكانت ميمونة ساكتة ، فقالت : على أي شيء عولتم الآن ؟

ـ : على ان تسيروا أنتم الى دمشق وأفعل أنا وعنبسة كما قلت

ـ : ليس من رأيي ان نسير اليوم لأني أخشى ان يأمر عبد الملك محمداً ، وأمية واخوته ، بالزحف مع الجيش الى الحجاز

ـ : والله انه لرأي فامكثوا حتى يخرج جيش الشام

فهامست ولادة قائلة : لي ما اقوله لك الساعة

فخرجت الاثنتان ، الى غرفة اخرى ، امام دهليز الدار

فقالت ميمونة : ألم تري دلائل الهوى على وجه محمد ؟

ـ : بلى ، ورأيتها على وجه ام كلثوم

ـ : ويطيب لك يا ولادة ان يبرح الهوى بالفتيين

ـ : بل يطيب لي ان يمدّ الهناء رواقه فوق الاثنين

ـ : اذن فالخطبة خير ما نلجأ اليه ، فقد قتل عيسى بن مصعب ولم يبق ما يمنعنا من ذلك

قالت : اذا أردت ان تتم الخطبة اليوم فأنا راضية ، ولكني اؤثر ان نجعل لها موعداً آخر ، ونحن في دمشق

ـ : ولمَ ذلك ؟

ـ : لأن الكوفة دار غربة ، وليس لنا فيها اهل

ـ : اما انا فأخشى ان نرى في دمشق ما لا نحب

ـ : ترى ماذا ؟

ـ : ان حول عبد الملك ، من ابنائه وابنـاء اخوته وخاصته ، طائفـة كبـيرة من الفتيان ، وقـد يرى احدهم ام كلثوم فيسقط في شرك الهوى وهناك البلية

ـ : أي انك تخشين ان يأتينا خاطباً ، واحد من هؤلاء

ـ : نعم

فبرقت عيناها قائلة :

لو قيل لي ان السماء ستقـع على الارض ، ان لم تزف ام كلثوم الى فتى من أنسباء عبد الملك ، لآثرت ان تقع هذه السماء على الرضى بذلك

قالت : تعلمين ان الخليفة لا يراجع في أمر له فيه رأي

ـ : وأنا لا أرضى بأمر يكتنفني فيه الذل

ـ : سيكرهك على الرضى

ـ : انه يستطيع ان يقطع الاعضاء ، ويضرب الأعناق، ولكنه لا يستطيع ان يكرهني على الرضى بما لا أريد

ثم قالت : ومع ذلك فاذا تمت الخطبـة اليوم ، ثم انصرفنا الى دمشق ، أفتظنين ان الخطبة تمنـع عبد الملك او تمنع اعوانه ، من اظهـار رغبتهم في ام كلثوم ، اذا كانت لهم فيها رغبة ؟

ـ : أجل ، ويكفي ان يقال لعبد الملك ان الفتاة مخطوبة لمحمد

قالت : ما احب ان اتحدث كثيراً بالأمر خوفاً من ان تظني اني لا اريده . واني سأدعو بنيّ ويحيى وعنبسة وأشاورهم فيـه ... ولكن ما رأيك في الزواج ؟

ـ : اني لا افكر في الزواج اليوم

ـ : وأنا مثلك ... فالفتيان صغيران ..

ونادت غلاماً لها قائلة :

ادعُ جميع من في القاعة إلا محمداً وأم كلثوم

فلما أقبلوا قال يحيى :

لقد عرفنا الغاية .. ان ام محمد تريد ان تخطب لابنها أليس كذلك ؟

فقالت ولادة : بلى وقد دعوتكم لتقولوا كلمتكم في هذه الخطبة

ـ : اما انا فكلمتي هي نعم ، لأنه ليس في الكوفة اليوم عيسى آخر ، ولا خوف على محمد

وهذا ما قاله عنبسة والفتيان الأربعة

ثم قال يحيى : وتنظرون الآن في أمر الزواج ؟

ـ : ننظر فيه بعد ان نلمس بالأيدي ، مصير عبد الملك

ـ : ذلك هو الجواب الذي سمعه مصعب رحمه الله

ـ : أجل وهو جواب لا يتغير اليوم ، وهذه ميمونة قد وافقتني فيه

ـ : وموعد الخطبة ؟

ـ : تريد ميمونة ان يتم كل شيء قبل المسير الى الشام لأنها تخاف ان يأتينا أحد فتيان الشام خاطباً .

ـ : واذا رغب احدهم في ام كلثوم وكانت مخطوبة فماذا تصنع ؟

ـ : تشكو الأمر الى عبد الملك ...

ـ : ولكن عبد الملك لا يغضب أهله ..

ـ : هذا ما قلته لها لآن

فقالت ميمونة : خير لنا ان يكون الأمر كما ذكرت

فقال يحيى : ليكن ذالك

وفي مساء ذلك اليوم ، تمت الخطبة ، وكان محمد يهامس ام كلثوم قائلاً :

لو كان عيسى بن مصعب حياً لما تم شيء ..

★★★

مضى على رجوع عبد الملك الى دمشق ، بضعة اشهر ، وجيش الحجاج بن يوسف لم يخرج منها .

ذلك لانه عرض لعبد الملك ، من شؤون دولته ، ما صرفه عن اختيـــار الرجال وارسالهم الى الحجاز .

والحجاج صابر في الكوفة ، وهو على نار ، كما يقولون ، وقـــد تاقت نفسه الى الدماء .

وبنو عمرو بن سعيد ينتظرون خروج الجيش

وقد رحل يحيى الى مكة ، مع اهل بيته

حتى طابت نفس عبد الملك ، فوجه الى الكوفة الفي رجل ، وامرهم بان ينضموا الى الحجاج وكتب اليه يقول : لا تنس ما اوصيناك به ، وعليـــك ان تعرض الامان على ابن الزبير فان اطاع فتخل عنه ..

فلما دنا الجند من الكوفة ، خرج الحجاج ومن معه للقائه ، ومكثوا بالكوفة يومين ثم ساروا يريدون الطائف .

وخرج ، من الناحية الاخرى ، بنو عمرو بن سعيد ، ومعهم ميمونة ومحمد ، وبقي عنبسة في العراق

وقد اوصى بني اخيه ، كما اوصاهم يحيي ، بأن يتنحوا عن سياسة الدولة ، وسياسة البلاط ، على ان يظهروا دائماً ، بمظهر الأوفياء لعبد الملك

ومحمد وام كلثوم يعللان نفسيهما بالأمل

وكان خروج الجيش من الكوفة ، في شهر جمادي الاولى ، من السنة الثانية والسبعين

وقد نزل الحجاج الطائف ، ولم يعرض للمدينة ، وبدأ يرسل خيله الى عرفة ، وابن الزبير يرسل خيله اليها ، فيقتتل الناس هناك ، والظفر يبتسم دائماً لرجال

الحجـــاج

حتى مرت ايام كثيره وهم على هذه الحال

ولكن الحجاج كان قد ملّ القتال على ما وصفت ، وانه لقتال لا تسيل فيه الدماء ، كما يشاء ...

لقد كان يريد ان يقضي على ابن الزبير ، ويبني شهرته ومقامه ، في الدولة ، على جثث من حوله من الرجال

على انه لم يجسر على دخول الحرم الا اذا اذن له امير المؤمنين

فكتب اليه يقول : لقد ضعف أمر ابن الزبير وضعف اصحـــابه ، وقد يتفرقون عنه ، اذا حصرناه وضيقنا عليه المجال ، فمرني بان افعل ، وابعث الي بجيش آخر ابلغ به غاية امير المؤمنين .

فكتب اليه عبد الملك :

افعل ، وسأرسل اليك الجيوش رسلاً بعد رسل حتى تظفر

وكتب الى طارق بن عمرو ، وهو في وادي القرى : لقد أمرنا الحجـــاج بالزحف الى مكة ليحاصر عبدالله بن الزبير ، فاذا اتاك كتابنا فادخل المدينة ، واخرج عاملها ، واجعل عليها رجلاً من اهل الشام ، ثم الحق بالحجـــاج وكن عوناً له على قتال الرجل الذي يزعم انه خليفة المسلمين ...

فلما انتهى الكتابان الى صاحبيها ، مشى الحجاج زاحفاً الى مكـــة ، وغزا طارق المدينة ، ففر عاملها ، طلحة بن عبيدالله ، بن عوف ، لاجئاً الى مولاه

وولى طارق رجلاً من الشام يدعى ثعلبة ، فكان ثعلبة ، يخرج المخ، وهو على منبر النبي ، ثم يأكله ويأكل عليه التمر ، ليغيظ اهل المدينة

وكان ذلك في شهر ذي القعدة

ثم سار طارق الى مكة في ذي الحجة ، ووراءه خمسة آلاف رجل ، وانضم الى جيش الحجاج

اما الحجاج فانه قدم مكة ، في ذي القعـــدة ، ونزل بئر ميمون ، وحج بالناس في ذلك العام ، الا انه لم يطف بالكعبة ، وقد منعه ابن الزبير من ذلك

ولم يحج ابن الزبير واصحابه ، لانهم لم يقفوا بعرفة ، ولم يرموا الجمار ... ثم بدأ الحصار ...

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل ابي قيس ، وقعقعان ، ونواحي مكة كلها ، وجعل يرمي بحجارتها الكعبة والناس

وكان عبد الملك ينكر ذلك ايام يزيد بن معاوية فلما أمر به كان الناس يقولون : خذل عبد الملك في دينه ...

وحج في ذلك الزمن ، عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فأرسل الى الحجاج يقول له :

اتق الله ، واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فانك في شهر حرام ، وبلد حرام وقد قدمت وفود الناس من اقطار الارض ليؤدوا فريضة الله ، ويزدادوا خيراً ، والمنجنيق يمنعهم من الطواف

فأمر القائد رجاله بان يكفوا عن الرمي

حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا .. فلما فرغوا من طواف الزيارة ، نادى منادي الحجاج : انصرفوا الى بلادكم فاننا سنرمي بالحجارة ابن الزبير الملحد

وارسل المنجنيق حجارته الى الكعبة ..

فأبرقت السماء ، وملا صوت الرعود

فخاف اهل الشام وأمسكوا ايديهم ..

فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده ، فوضعها فيه ، ورمى بها معهم ، وهو يستخف بما رآه من مظاهر الخوف !

فلما اصبحوا ، جاءت الصواعق فقتلت من اصحابه اثني عشر رجلاً ، فذعر الجيش ، وتخلى الناس عن المنجنيق

فقال الحجاج : يا اهل الشام ، لا تنكروا هذا ، ولا تخافوا ، فاني ابن تهامة ، وهذه صواعقها ، وهذا الفتح قد حضر فابشروا

وكان اليوم الثاني ، فجاءت الصاعقة فأصابت من اصحاب ابن الزبير بضعة

رجال وأهل الشام يرون ذلك

فقال الحجاج : الا ترون انهم يصابون ، وانكم انتم على الطاعة ..

فزال خوفهم وعادوا الى الرمي

وكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو ساجد يصلي ، فلا يتحرك ، ولا يرفع رأسه ، ولا يكف عن الصلاة

وأقبل اليه في ذلك الحين قوم من الاعراب فقالوا : قدمنا لنقاتل معك

فنظر فاذا مع كل امرىء منهم سيف كأنه شفرة وقد خرج من غمده ، فقال لهم :

يا معشر الاعراب لاقربكم الله ، ان سلاحكم لرث وان حديثكم لغث ، وانكم لقتال في الجدب اعداء في الخصب

وغض طرفه عنهم فتفرقوا .. والمنجنيق لا يسكت ... والقتال لا يقف ، وقد اشتد الحصار ، وارتفعت اصوات الشكوى ..

وكانت عندئذ مجاعة لم ير مثلها أهل الحجاز حتى ان ابن الزبير ذبح فرسه وقسم لحمها بين اصحابه

وان بيوته لمملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً ...

وأهل الشام ينتظرون ان يفنى ما عنده ..

ولكنه كان يحفظ مؤونته ، ولا ينفق منها الا ما يمسك رمقه ورمق اصحابه ، وكان يقول : انفس اصحابي قوية بما في البيوت من طعام ومال

غير ان هذه الانفس لم تلبث حتى ضعفت ، وجعل الناس يتفرقون عنه ، ويخرجون بالامان الى الحجاج ، بينهم ولداه حمزه وخبيب وقد اخذا امانا !!

فقال لابنه الزبير : خذ لنفسك اماناً كما فعل اخوك فوالله اني لاحب بقاءكم

قال : ما كنت لارغب بنفسي عنك

فلما أقبل الليل ، جمع من بقي معه من قريش فقال : ما ترون ؟

فقال رجل من بني مخزوم :

والله لقد قاتلنا معك قتال يأس كما ترى حتى ضاع الرجـاء ، ولئن صبرنا ، ما نزيد على ان نموت ، وانما هي احدى خصلتين اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا ، واما ان نخرج ..

قال : لقد كنت عاهدت الله ان لا يبايعني احد فاقيله بيعته الا ابن صفوان

قال ابن صفوان : اما انا فاني اقاتل معك حتى اموت بموتك ، وتأبى علي المروءة والوفاء ، ان اسلمك في مثل هذه الحال

ثم قام رجل آخر فقال : اكتب الى عبد الملك بن مروان ..

فقال : أأكتب اليه : من عبدالله امير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان فوالله لا يقبل هذا ابداً ، ام اكتب : لعبد الملـــك بن مروان امير المؤمنين من عبدالله بن الزبير فوالله لئن تقع الخضراء على الغبراء احب الي من ذلك

فقال اخوه عروة بن الزبير ، وهو جالس معه على السرير : يا امير المؤمنين قد جعل الله لك اسوة

قال : من هو ؟

— : هو حسن بن علي ، خلع نفسه وبايع معاوية ...

فرفع رجله فضرب بها عروة حتى القاه عن السرير وقال : يا عروة ، قلبي اذن مثل قلبك ، والله ان ضربة بسيف في عز ، خير من لطمة في ذل .

وكان الحجاج يخطب بالناس ويقول : لقد رأيتـم ان القوم تفرقوا مـن ابن الزبير ، وقد بقي في طائفة قليلة يكتنفها الضيق والجهد ، فاذا اقبل الصباح ، فتقدموا فقد انتهى الأمر

واصبح ابن الزبير وهو لا يرى حوله غير بقية من قومه

فدخلت عليه احدى نسائه ، وهي ام هاشم بنت منصور بن زياد الفزارية ، فقال لها : اصنعي لنا طعاماً

فصنعت له كبداً وسناما

فأخذ منها لقمة فلاكها ثم لفظها ، ثم قال : اسقوني لبنا

فأتي بلبن فشرب منه

ثم اغتسل وتطيب .. ثم نام نومة وقام فدخل على امه اسماء بنت ابي بكر الصديق ، وكان يقال لها ذات النطاقين ، وهي عجوز عمياء فقال : يا اماه ، لقد خذلني الناس حتى ولدي وأهل بيتي ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده كثير من صبر ساعة ، وأهل الشام يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك

قالت : انت أعلم بنفسك . ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه اصحابك ولا يلعبن بك صبيان بني امية ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلكت نفسك وقتل من معك ... ثم قالت :

وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين .. يا عبدالله كم خلودك في الدنيا .. القتل احسن !!

فقال : يا اماه ، أخاف ان قتلني أهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني

قالت : يا بني ، ان الشاة لا تتألم بالسلخ .. ! فامض على بصيرتك واستعن بالله !!

فقبل رأسها وقال : هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا ما طمعت بالدنيا ولا احببت الحياة فيها ، وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله .. ولكنني أحببت ان اعلم رأيك ، فقد زدتني بصيرة ، فانظري يا اماه فانني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر الى الله فان ابنك لم يأت منكراً ولا فاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به بل انكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي اللهم لا اقول هذا تذكية لنفسي ولكني اقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني ..

قالت : اني لأرجو ان يكون عزائي فيك جميلاً ، ان تقدمتني احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك .. اخرج حتى انظر إلى ما يصير أمرك ...

— : جزاك الله خيراً يا اماه فلا تدعي الدعاء لي

— : لا ادعه لك أبداً ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . ثم رفعت يديها الى السماء قائلة :

اللهم ، ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبي .. اللهم قد سلمته الى أمرك فيه ورضيت بما قضيت ، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين ..

فتناول يديها ليقبلها ، فقالت : هذا وداع فلا تبعد

قال : جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا

قالت ادنُ مني حتى اودعك ..

فلما تعانقا ، وقعت يدها على الدرع فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

قال : ما لبستها الا لأشد متنك ..

— : خير لك ان تنزعها يا بني

فنزعها ، وشد اسفل قميصه وجبة خز كانت عليه ، وأدخل اسفلها تحت المنطقة وهي تقول له : البس ثيابك مشمرة

فخرج وهو يقول : اني اذا اعرف يومى اصبر ..

فسمعته فقالت : تصبر ان شاء الله .. ابواك ابو بكر والزبير

وكان اهل الشام قد امتلاءت منهم الابواب ، وهم يصيحون :

ويلك يا بن ذات النطاقين .. اقبل الامان وادخل في طاعة امير المؤمنين .

فحمل عليهم حملة فقتل بعضهم ثم دخل على امه فقال : سمعت ما يقول القوم وما يدعونني اليه من الامان ؟

قالت : سمعتهم لعنهم الله فما اجهلهم اذ يعيرونك بذات النطاقين ، وهم لو علموا ذلك لكان فخراً لك .

— : وماذاك يا اماه ؟

قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بعض اسفـــاره ، مع ابي بكر فهيأت لهما زاداً فطلبا شيئاً يربطانه به فما وجـداه ، فقطعت من مئزري لذلك ما احتاجا اليه .. فقال رسول الله :

اما ان لك به نطاقين في الجنة

فقال عبدالله :

الحمد لله حمداً كثيراً فما تأمرني به ؟

ـ : ارى ان تموت كريماً ولا تتبع فاسقاً لئيماً وان يكون آخر نهارك اكرم من أوله

فخرج ثم قال : ايها الناس ، ان الموت قد تغشاكم سحابه ، وهـــذه البلايا تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضاً واستعينوا بالصبر

ثم اقتحم القوم وجعل يقاتل وحده

وكان الحجاج قد جعل على كل باب من ابواب المسجد رجلاً من رجاله

جعل لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة ، ولأهـل دمشق باب بني شيبة ، ولأهل الاردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بني جمح ، ولأهـــل قنسرين باب بني تميم .

والحجاج ، وطارق بن عمرو ، من ناحية الأبطح الى المروة

فكان ابن الزبير يحمل مرة ، من هذه الناحية ، ومرة من الناحية الأخرى ، كأنه أسد في أجمة حتى يخرج الرجال عن مواقفها ، ثم يصيح : يا ابا صفوان ، يا له فتحاً لو كان له رجال او كان مصعب اخي حياً

وهو يخاطب عبد الله بن صفوان

فناداه الحجاج قائلاً : قد كان الك رجال فضيعتهم ..

وقد رأى الحجاج ان الناس لا يجسرون على الدنو من عبـــد الله ، فغضب ، وترجل ، واقبل يسوق الناس الى الأمام

وصاحب علم ابن الزبير ، واقف لا يتراجع ، وابن الزبير بين يديه يقاتـــل القوم ، حتى انكشفوا عنه

فعرج فصلى ركعتين عند المقام ..!

فحمل اهل الشام عندئذ على صاحب علمه ، فقتلوه عند باب شيبة ، وأصبح العلم بأيديهم ..

فلما فرغ عبد الله من صلاته ، تقدم فقاتل دون ان يعلم ان القوم قتلوا صاحب اللواء

وضرب رجلاً من اهل الشام وقال : خذها وأنا ابن الحواري

وضرب آخر وكان حبشياً فقطع يده وقال : اصبر يا ابن حام ..

وجعل ينظر الى ابواب المسجد والناس يهجمون عليه فيقول : من هؤلاء ؟ فيقال له : أهل مصر ..

فقال : قتلة عثمان ...

وحمل عليهم ففرقهم

فقال رجل من اهل الشام يقال له خلبوب :

أما تستطيعون ان تأخذوه بالأيدي ، اذا حول وجهه ؟

فقالوا له : تستطيع انت ان تفعل ؟

ــ : نعم

قالوا : افعل

فأقبل ، وهو يريد ان يحتضنه ، وعبد الله يرتجز ويقول : لو كان قرني واحداً كفيته ..

وقد رأى ان الشامي يريد ان يقبض عليه

فضربه بالسيف فقطع يده كما قطع يد الحبشي ..

فصاح متألماً ، فقال له : اصبر يا خلبوب ..

وكان عبد الله بن صفوان ، وعمارة بن حزم ، وعبد الله بن مطيع يتحاربون معه ، وابن مطيع يقول :

انا الذي فررت يوم الحره　　　والحر لا يفر إلا مره

واليوم اجزي فرة بكسره .

حتى قتل

فقال ابن الزبير لأصحابه وأهله :

اكشفوا وجوهكم حتى أنظر اليكم وعليكم المغافر

ففعلوا فقال : يا آل الزبير ، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله عز وجل .. فلا يرعكم وقع السيوف ، فان ألم الدواء للجراح ، أشد من ألم وقعها .. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، وليشغل كل امرىء خصمه ، ولا تسألوا عني فمن كان سائلاً عني فاني في الصف الأول ... احملوا على بركة الله ...

ثم حمل على الناس ، حتى بلغ بهم الحجون

فأصابه حجر في وجهه ، رماه به رجل من السكون ، فسال دمه ، فلما رأى الدم قال :

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعقابنا تقطر الدما

وكان يحيى بن سعيد في مكة ، وهو لم يقاتل ، فلما رأى ان الدائرة ستدور على ابن الزبير ، غادر مكة الى المدينة ، والكآبة تملأ صدره ، وقد أيقن بأن الأمر سيستقيم لعبد الملك

وقاتل عبد الله قتالاً شديداً لم ير رجل قاتل قتالاً أشد منه ، حتى كثر الناس حوله وتخطفته السيوف ..

وكان أسبق سيف اليه سيف رجل من بني مراد

فبكت احدى الجواري وصاحت قائلة : وا أمير المؤمنيناه..

ولكن الناس أبعدوها وحملوا رأسه الى الحجاج

فسجد وشكر الله

ثم مشى ، ومعه طارق بن عمرو ، حتى وقفا على الجثة ، فقال طارق : ما ولدت النساء اذكر من هذا

فقال الحجاج :

أتمدح عدو أمير المؤمنين ؟

قال : انا محاصروه منذ سبعة أشهر ، وهو في غير جند ولا عدة ولا حصن وقد انتصف منا ..

وبلغ الخبر بعد ذلك ، عبد الملك ، فقال : أصاب طارق

وقتل مع عبد الله ، ابن صفوان ، وعمارة بن حزم

وقد كبر اهل الشام فرحاً بقتله

فقال ابن عمر بن الخطاب :

لقد كبّر المسلمون فرحاً بولادته ، وهؤلاء يكبرون فرحاً بقتله

وبعث الحجاج برأسه ، ورأسي الرجلين اللذين ذكرنا ، الى المدينـــة ، ثم بعث بها الى عبد الملك في دمشق

وكانوا يقربون ، في المدينـة ، رأس ابن صفوان ، الى رأس ابن الزبير كأنه يهامسه وهم يلعبون بذلك

وأخذ الحجاج جثة عبد الله فصلبها بالحجون

فخرجت اليه أمه أسماء فقالت له : قاتلك الله على ماذا صلبته

قال : استبقنا نحن الاثنين الى هذه الخشبة ، فكانت له ...

قالت : أتأذن لي في دفنه

ـ : لا

ـ : ولكنك قضيت أربك منه

قال : ما ظنك برجل قتل عبد الله بن الزبير

قالت : حسبه الله

فأمر بها فأخرجت ، ووكل بالجثة من يحرسها على الخشبة

ثم طلب عروة بن الزبير ، بعد مقتل أخيه ، فقيل له انه قد فرّ

فكتب الى عبد الملك يخبره بصلب عبد الله ويقول: ان عروة كان مع اخيه ، فلما قتل أخوه أخذ مالاً من مال الله وهرب

ولكن عروة ، كان قد غادر مكة الى الشام ، على ناقة لم يرَ مثلها ، بعـــد أن خسر أخاه

وانتهى الى دمشق ، قبل وصول رسل الحجاج

فلما قيل لعبد الملك ان عروة بن الزبير بالباب ، لم يصدق

ثم أذن له ، فدخل عروة ، وسلم عليه بالخلافة

فرد عليه الخليفة أحسن رد ، ورحب به ، ثم عانقه وأجلسه معه على السرير وجعل يسأله عن الحجاز ...

حتى جرى ذكر عبد الله ، فقال عروة : انه كان ...

ـ : وماذا فعل اليوم ؟

قال : قتل ...

فقام فسجد كما فعل الحجاج

فقال عروة :

وان الحجاج صلبه يا أمير المؤمنين فهب جثته لأمه

قال : سنفعل فانزل الليلة على الرحب

وفي اليوم الثاني قدمت الرسل ، فكتب عبد الملك الى الحجاج يلومه على صلب عبد الله ، ويأمره بأن يخلي بينه وبين أمه

ثم رفع صوته قائلاً لغلامه : اكتب ان عروة لم يهرب كما قلت ، ولكنه أتانا مبايعاً وقد أمناه ، وحللناه مما كان ، وهو راجع اليك فاياك وعروة ، ثم استأذن عروة وانصرف عائداً الى مكة ، بعد أن غاب عنها ثلاثين يوماً ، ودفع الرسول كتاب امير المؤمنين الى الحجاج

فأنزل عندئذ جثة عبد الله عن الخشبة ، وبعث بها الى أمه وقد أذن لها في دفنها

وأرادت أسماء أن تغسلها ، فلما أصابها الماء تقطعت ، فغسلتها عضواً عضواً ، وصلى عليه أخوه عروة ثم دفن

وقال بعضهم : ان عروة عندما كان عند عبد الملك كتب اليه الحجاج يسأله ان يعيده الى مكة

فهم عبد الملك بانفاذه فقال له :

ليس الذليل من قتلتموه ولكن الذليل من ملكتموه .. وليس بلوم من صبر فمات ولكن الملوم من فر من الموت ...

فأصغى اليه الخليفة ثم قال : يا أبا عبد الله ان تسمع منا شيئاً تكرهه

وقيل : ان ابن الزبير لم يصل عليه أحد ، وذلك ما أراده الحجاج ، وكان يقول : انما أمر أمير المؤمنين بدفنه ، ولم يأمر بالصلاة عليه

وهنالك من يقول : ان عبد الله ألقي في مقابر اليهود ..

وعاشت أمه أسماء بعده قليلاً ثم ماتت ، وهي أم عروة أيضاً

فلما فرغ الحجاج من أمره ، دخل مكة ونادى مناديه : البيعة يا أهل مكة

فأقبل الناس فبايعوا

وأمر بغسل المسجد الحرام ، من الحجارة والدم ، ولم يلبث حتى سار الى المدينة ، وكان عبد الملك قد استعمله على الاثنين

وأقام بالمدينة شهرين ، أساء بها الى أهلها واستخف بهم وكان يقول لهم : أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان

ثم ختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم ، منهم جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعيد

وعاد بعد ذلك الى مكة

وقد قال حين خرج : الحمد لله الذي أخرجني من ام نتن أهلها ، أخبث بلد وأغشه لأمير المؤمنين ، وأحسده له على نعمة الله

فبلغ جابر بن عبد الله قوله فقال : ان وراءه ما يسوؤه وقد قال فرعون قبله ما قال ثم أخذه الله ..

***

٤٠

كان عمر ابن الزبير حين قتل ، اثنين وسبعين عاماً ، وكانت خلافته تسعة أعوام .

بويع في السنة الرابعة والستين ، وقتل في السنة الثالثة والسبعين

كان هنالك رجال من وجوه الاسلام لم يبايعوا ، ولم يروا إلا ان يكتبوا ببيعتهم الى عبد الملك ، قبل ان يبايعوا له الحجاج

من هؤلاء الرجال ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد ابن الحنفية ، وقد كتب عبد الله يقول :

لعبد الملك بن مروان من عبد الله بن عمر ، سلام عليك فاني أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله ﷺ ، وبيعة نافع مولاي ، على مثل ما بايعتك عليه

وكتب محمد بن الحنفية :

اني اعتزلت الأمة عند اختلافها ، فقعدت في البلد الحرام الذي من دخله كان آمناً ، لأحرز ديني ، وأمنع دمي ، وتركت الناس « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً » وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ونحن عصابة لا نفارق الجماعة ، وقد بعثت اليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك ميثاقاً ، ونحن أحق بذلك منك فان أبيت فأرض الله واسعة والعاقبة للمتقين

فكتب اليه عبد الملك :

بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك ، وللعصابة التي معك ، فلك عهد الله وميثاقه ، ان لا تهاج في سلطاننا لا غائباً ولا شاهداً ولا احد من اصحابك ما وفوا ببيعتهم

فان أحببت المقام بالحجاز ، فأقم فلن ندع صلتك وبرك ، وان احببت المقام عندنا فاشخص الينا فلن ندع مؤاساتك ، ولعمري ، لن الجأتك الى

الذهاب في الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعنا رحمك ، فاخرج الى الحجاج فبايع ، فانك انت المحمود عندنا ديناً ورأياً ، وخير من ابن الزبير وأرضى وأتقى ..

وكتب الى الحجاج : لا تعرض لمحمد أو لأحد من اصحابه

وجاء في كتابه :

جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الحرب ، واني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم « اي آل معاوية » لما قتلوا الحسين بن علي ..

ففعل الحجاج ما أمره به ، ولم يعرض لأحد من انصار علي

ثم كتب اليه كتاباً آخر يأمره فيه بأن يطلب عبيد الله بن قيس الرقيات الشاعر في بيته في مكة ، ويبعث به اليه

وكان يظن انه مستخف في مكة او في بلد آخر في الحجاز ، لأن بشراً أخاه ، والي الكوفة ، خبره انه لم يقف له في الكوفة على أثر

فجعل الحجاج يرسل الشرطة كل يوم ، في طلب ابن قيس ، في منزله وفي الحي ، وفي الشعاب والجبال ، وهم لا يجدونه ، ولا يقول لهم احد انه رآه

وكان ابن قيس ، قد أقام بالكوفة ، في منزل تلك المرأة ، التي ذكرناها لك فيما سبق ، اكثر من عام

وهي تقيم له ما يصلحه ، وتغدو عليه في كل صباح تسأله عن حاجته ، دون ان تسأله من هو ...

وهو لا يسألها من هي .

وكان يسمع كل يوم ، صياح المنادين ورجال الشرطة فيه ، وهم يذكرون الجوائز لمن يدلهم على مكانه

حتى طال به المقام ، ومل الاستخفاء

وكان قد فقد الصياح فيه ، وأيقن بأن أمير الكوفة وصاحب الشرطة ، أهملا أمره .

فغدت عليه المرأة تسأله بالصياح والحاجة ، فقال : لقد مللت ، وأحببت

الرحيل الى اهلي ، فقالت : نأتيك بما تحتاج اليه ان شاء الله
فلما امسى ، ومد الليل رواقه ، اقبلت تقول : اذا شئت
فنزل ، وقد اعدت له راحلتين ، عليهما ما يحتاج اليه .. ومع الراحلتين عبد
وقد اعطت العبد نفقة الطريق وقالت لعبد الله :
العبد والراحلتين لك .
فودعها وخرج ، ثم ركب وركب العبد معه يريدان مكة
وهما يستخفيان في النهار ، ويمشيان عندما يجن الظلام
حتى انتهى الى منزله في مكة ، وبابه مغلق
فقال اهله من الداخل : من هذا ؟
قال : عبيدالله بن قيس
فولولوا وبكوا وكانوا يقولون : ما فارقنا طلبك الا في هذه الساعة
فأمرهم بالسكوت ، وأقام بينهم حتى طلع الفجر
ثم نهض ومعه العبد حتى قدم المدينة ، واتى دار عبدالله بن جعفر ، بن ابي طالب عند المساء ، وهو يمشي اصحابه .
فجلس معهم وهو يتظاهر بانه من الاعاجم
فلما خرج الناس ، قبل بن جعفر ليتبين وجهه
فكشف له عنه ، فتراجع قائلاً : ابن قيس ؟
ـ : نعم يا مولاي ابن قيس ، وقد جئت عائذاً بك
قال : ويحك ، ما أجدهم في طلبك وأحرصهم على الظفر بك
ـ : ولكني أتيتك الآن وانت قادر على ان تحميني او تشفع في
قال : اجلس
وأطرق ملياً لا يقول كلمة ، ثم رفع رأسه قائلاً سأكتب الى ام البنين ، بنت عبد العزيز بن مروان ، فهي زوجة الوليد بن عبد الملك
ـ . وما تصنع ام البنين ؟

ـ . ان عبد الملك لا يرد لها كلمة وسأكتب اليها الليلة

وقام فكتب الى عبد العزيز يسأله ان يكتب الى ابنته كتاباً يأمرها فيه بان تشفع الى عمها ، لابن قيس ، وقال لعبيدالله :

نرسل هذا الكتاب الى عبد العزيز غـــداً ، ثم نصبر شهراً ونكتب الى ام البنين

وبعث بالكتاب عند الصباح

ثم كتب بعد شهر الى زوجة الوليد يسألها الشفاعة

وحمل الكتاب ، ابن قيس نفسه

وكان يخاف ، وهو في طريقه الى دمشق ، ان يقبض عليه ، ويحمل الى عبد الملك قبل ان يدفع اليها الكتاب

حتى دخل دمشق في احدى الليالي ووقف بباب ام البنين

ولم يجسر أولاً ، على ان يسأل الحجاب ان يأذنوا له في الدخول

ولكنه ملك روعه بعد ساعة وقال : معي كتاب لا اسلمه الا الى أم البنين زوجة الامير

فأذنت له

وكان ابوها قد كتب اليها يوصيها بابن قيس

فلما قرأت كتاب ابن جعفر قالت للشاعر : امكث هنـــا وسأرى امير المؤمنين غداً قبل ان يجلس للناس

وأمرت فجعلوه في دار الاضياف

فلما كان الصباح ، دخل عبد الملك على ام البنين كما كان يفعل وقال لها : هل من حاجة ؟

ـ . نعم ، لي حاجة يا أمير المؤمنين

قال : قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات

قالت : لا تستثن علي شيئاً

فأهوى بيده ، فأصاب خدها

فوضعت يدها على خدها وأطرقت .

فابتسم قائلا : يا ابنتي ، ارفعي يدك فقد قضيت كل حاجة لك وان كانت ابن قيس الرقيات .

قالت : ان حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه

ـ . ومن طلب اليك ان تشفعي فيه ؟

ـ . ابي ، فقد كتب الي يأمرني بأن اسألك ذلك

قال : وهو في دمشق ؟

ـ . نعم

ـ . اذن مريه يحضر مجلسي العشية

فلما بلغ الناس مجلس عبد الملك ، حضروا وحضر ابن القيس فأخر عبد الملك الاذن .

ثم أذن للناس ، وأخر اذن ابن قيس حتى اخذوا مجالسهم .

ثم قال لحاجبه : أبقي أحد ؟

ـ . نعم يا أمير المؤمنين ، بقي رجل لا اعرف من هو

ـ . مره بأن يدخل

فلما توسط القاعة وسلم ، قال عبد الملك : يا أهل الشام ، اتعرفون هـذا ؟

قالوا : لا

قال : هذا عبيدالله بن قيس الرقيات الذي يقول :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام إغـارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خـدام العقيلة العـذراء

فقالوا : يا امير المؤمنين اسقنا دم هذا المنافق .

قال : الآن ؟ وقد امنته وصار في منزلي وعلى بساطي ؟ قد أخرت الاذن له لتقتلوه ، فلم تفعلوا

فقال ابن قيس : اتأذن لي يا امير المؤمنين ان أنشد

قال : افعل

فأنشده قصيدته التي مطلعها :

عاد له من كثيرة الطربُ فعينـه بالدموع تنكسب

حتى قال فيها :

ان الاغـــر الذي ابوه ابو العاصي عليه الوقار والحجبُ
يعتدل التاج فوق مفرقـــه على جبين كـــأنـه الذهب

فقال الخليفة :

يا ابن قيس ، تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب :

انمـا مصعب شهـاب من الله تجلت من وجهه الظلمـــاء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء؟؟

ثم قال : اما الامان فقد سبق لك ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطـاء ابداً .. قم فاخرج ، وارجع الى بلدك .

فخرج يتعثر بخيبته ، ورحل من ساعته لا يلتفت وراءه حتى قدم المدينة ، ودخل على عبدالله بن جعفر

فقال عبدالله : رجعت وانت آمن ؟

ـ . نعم يا مولاي ، ولكن ما نفعني أماني

ـ . وماذا جرى لك

ـ . تركت حياً كميت لا آخذ مع الناس عطاء ابداً

واعاد عليه قول عبد الملك ، فقال : كم بلغت من السن يا عبيدالله ؟

ـ . ستين عاماً

قال : فعمر نفسك

قال : عشرين سنة تستقبلنا فذلك ثمانون سنة

ـ . وكم عطاؤك ؟

ـ . الفا درهم كل عام .

فقال لغلامه : امرنا بأربعين الف درهم لأبن قيس الرقيات ، نعطيه منها في كل سنة الفين ، الى ان يموت ثم قال له :

نعم لك علي ذلك ما بقيت

فقال عندئذ من قصيدة يمدح ابن جعفر :

تعدت بي الشهباء نحو ابن جعفر ... سواء عليها ليلها ونهارها

تزور مروءاً قد يعلم الله انه ... تجود له كف بعيد غرارها

اتيناك نثني بالذي انت اهله ... عليك كما يثني على الروض جارها

فوالله لولا ان ازور ابن جعفر ... لكان قليلاً في دمشق مزارها

اذا مت لم يوصل صديق ولم تقم ... طريق من المعروف انت منارها



٤١

أتبقى في العراق يا عم ؟

ـ . اجل اني باق ، فالعراق والحجاز ، امسيا ، بعد مقتل ابن الزبير ، خاضعين لعبد الملك بن مروان ، كما ترى

ـ . وعمي يحيى ؟

ـ . اما عمك الآخر يا امية فلا اظن انه يعود الى دمشق

ـ . لقد امرتنا ، منذ بضعة اشهر ، بأن نبقى في الكوفة ريثما ينتهي امر ابن الزبير ، ففعلنا ، وكنت تقول ان عمنا سيعود

ـ . قلت ذلك لأني لم ارَ ان ترجعوا الى دمشق في ذلك الحين

ـ . والآن ؟

ـ . اما الآن فالأرض كلها ارض ابن مروان كما قلت فاختاروا لأنفسكم بلداً تقيمون به .

ـ . لقد امرنا عبد الملك بالعودة الى دمشق ووعدناه

ـ . وانا كذلك قد وعدته ، ولكنني لن اعود

ـ . واذا كتب اليك يأمرك بان تفعل

ـ . انه لا يكتب ، وهو يؤثر بقاءنا في الكوفة ، على الاقـامة في دمشق ، بالقرب من بلاطه

ـ . وكيف عرفت هذا يا عم ؟

ـ . لم يقله لي احد ، ولكنني استطيع ، كلما جالست عبد الملك ، ان اقرأ ما في نفسه .

قال : لقد احسن الينا ، وآذن لنا في الدخول عليه في اول الناس

ـ . وسيحسن الينا ايضاً اذا انتقلنا الى الشام ولكن ذلك لا يكفي

ـ . وأي شيء تريده منه ؟

ـ . اريد ان يولينا امور دولته كما يولي غيرنا من الناس ، وفي هذا وحـده يثبت رضاه عنا ووثوقه بنا

وهل يستطيع الخليفة ان يولى جميع المسلمين ؟

ـ . انه يستطيع ان يولي من يشاء ، من رجال السياسة والإدارة والشرف ، ونحن من هؤلاء

ـ . قد يفعل ذلك يا عم

ـ . لو اراده لفعل

فقال سعيد : اذن يجب ، ان يكون النـاس ، الذين لم يولهم عبـد الملك خصوماً له

ـ علي بنفسي ، وليفعل الناس ما يطيب لهم

ـ . أخشى ان يسألنا عبد الملك عنك فنجيبه جواباً لا يرضيه

ـ . قلت انه يؤثر بقائي في الكوفة ، وستروں

ثم قال :

وستقولون له : من كان في ظـل أخيـك الامير بشر فهو في ذلك ، وقـد طابت الاقامة بالعراق لعمنا عنبسة

فالتفت سعيد الى امه كأنه يسألها رأيها فقالت : لم يبق هنالك موضع للتهمة يا بني ، ان بلاد العرب اليوم تخضع لخليفة واحد هو عبد الملك،وليحيى وعنبسة ان يقيا بالبلد الذي يريدان

ـ . اعرف هذا

ـ . وهل بقي شيء لا تعرفه ؟

ـ . اجل اني لا اعرف العذر الذي سنذكره لعبد الملك

فقال عنبسة :

يكفي ان يعلم عبد الملك اني خاضع له ولم اخرج عن الطاعة واني مسلم ، ارحل الى المكان الذي اشاء ، واغادره عندما اشاء ، وشأني بذلك شأن جميع المسلمين

فقالت ولادة : لقد انتهينا من هذا الآن وبقي أمر آخر

ـ . ما هو ؟

ـ . هو انه لا بد لك من المسير الى الشام في العام المقبل

ـ . لماذا ؟

ـ . لأن ام كلثوم ستزف الى محمد

ـ . في مثل هذه السرعة ؟

ـ . اجل ، او في العام الذي بعده

قال : اما الزواج فسأشهده ، وسأسير الى دمشق عندما تدعونني اليها دون ان اردد في الأمر

فقال سعيد : على ان تمثل بين يدي عبد الملك ، عند وصولك

ـ : ذلك أمر لا بد منه .. ولكني أريد ان أعلم اسباب اهتمامك لامر عبد الملك قاتل أبيك

ـ : إني أهتم لكرامة البيت الذي انا احد ابنائه .. لقد قتل الرجل ابي كما

قلت فلم نحاول ان نثأر بقتيلنا لاننا اعجز عن ذلك .. ثم دانت الارض كلها له ولم يبق لنا مرجع نعود اليه ، افتريد ان نقضي العمر كله غرباء في بلادنا ، اذلاء في ديارنا ينظر الينا الناس نظرهم الى من لا شأن لهم ؟

— . إذن أنت تلجأ إلى السياسة والدهاء في الاستسلام الى ابن مروان ؟

— . اجل .. وإني أريد ان يراني النـــاس، ويروا عمي واخوتي ، كما كانوا يرون أبي ، وهذا لا يتم لي الا اذا ادناتا عبد الملك منه كما فعل

فدمعت عينا عنبسة وقال : كنت اقول ذلك لابيك فلم ير الا أن يجـاهر بالعداوة ويحمل السيف في وجه الجالس على عرش الخلافة.. ان لك رأياً يا بني، بارك الله فيك

قال : حمل السيف ، ثم تم الصلح بين الاثنين

— . نعم ، ولكنه صلح غريب ، كتمناكم اياه كما كتمناه جميع النـاس ، غير ان عبـــد الملك باح به لمن حوله من رجال دولته ، وتحدث به اهل الشام بعد ذلك

قال : كتاب الصلح مع امي وانا لا اريد ان أسألها عنه

قالت : جعلته في اكفان ابيك ليخاصم به عبد الملك عند ربه .

— : اذكر لي يا عم ما جاء في الكتاب

ـ : انها ذكرى مؤلمة لا يطيب لنا ان نتحدث بها الآن

ـ : بل تذكر كل شيء ، فقد مر على حادث القتل اكثر من اربعة اعوام ، وامسى بنوا أخيك رجالا يعرفون الحياة

قال : الا تعلم كيف عاد ابوك الى دمشق ، واغلق ابوابها ، وادعى انه احق بها من عبد الملك ؟

ـ : بلى اعلم ذلك

ـ : كما انك تعلم كيف رجع عبد الملك وحاصر اهل دمشق ، حتى تم الصلح

ـ : نعم

قال : واما كتاب الصلح فلم يكتب مثله في الاسلام .. لقد عاهد عبد الملك

اباك على انه الخليفة بعده ، وان له ، اي لأبيك ، مع كل عـــامل من عمال الدولة، عاملا يرجع اليه في اموره ، وهذا هو موضوع الغرابة

ـ : وبعد ذلك

ـ : فتحت دمشق ، وكان بيت المال بيد ابيك ، فارسل اليه عبـــد الملك يأمره بان يخرج للحرس ارزاقهم فقال له : اذا كان لك حرس فان لي حرسا مثله

فقال عبد الملك : اخرج لحرسك ايضاً أرزاقهم

ففعل ، ثم بعث عبـد الملك رسولا يدعوه الى الخضراء ، فقالت له امك لا تذهب فاني خائفة ، فقال لهـا : والله لو كنت نائماً ما ايقظني .. ثم خرج وكانت الجريمة التي عرفت ..

فبكت ولادة قائلـــة : اي والله تصديت له وكنت أصيح وأقول: لا آمن عليك عبد الملك، فضربني بقائم سيفه ثم ذهب، وكان ذلك آخر العهد به رحمه الله

فسكت الفتى قليلا ثم قال : أخطأ ابي نعم ، ولكن كان بينهما عهد نكثه عبد الملك وغدر ، وقد مضى الان ما مضى فخير لنا ان لا نفكر فيه

وكان في الدار عبـد يروح ويجيء ، وهو يسمع ما يقال وهو من عبيد بشر بن مروان ، أهداه الى القوم ، بأمر اخيه امير المؤمنين ، يحصي عليهم الانفاس، وينقل الى مولاه ، ما يتحدثون به

وامير الكوفة بدوره ينقله الى عبد الملك ...

وكان يتظاهر ، بانه لا يبالي الا بالحاجات يقضيها لاصحاب الدار

وولادة وبنوها ، واثقون باخلاصه ، معجبون بطاعتـــه وهدوئه ، حتى انهم كانوا يتحدثون وهو حاضر بما لا يتحدثون به أمام غيره من العبيد والغلمان

والعبد خبيث داهية ، يبدو حيناً ثم يختفي وراء الجدر ، ليسمع كل كلمـة يتهامس بها القوم

وكان في تلك الساعة ، يصغي الاصغاء كله لا يفوته شيء

حتى قال سعيد بن عمرو للفتى الكناني : ما ترى يا محمد ؟

قال : انظر الى الأمر من ناحيتين

قال : الاولى

ـ : اما الاولى فاذا قدرتم فاخلعوا عبد الملك عن العرش ، لأن الغدار لا يصلح للخلافة ، واعهدوا في امور الاسلام الى رجل آخر من بني امية

قال : من يقدر على ذلك والعرب كلها تخضع له ؟

ـ : اذن فارضوا بما قسم الله لكم ، واصبروا على ما انتم عليه ، حتى يبسم لكم الزمان

ـ : أصبت ، وانا لمكرهون على الصبر

ثم قال لأمه : متى تأمرين بالرحيل ؟

ـ : بقي من العام شهر نقضيه في الكوفة ثم نرحل . ألا ترين رأيي يا أم محمد ؟

فقالت ميمونة : اني اخاف عبد الملك ولا أعلم لماذا

قالت : ليس هنالك سبيل الى الخوف ، لأنك لا تعرفين الرحل ، وليس بينه وبين بني كنانة ثأر

ـ . ومع ذلك فأنا اضطرب كلما ذكرت دمشق

ـ . دعي هذا الاضطراب لي

فقال محمد :

قد نقضي العمر كله دون ان نرى لعبد الملك وجهاً

ـ . وقد يندبك الى حرب عندما يعلم انك في دمشق

ـ . وتخافين الحروب ، وأبي كان من فرسانها وحامل لواء كنانة ؟

فمسحت دموعها قائلة : يكفي ان تعلموا اني خائفة ، ولا اقول غير هذا ..

فجعل الفتى يمازحها حتى ابتسمت ، ولكن ابتسامتها لم يشارك فيه القلب ..

وكان النعاس قــد دب في الجفون ، فانصرفت ميمونة ومحمـد ، وخرج العبـد ، بعـد ان استسلم القوم الى الكرى ، ليقص على بشر بن مروان ما سمعت اذناه ..

★★★

٤٢

قبل ان تنتهي السنة الثالثة والسبعون ، خطر لعبـد الملك ، ان يغير بعض عماله ، ويندب بعض الرجال ، الى قتال الخوارج ، والى الغزو

فكتب الى اخيه بشر يقول : لقد وليناك البصرة وعزلنا خالد بن عبد الله

فاجتمع لبشر ، البصرة والكوفة

واستعمل عبد الملك ، اخاه الآخر محمـداً ، على الجزيرة وارمينية ، وامره بأن يغزوها حتى تدين له

وأرسل الى عمر بن عبيد الله بن معمر ، ان يندب الناس ، من اهل البصرة والكوفة ، الى قتال ابي فديك الخارجي ، في البحرين

ففعـل ابن معمر ما امره به ، وســـار حتى التقى أبا فديك ، فحملت الرجال على الرجال ، ودارت الدائرة على الخارجي ، فقتل ، واستباح جنود الخليفة جيشه

وقد قتل من رجاله ستة آلاف

وحج بالناس في ذلك العام ، الحجاج بن يوسف ، وهو امير مكة ، واليمامة ، واليمن

وقبل ان يحج ، ضرب احدهم قدم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، بزج رمح مسموم ، فانطرح مريضاً

فأقبل الحجاج يعوده فقال : من فعل بك هذا ؟

قال : انت ، لأنك أمرت بحمل السلاح في بلد لا يحل حمله فيه ...

فخرج الحجاج دون ان يقول كلمة

ومات ابن عمر ، وبين موته ومقتل ابن الزبير ، ثلاثة اشهر ، وعمره سبع وثمانون سنة

واقبلت السنة الرابعة والسبعون، فخرج آل عمرو بن سعيد ، وآل عبد الله بن عزيز الكناني ، من الكوفة ، يزيدون دمشق

وخرج في الوقت نفسه من قصر بشر بن مروان ، رسول يحمل من الأمير ، كتاباً الى عبد الملك ، ذكر له فيه حديث آل عمرو بن سعيد ، ولفت نظره ، بصورة خاصة الى محمد الكناني القائل :

« اذا قدرتم فاخلعوا عبد الملك عن العرش لأن الغدار لا يصلح للخلافة » ..

وجاء في الكتاب : ان القوم رحلوا الى دمشق ، والعبد معهم فافعل ما تراه

ودفع الرسول كتاب بشر الى امير المؤمنين قبل ان يدخل القوم دمشق

فقرأ الكتاب ، قبيصة بن ذؤيب ، ثم دفعه الى عبد الملك

وكان الخليفة قد أذن لقبيصة في ذلك ، فلما قرأه عبد الملك ، قال في نفسه : هذا الفتى الكناني الذي أحسنا اليه ؟!

ثم ابتسم وقال لابن ذؤيب :

حديث فتيان لا نبالي به ، ونحن نلوم اخانا بشراً على اهتمامه به

ثم نادى مولاه ابا زرعة كاتبه على الرسائل ، وقال له : احفظ هذا الكتاب واعلم انه سيجيء يوم نسألك فيه عنه ..

ثم قال : اكتب الى اخينا بشر :

اذا اتاك كتابنا فاخرج الى البصرة ، وابعث المهلب الى حرب الخوارج في طائفة من اهلها ووجوهها ينتخبهم هو ، وارسل من اهل الكوفة رجلا شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف ، ومرهم بأن يتبعوا الخوارج

ابن كانوا حتى يهلكوهم

فكتب ابو زرعة ما أمره به ، فقال : اكتب الى المهلب وخبره بذلك الفعل ، فقال : واكتب الآن الى الحجاج ان يهدم بناء الكعبة الذي كان ابن الزبير قد بناه ، ويعيدها الى البناء الاول

ودعا الريان قائد حرسه وقال : ان آل عمرو بن سعيد ، يدخلون دمشق ، بعد يوم او يومين ، فاذا دخلوا فخبرنا

فعهد الريان الى رجلين من حرسه ، في قضاء هذه المهمة

ورجع بعد ثلاثة ايام يقول : لقد اقبل القوم يا امير المؤمنين

ـ . اليوم ؟

ـ . في هذه الساعة

ـ . ومن معهم من الناس ؟

ـ . طائفة من العبيد والغلمان ، وفتى لا اعرف من هو

فأمره بالانصراف وكان يقول في نفسه : يسيرون الى دارهم دون ان يعرجوا على الخضراء ...

وجعل يتمشى وهو مضطرب ..

ولكنه قبل ان يستسلم الى ظنونه ، دخل حاجبه فقال :

بنو عمرو بن سعيد بالباب

فأشرق وجهه قائلا : أذنا لهم

فدخل امية ، وسعيد ، واسماعيل ومحمد الكناني

اما محمد بن عمرو فلم يجيء

ثم سلموا بالخلافة

فابتسم عبد الملك ابتسامة الدهاء وقال : متى قدمتم ؟

فقال سعيد : الآن يا امير المؤمنين

ـ . وأين اخوكم محمد ؟

ـ . تقدم النوق الى الدار وأتينا نحن

وكان الداهية يعلم ، ان يحيى في الحجاز ، وعنبسة في الكوفة ، ولكنه تظاهر بأنه لا يعلم ، فقال :

ويحيى وعنبسة ؟

ـ . اما يحيى ففي ارضه في الحجاز ، واما عنبسة فباق في الكوفة

قال : لقد آثر الحجاز والعراق على الشام ...

ـ . الحجاز والعراق والشام جميعها لأمير المؤمنين ...

ـ . اجل ، ولكن امير المؤمنين لا يطلب ارضاً ، بل يطلب قلوباً تخفق على الاخلاص والوفاء له ..

ـ . ان الاثنين من اوفى الناس لك ...

ـ . وهما في الوقت نفسه ابعد الناس عنا . أفلا ترى كيف تركا دمشق ، وهي البلد الذي نشأا فيه ، ليظلا بعيدين عن الخضراء ؟

قال : ايأذن لي امير المؤمنين في ان اقول ما اعلم ؟

ـ . قل ما تعلم

قال : بلاد العرب فسيحة الأرجاء واسعة ، وتتبعها بلاد أفسح وأوسع ، جميعها خاضعة للخليفة

ـ . نعم

ـ . وفي كل قطر من هذه الأقطار التي ذكرت ، رجال اوفياء مخلصون للخلافة ، أليس الأمر كذلك ؟

ـ . بلى

ـ . وان امير المؤمنين لا يأمر هؤلاء المخلصين الأوفياء بأن يأتوا الشام ويقيموا بدمشق ..

فضحك قائلا : كما انه لا يأمر يحيى وعنبسة بأن يجيئا ، ولا يخطر له ان يجعل دمشق مقاماً لكل مخلص ... ولكنك نسيت ان امير المؤمنين ، أمر بابعاد الاثنين ، منذ زمن ، ثم أذن لهما ، وهو في الكوفة في ان يرجعا الى البلد الذي طردا منه ؟..

ـ : يعلم امير المؤمنين اني لم انسَ ..

ـ . اذن كان عليها ان يعودا ، على الأثر ، ويستأذنا امير المؤمنين بعد ذلك ، في الرحيل الى حيث يريدان

فحاول ان يجيب ، فأسكته قائلاً :

لا ترد ، فأنت اضعف من ان تخلق عذراً لعميك . اننا راضون عنك وعن اخويك ، وليس عليكم الا ان تنظروا ، الى هذا الرضى ، بعين الاحترام والحكمة ...

ثم قال : ورضينا عن عنبسة ويحيى ، وطلبنا اليهما ، ان كنت تذكر ، ان ينسيا ما مضى ، فلم يكترثا لنا ، وهذا دليل على انهما لم ينسيا .. ألا تريد ان يظن امير المؤمنين ان الوفاء هو الذي أملى عليهما البقاء في الحجاز والعراق ؟..

فظل الفتى ساكتاً ، فقال عبد الملك : تكلم يا سعيد

قال : لم اقل ان الوفاء هو الذي دعاهما الى البقاء ولكني قلت ان يحيى ينظر ، وهو في الحجاز ، في أمر ضياعه وامواله ، وقد طابت الاقامة بالعراق لعنبسة ، فهو يعيش في ظل الامير بشر ، الذي هو ظل امير المؤمنين

قال : تريد الدفاع عن الرجلين ولكنك لا تحسنه ... وانت يا امية ، اي البلدين احب اليك ، دمشق ام الكوفة ؟

ـ . لو كانت الكوفة احب الي لبقيت فيها

ـ . وفي اي شيء تستحق دمشق هذا الحب ؟

ـ . انها وطني ، ووطن ابي وامي ، وقد نشأت في جناتها ، ولعبت في رياضها ، ونشقت اريج ازاهرها ... وهي عاصمة الخلافة ، وبها يقيم امير المؤمنين ...

قال : لقد ورثتم فصاحة اللسان .. وانت يا اسمعيل ، كيف ترى دمشق ؟

قال : دمشق دار العظمة والعز . والامان .. والرخاء .

ـ . وتستطيع ان تجد عذراً لعميك عنبسة ويحيى

ـ . يكفي ان يعلم امير المؤمنين ان الاثنين على الطاعة

ـ . ولكنهما لو استطاعا ان يخرجا عنها ، لفعلا ..

وكان محمد مطرقاً ، وعبد الملك ينظر اليه بعينين كعيني النمر ، ثم قال له :

رأيناك في الكوفة ونسيناك .. فمن انت ؟

فذكر له الفتى اسمه ونسبه ، فقال : في الشام طوائف من كنانة تمشي مع امير المؤمنين الى الموت ولا تبالي ، فهل انت منهم ؟

ـ . نعم يا امير المؤمنين ..

ـ . ولكن اباك لم يكن على دعوة بني امية ..

ـ . انه لم يكن على دعوة بني حرب ..

ـ . وكان يقول : اخلعوا المغتصب عن العرش ...

ـ . من قال لك ذلك يا امير المؤمنين ؟

ـ . لا يسأل امير المؤمنين عن القائل .. أ كان ابوك يقول هذا ؟

ـ . لا اعلم فقد قتل ابي وانا في العاشرة من العمر

ـ . اجل ، قتل مع سليمان بن صرد ، في عهد امير المؤمنين مروان ، الذي لم يكن في نظر ابيك اهلا للخلافة ...

قال : ارى امير المؤمنين يأمر بنسيان الماضي ثم يسأل عنه

ـ . اردنا ان نذكر امر الخلع الذي كان يتحدث به أبوك ، لأننا نخشى ان تكون هذه الفكرة قد انتقلت اليك بالارث ...

ـ . ان ابي لم يكن قادراً على خلع الخلفاء .. اجل كان من المتشيعين لعلي ، ولكنه كان اضعف من ان يخلع خليفة ويولي آخر ..

ـ . اي انه لو كان قادراً لما تردد في ذلك ..

ـ . لا اعلم شيئاً من هذا .

وقد نسي الفتى ، في تلك الساعة ، تلك الكلمة التي قالها للقوم في الكوفة

فقال عبد الملك : ولكن اباك قد مات ، وليس لنا ان نأخذ الابن بجريرة أبيه .. قل الآن لماذا تركت العراق ؟

ـ . لأني عاهدت نفسي ، على الاقامة بالبلد الذي يقيم به هؤلاء

واشار الى امية واخوته

ـ . واذا ساروا الى الصين ؟

ـ . اسير معهم دون ان اتردد

قال : هؤلاء من المخلصين لنا كما ترى ..

ـ . وأي شأن للاخلاص فيما اقول يا امير المؤمنين ؟

قال : اسمع ، ان المخلصين للعرش لا ينزلون ولا يرحلون الا بأمر أمير المؤمنين ، فاذا كنت انت مثلهم فارادتك لنا وليست لك ..

ثم قال للفتيان الثلاثة :

ألستم أنتم كذلك ؟

فقال سعيد : بلى يا مولانا

ـ وتسيرون الى حيث نشاء ؟

ـ . نعم

ـ . وتحملون السيف اذا ندبناكم الى القتال ؟

ـ . اذا رآنا امير المؤمنين اهلاً لذلك فعلنا

ـ . وانت يا محمد ؟

ـ . افعل ما يفعلون

فنهض قائلاً لغلام له : ليحضر رجاء بن حيوة

فلما اقبل قال له :

اعط كل واحد من هؤلاء عشرة آلاف .. وقال لهم : انصرفوا الآن ، ولكم ان تشهدوا مجلسنا كل يوم ..

فخرجوا شاكرين ، وهو يشيع الفتى الكناني ، الذي يريد ان يخلع الخليفة الغدار ... بعينين ترسلان لهيب النار .

انتهى الجزء الاول

ويليـــه :

حيَلُ الخلفاء
أو – الى القـيروان
أو – محمد في الأسر
أو – أســير البربر

الجزء الثاني

من روايـــة

محمد وأم كلثوم

خلاصة ما قرأت في ـ محمد وأم كلثوم ـ

وصفنا لك في الصفحات الاولى ، شخصيتين بعيدتي الأثر في الاسلام همـــا خليفة الشام ـ عبد الملك بن مروان ـ وخليفة الحجاز ـ عبد الله بن الزبير ـ وقرأت في تلك الصفحات ، اقدام المختار بن ابي عبيد الثقفي ، امير الكوفة ، وقتل معظم الرجال ، الذين اشتركوا في مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ،

ـ بطل الرواية كما رأيت ، محمـــد بن عبد الله بن عزيز من اشراف بني كنانة ، قـتِل ابوه عبد الله في الكوفة ، وعينه تراه ، وهو في العـــاشرة من العمر ، وكان العراق يومئذ خاضعاً لابن الزبير وقد استعمل عليه أخاه مصعباً لقتل المختار ، وكان عبد الملك ، من الناحية الاخرى ، قد ذبح بيده (عمرو بن سعيد بن العاص) وهو في مجلسه ، ونفى اسرته وأخويه الى الكوفـــة ، بينهم ابنته ام كلثوم ، والناس في العراق فريقان ، هذا هواه في عبد الملك ، وهـــذا ثار عليه ابن الزبير .

ـ أحب محمد ام كلثوم وأحبته ، وأقسما على ان يفي الواحد منهما للآخر ، وخرج عبد الملك من دمشق في ذلك الحين ، الى قتال مصعب في العراق فظفر به ، وولى الحجاج بن يوسف حرب عبد الله بن الزبير في مكة ، وقبل ان يعود الى دمشق ، عفا عن بني عمرو بن سعيد ، وأمرهم مع محمد الكناني ، الذي خطب ام كلثوم ، بالرجوع الى عاصمة الخلافة ، وكان قد بلغه من اخيه بشر بن مروان ، ان محمداً كان يقول : ان عبد الملك الغدار لا يصلح للعرش ...

ولم يلبث الحجاج حتى حاصر الكعبة وانتهى الحصار بمقتل ابن الزبير ، ودانت العرب لعبد الملك ، فكتب ، وهو في دمشق ، الى اخيه بشر عامـــل الكوفة ، يوليه البصرة ايضاً ، ويأمره بأن يبعث المهلب بن ابي صفرة الى حرب

الخوارج ، في طوائف من رجال الميدان يختارهم المهلب نفسه ، وكتب الى المهلب يخبره بذلك .

★★★

١

انتهى كتاب عبد الملك الى اخيه بشر ، وكتابه الآخر الى المهلب ، فأرسل المهلب رجلاً يقال له جديع بن سعيد بن قبيصة ، وأمره بأن ينتخب الناس للحرب ، وذلك ما امر به امير المؤمنين

فشق ذلك على بشر ، وضاق صدره

ان امرة المهلب جاءت من الخليفة ، ولم تكن منه ، وهذا استخفاف بسلطانه واعتداء على حقه

وأحس بأنه يبغض المهلب كأنه اذنب اليه

فدعا عبد الرحمن بن مخنف ، وهو نسيب المهلب وقال له : لقد عرفت منزلتك عندي ، وقد اقبل الزمن الذي استطيع فيه ان اثبت لك حبي ، وعنايتي بك ..

قال : اشكر الأمير على عنايته

قال : رأيت ان اوليك امر هذا الجيش الذي اسيره من الكوفة

ـ . ان هذا الجيش يختاره المهلب

ـ . اجل ، ولكن المهلب يتنحى عندما يرى اني وليت سواه

قال : لقد ولاه امير المؤمنين

ـ . جعله على قتال الخوارج ولم يوله قيادة الكوفيين

ـ . وماذا تريد ؟

ـ . اريد ان تكون عند حسن ظني بك ..

ـ . اوصني بما تشاء
ـ . استبد على المهلب بالامر ، ولا تقبلن له لا مشورة ولا رأيا ، وتنقصه ما شئت

ولم يوصه بالجيش ، وقتال العدو ، والنظر في امر المسلمين الذين معه
ثم اقبل يغريه بالرجل وهو ابن عمه
فسكت عبد الرحمن ، فقال بشر مالك لا تتكلم ؟
فقال وهو يهزأ به في سره :
اصلحك الله ، وهل يسعني الا انفاذ امرك
قال : انصرف على بركات الله

فخرج عبد الرحمن في اهل الكوفة يريد جيش المهلب ، وخرج منها بشر بن مروان يريد البصرة ، وقد استخلف على الكوفة عمرو بن حريث

وكان المهلب قد نزل رامهرمز ، وفيها الخوارج
فجعل الخنادق حول جيشه ، واقام ينتظر الكوفيين

ثم جاء عبد الرحمن ، ومعه بشر بن جرير ، ومحمد بن عبد الرحمن ، بن سعيد بن قيس ، واسحق بن محمد بن الاشعث ، وزحر بن قيس ، حتى نزل من المهلب على فرسخ واحد

وبينما الجيشان يهمان بالقتال ، اتاهما نعي بشر بن مروان ، وقد توفي بالبصرة

وكان قد استخلف عليها خالد بن عبد الله بن خالد ، فتفرقت طوائف كثيرة ، من اهل البصرة واهل الكوفة ، واظهروا لرجال الجيشين انهم لا يرغبون في القتال

واتى اهل الكوفة الاهواز ، وفيها جماعات كثيرة انصرفت اليها
فبلغ ذلك خالد بن عبد الله ، خليفة بشر على البصرة ، فدعا غلامه فقال :

اكتب لهؤلاء : اما بعد فاذا اتاكم كتابي فارجعوا الى المهلب ، فان لم تفعلوا ، فالضرب ثم القتل ، ثم عقوبة امير المؤمنين

وخرج رسوله يتعجل في مسيره حتى اتاهم فوقف بينهم ، وجعل يقرأ الكتاب على مسمع من جميع الناس ، كما امره مولاه

فلما قرأ سطراً قال له زحر بن قيس :

اوجز أيها الرجل

فقرأه حتى انتهى

فلم يلتفت الناس اليه ولم يبالوا بما يحمل

ومشى زحر ومن معه حتى نزلوا ضواحي الكوفة ، فارسلوا يقولون لعمرو بن حريث :

ان القوم عندما بلغهم موت الامير تفرقوا فرجعنا الى الكوفة ولم نشأ ان ندخل الا بإذنك

فكتب اليهم يأمرهم بالرجوع ولم يأذن لهم في الدخول ، فانتظروا الليل ثم دخلوا منازلهم ولم يسمعوا له

وانتهى الخبر الى عبد الملك وعنده رجال المشورة والرأي من اهل دولته فقال لرسول عمرو : إرجع الى الكوفة بدون جواب وقل لابن حريث اننا سننظر فيما كتب بعد زمن قصير ، فانصرف الرجل ، فقال عبد الملك لروح بن زنباع :

سنختار للعراق ، بعد اخينا بشر ، رجلاً لا يترك السيف

ثم قال للقوم : دعوناكم الآن لتروا رأيكم في ذلك القطر الواسع الذي يقال له افريقية ...

فقال روح : الرأي ان يولي امير المؤمنين ، بعد مقتل عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس ، اميراً كبير الهمة حسن الرأي ، يحب الشورى ويصغي الى نصائح رجاله

وكان سليمان بن عبد الملك حاضراً فقال : من قتل عقبة بن نافع يا امير

المؤمنين ؟

- . البربر

- . ومن قتل زهيراً ؟

- . الروم ، وكان قد سار في جيش كثير جهزناه له ، الى قتالهم وقتال البربر في تلك البلاد ، في العام التاسع والستين

- . وكيف قتلوه ؟

- . عندما خرج بلغ خبره سيد البربر ، ويدعى كسيلة ، فقال لاشراف اصحابه :

رأيت ان أرحل عن القيروان فان فيها خلقاً كثيراً من المسلمين لهم علينا عهد فلا نغدر ، ونخاف ان قاتلنا زهيراً ان يثبت هؤلاء من ورائنا ، فخير لنا ان نستعمر النار ونحن خارج البلد ، فان ظفرنا بالقوم تبعناهم الى طرابلس ، وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا

وهو رأي لا بأس به كما ترون

فاجابه قومه الى ذلك وخرجوا من القيروان

فقال الوليد : ان كسيلة البربري مسلم ..

- . أجل كان قد اسلم وحسن اسلامه عندما ولي ابو المهاجر افريقية . وهو من كبار القوم بل هو اكبرهم وابعدهم صوتاً .. غير ان عقبة ابن نافع رحمه الله ، لم يحسن السياسة ، فخرج البربري عن الطاعة وحمل السيف في وجه القواد والامراء ، ثم قال :

وبلغ زهيراً ان الرجل ترك البلد ، فلم يدخلها زهير ، بل اقام خارجها ثلاثة ايام ثم رحل في طلبه

- . ومع كسيلة رجال من الروم ؟

- . نعم وظلوا يحاربون تحت لوائه حتى قتل ، فلما التقى الجيشان نزل البربري ، فعبى اصحابه واغار على زهير وكانت واقعة كثر القتل فيها ، من الجيشين ، حتى ضيع الناس الأمل بالحياة وطاب لهم الموت ، وقبل ان تغرب

الشمس ، نصر الله المسلمين ، وفر كسيلة ومن معه من الرجـــال ، فلحق به الجيش الظافر فقتل ، وقتلت طائفة من اشراف قومه

ـ . ولم يقتل زهير في ذلك اليوم ؟

ـ . ، لا بل عاد الى القيروان وجعل ينظر في امور المسلمين ، ويصغي الى آراء العقلاء الذين يعرفون البلاد ، ثم رأى ان افريقية ارض لا آخر لها .. وان فيها ملكاً عظيما يجب ان ينضم الى الخلافة ،فابى ان يقيم ، وآثر الجهاد والغزو ، على الاستسلام الى اللذة في القيروان ، وكان يقول لاصحـابه : انما قـــدمت للجهاد وانا اخاف ان اميل الى الدنيا

وكان عابداً زاهداً ، فغادر القيروان ، وترك فيها جيشاً ، وهو آمن ، لخلو البلاد من عدو للاسلام ، ورحل في جيش كثير

وكان اهل القسطنطينية من الروم ، وقـد بلغهم خروجه من برقة الى قتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها ، وخرجوا اليها في مراكب كثيرة ، وجيش قوي ، قدم من صقلية ، وغزوها ، فاصابوا سبياً ونهبا

فلما عرف ذلك زهير ، امر رجاله بالتعجل في المسير ، حتى اتى برقة ، فاستغاث به المسلمون ، فلم يستطع الرجوع وباشر القتال ، وهو في قلة والروم في كثرة ، فدارت الدائرة عليه وعلى المسلمين الذين معه لم ينج منهم أحد ..

ـ . وبعد ذلك ؟

ـ . دعونا المسلمين ، المقيمين بذلك القطر ، الى الصبر ، وشغلنا من افريقية ما كان بيننا وبين مصعب بن الزبير واخيه عبد الله

فقال قبيصة بن ذؤيب: اما الآن فقد انتهى امر بني الزبير

ـ . اجل انتهى ، وقد امرناكم بالمجيء الساعة ، لاختيار رجل نوليه امر المسلمين في تلك الديار وامر الفتح

قال : لا يختار هذا الرجل غير امير المؤمنين

ـ . على ان يسمي كل واحد منكم رجلا ... ابدأ يا ابن زنباع

قال : ولّ المهلب بن ابي صفرة واستعمل على الخوارج رجلا آخر

ـ : ان الخوارج في نظرنا اعظم خطراً من رجال البربر ولا يصلح لقتالهم الا الرجل الذي ذكرت ، قلنا ذلك من قبل ، ونقوله الآ ن ، فلا تسموا المهلب ...

فقال قبيصة : ألفت نظر أمير المؤمنين الى الحجاج بن يوسف

ـ : الان ، وقد قتل ابن الزبير ، ودان له الحجاز ؟؟ انه اختيار ليس فيه شيء من الرأي

فقال ابو كبشة صاحب الشرطة : استعمل أخاك الامير عبد العزيز ..

ـ . لقد عرفته مصر وعرفها فهو باق فيها ما بقينا

فقال رجاء بن حيوة :

ليكن واحد من انجال امير المؤمنين

ـ . نحن اعرف الناس بهؤلاء ، ماذا يقول الريان ؟

فقال صاحب الحرس : اذا رأى امير المؤمنين ان يولي هشام بن هبيرة ...

فضحك قائلا : ان حارسنا الأمين ، يعمد الى قضاة المسلمين فيجعلهم قواداً ... ألا تعلم ان هشاماً قاضي البصرة ؟

ـ . اعلم ذلك يا امير المؤمنين ، كما اعلم ان بين رجال الحرب طائفة كبيرة من رجال القضاء .

ـ . اجل ، ولكن امير المؤمنين لا ينتزع من مقعد القضاء رجلا ليسلم اليه السيف ... ان اهل السيف كثار في دولتنا فاختر واحداً منهم اذا قدرت ..

قال : ان في الجزيرة قائداً جباراً هو اخوك محمد

قال : لم يهنأ بعد بالفتح ... رأيك يا سرجون .

وكان ذلك الرومي ، منذ بدأ عبد الملك يستشير اصحابه ، يستعرض في مخيلته رجال السيف حتى اختار احدهم

فلما سأله مولاه رأيه قال : وضعت يدي على رجل يبلغ به امير المؤمنين غايته ان شاء الله

ـ . اذكر اسمه

قال : اتعدني بأنك ستختاره ؟

فضربه بوسادة كانت بين يديه وابتسم قائلاً : وتشترط علينا ايها الروسي ... قل من هو ؟

ـ . هو حسان بن النعمان الغساني

فأغمض عبد الملك عينيه وجعل يقول : حسان بن النعمان ... اي والله انه لها ... انه لها . . . يا غلام ادع الرجل

وحسان في اروقة الخضراء ، وهو يطمع بأن يوليه امير المؤمنين ، امراً من امور دولته .

وكان رجلاً ، قوي الارادة بطاشاً ، صلب العود ، وقد خلق ليكون من القواد

فمثل بين يدي الخليفة ، فقال له : نحن نتحدث الآن بأمر افريقية فهل تعلم لماذا دعوناك ؟

قال : ما دعوتني لتستعين برأيي فرجال الرأي حولك

ـ . وماذا اذن ؟

ـ . اردت ان ترسلني غازياً

ـ . ويطيب لك الغزو ؟

قال : ان لم ابنِ لك هناك ملكاً على جثث الروم والبربر ، فاضرب عنقي

ـ . ولكن هل تعلم انه لم يبق لك بلد تمتنع فيه الا القيروان ؟

قال : انما اخرج لأفتح المدن للاسلام لا لامتنع فيها .

قال : احسنت ، وستدخل افريقية بجيش لم يدخلها قط جيش مثله

ـ . وهل يخطر لأمير المؤمنين ان يمنعني من الامعان في البر والبحر لأخضع اعداءه ؟

ـ . بل يخطر لنا ان نطلق يدك في كل أمر .

والتفت الى رجاله قائلاً : لقد سمعتم ، فجهزوا الجيش في شهر ، وسنمد الغساني بجيش آخر ، بعد ان ترد علينا اخباره .

★★★

– ٢ –

أمر الريان ، فمثل بين يدي عبد الملك

فقال له : يا صاحب الحرس ، نريد ان نعهد اليك في قضاء أمر لنا فيه غرض خاص .

واذن له في الجلوس ثم قال : ولكن احذر ان تبوح بكلمة مما تسمع

ـ . ان الاسرار تموت في هذا الصدر كما يعلم امير المؤمنين

قال · تعرف دار سعيد بن عمرو

ـ . ما نسيت قط ولن انسى دار الخائن.

قال : لقد عاد بنو سعيد كما رأيت ، ومعهم عبد يدعى مرة هو اخد عبيد الكوفة .

قال : رأيت مع القوم طائفة من العبيد

ـ . اجل ، ولكنك لا تستطيع ان تعلم من هو مرة ، الا اذا سألت عنه

ـ . ويريد امير المؤمنين ان اسأل ؟

ـ . نعم ، نريد ان ترى مرة ، وتجعله عبداً لارادتك ، دون ان يعلم احد ان لك صلة به

ـ . اجعله عبداً لي وهو من موالي القوم ؟؟ اني لا استطيع ذلك الا اذا ملأت يديه مالاً

ـ . بل تستطيع ان تفعل ما يطيب لك دون ان تدفع درهماً

ـ . وكيف ذلك يا امير المؤمنين ؟

ـ . كان مرة من عبيد اخينا بشر ، ثم امسى ، بعد موت بشر ، عبداً لبنيه

فابتسم قائلاً : إذن هو عين لأمير المؤمنين على آل سعيد

ـ . هو ذاك ، وكان ينقل اخبارهم الى بشر في الكوفة ثم ينقلها بشر بدوره الى دمشق

ـ . والآن ؟

ـ . اما الآن فيجب ان تنقل هذه الاخبار اليك انت ... انت الريان صاحب الحرس .

ـ . ثم احملها اليك كما هي

ـ . ثم تحملها الينا كما هي في اليوم الذي تسمعها فيه

ـ . قال : ان عندي عبداً من اهل الكوفة

ـ . ان عبدك هذا هو الذي يمهد لك السبيل

وجعل يوصيه بما يصنع ثم قال له : قم الآن فانصرف فقد عرفت كل شيء

فخرج الريان ، ولم يرجع الى مجلس الخليفة ، الا في اليوم الثاني ، عندما غربت الشمس

وكان عبد الملك على شرفة من شرفات الخضراء ومعه قبيصة بن ذؤيب ورجاء بن حيرة

فلما استأذن الريان ، أمرهما بالانصراف ، ثم قال له : يظهر ان العبد امسى من رجالك .

ـ . نعم يا امير المؤمنين

ـ . واين رأيته ؟

ـ . بين الخمائل التي تكتنف دار قبيصة .

ـ . وماذا علمت ؟

ـ . ان ام كلثوم مخطوبة لابن عبدالله الكناني

فخفض صوته قائلاً : وكانت الخطبة في الكوفة ؟

ـ . اجل ، وليس هنالك موعد للزواج

ـ . ووصف لك مرة الفتاة ؟

ـ . نعم ، واقسم لي انها احسن نساء الشام

قال : لو لم يكن دم ابيها على بساطنا لجعلناها من نساء بني مروان

قال : كان معاوية يقتل الرجل .. ثم يزف ابنته الى واحد من اهل بيته ليطبع الثأر .

ـ . اما نحن فلا نفعل كما كان يفعل معاوية

ـ . ويطيب لك ان تزف ام كلثوم الى محمد ؟

ـ . لا تستعجل فستعلم كل شيء .

وجعل يعبث بخفقة كانت بيده ثم قال : أتعلم ان ولدنا مسلمة يحبك ؟

ـ . جميع انجال امير المؤمنين يعطفون علي

ـ . اذا اتيت داره رأيت الكوثر بن زفر

ـ . نعم

ـ . والكوثر اخو الرباب ، زوجة مسلمة

ـ . اعرف ذلك

ـ . ولكنك لا تعلم ان الفتى راغب في الزواج ، وان اخته امرت جواريها وغلمانها بأن يختاروا له فتاة من بنات الامراء

ـ . عرفت ذلك الآن

ـ . اذن فاذهب الى دار مسلمة كل صباح ، وجالس الكوثر . ثم صف له بعد بضعة ايام ، ام كلثوم

قال : ان امير المؤمنين ، يريد ان تمسي ام كلثوم زوجة للفتى

ـ . بل نريد ان يعلق الكوثر في شرك الغرام قبل ان يرى وجه الفتاة ، كما

نريد ان يعلم ، يوم تصفها له ، انها مخطوبة لذلك الكناني .

فأدرك الريان غاية عبد الملك فقال : مسكين محمد

ـ . وماذا خطر لك ؟

ـ . خطر لي ان غرامه سيضيع . ثم تضيع حياته ، بضربة سيف واحدة يفاجئه بها ابن زفر .

ـ . ليس لك ان تظن هذا الآن .. ان الكوثر سيبرح به الحب ، وهذا يكفي . !

ثم نهض فوضع يده على كتفه قائلاً : بقي شيء نأمرك بأن لا تنساه.

ـ . ما هو يا امير المؤمنين ؟

ـ . هو ان يطلع مرة على غايتك

ـ . ثم ماذا ؟

ـ. ثم يدفع ام كلثوم الى ايثار الكوثر على محمد

ـ . ولكن مرة يقول ، ان غرام الفتاة غرام غريب ، لم ير ، في كل ما رأى غراماً ابعد اثراً منه

ـ . حسبك ان تعلم ان امير المؤمنين يريد ان يضمحل هذا الغرام

ـ . واذا خاننا الحظ . ؟

ـ . ننظر عندئذ في الأمر ، من ناحية اخرى

قال : اتأذن لي يا امير المؤمنين ان اقول كل شيء

ـ . هات

ـ . اخشى ان تنفضح الكوثر مظاهر الهوى ، فيعمد بنو عمرو ، الى كتابة العقد ، وتزف ام كلثوم الى محمد

فضحك قائلاً : ما كنا نظن ان صاحب الحرس ابله لا ينظر الى ابعد من انفه

ـ . وماذا رأى امير المؤمنين ؟

ـ . رأينا انك لا تعرف من الدهاء الا الاسم.. اتظن اننا غفلنا عن هذا ؟؟

فتمتم يقول : خاطر خطر لي .

قال : ان بني عمر لا يستطيعون ان يعمدوا الى ما ذكرت .

ـ . اي انهم لا يفعلون الا اذا شاوروك في الأمر .

ـ . وهذا مظهر آخر من مظاهر بلاهتك .. قل انهم لو ارادوا ان يزفوا اختهم لما رأوا محمداً .

ـ . ان الفتى في دمشق .

ـ . اجل ، ولكن ستفصل بينه وبين دمشق ، بعد شهر ، جبال وأودية وسهول وبحار ، وقد يحمل نعيه بعد ذلك الى امه .

قال : يخيل الي انك ستأمره بالانضمام الى جيش حسان بن النعمان ، الزاحف بعد شهر ، الى القيروان

قال : لقد بدأت الآن ان تفهم

ـ . وتأمر بني عمرو بأن يخرجوا مثله الى الحرب ؟

ـ . يكفي ما سمعت ، فلا تزد .. واذا طاب لك ان يعجب بك امير المؤمنين فكن داهية .. اخرج الآن .

فلما انصرف ، جعل عبد الملك يخاطب نفسه قائلاً : اجل يا ابن عبدالله الكناني ، ان عبد الملك الخليفة الغدارَ لا يصلح للعرش .

★★★

- ٣ -

اقبل القواد ، والنجال امير المؤمنين ، ورجال البلاط والامراء يجهزون ذلك الجيش العظيم الذي اراد عبد الملك ان يفتح بقوة سيفه ، ذلك القطر الافريقي

وخرج بعض هؤلاء ، الى المدن والقرى ، في بلاد الشام ، يندبون الناس للقتال

فغصت دمشق بالوفود ، وكانت الصفوف تتبع الصفوف وهي تنادي : اما الظفر بالروم والبربر او الموت .

فلما رأى عبد الملك ، ان الأمر انتهى الى ما احب، ارسل الى امية وسعيد، ومحمد بن عبدالله ، يأمرهم بأن يأتوا الخضراء

ثم دعا اهل دولته ، ووجوه دمشق والنجاله بينهم ، حتى امتلأت قاعة الجلوس

وجعل يلتفت الى الناس ثم قال للوليد ابنه : ألم تدخل المعسكر في هذا اليوم ؟

ـ . بلى يا امير المؤمنين ، واني اطوف ، في الصباح والمساء ، بين خيام الجند ، انظر في امورهم لا انسى احداً

ـ . ورأيت جيشاً اعظم من هذا ؟

ـ . ما رأيت اعظم وأكمل عدة منه

قال : لقد اقبلت العشائر كلها من جميع نواحي الشام ، ومن دمشق ، ولم يبق الا ان نندب ببعض انجالنا ورجال البلاط والخاصة ، فماذا تقول ؟

ـ . ايسألني رأيي امير المؤمنين ؟

ـ . اجل

ـ . ليس لي رأي الا ان ابذل دمي من اجل الخلافة

ـ . وانت يا سليمان ؟

ـ . رأيي رأي اخي الوليد ، وليس احب الي من الغزو في سبيل الله

وكان بنوه الآخرون في المجلس ، وهم يزيـــد ، ومروان ، وهشام ، وابو بكر ، وعبدالله ، ومسلمة ، والمنذر ، ومحمد ، واما الصغيران ، سعيـــد الخير والحجاج ، فلم يحضرا

فأخذ يسألهم واحداً واحداً فلم يكن لهم رأي غير الطاعة ، فقال روح بن زنباع وهو لا يعلم ما في نفس عبد الملك :

أيطيب لأمير المؤمنين ان يسير انجاله جميعهم الى القيروان ؟

ـ . وما يمنعنا من ذلك ؟

ـ . ما فعلها احد قبلك من الخلفاء

ـ . اما نحن فما نحب ان نسير كما سار اولئك

قال : رأينا النـــاس يرسلون بعض ابنائهم الى الحرب ، ويحتفظون بالبعض الآخر فاذا اردت فوجه مولانا الأمير الوليد ، ومولانا الأمير سليمان ..

وقال ابن ذؤيب مثل ذلك ثم وافقه الناس في رأيه

فقال عبد الملك: إذن نرسل سليمان ويزيد ومروان ..

ونظر إلى أمية بن عمرو فقال : أيمنعك شيء من حمل السيف يا بني ... ؟؟

ـ . لا يا أمير المؤمنين ، إني قادر على حمله .. وانا عبد من عبيد دولتك ..

ـ . وكذلك أنت يا سعيد ؟

ـ . نعم ، ولا أرضى بان يكون احد أسبق مني الى قتال عدوك ..

وكيف يقول الفتى غير ذلك ، والقاعة تغص بالوجوه والاشراف ، وانجـــال امير المؤمنين انفسهم سيسيرون في مقدمة الصفوف ..

ولم يخطر له ان في صدر عبد الملك ما فيه ...

ثم قال عبـــد الملك : اذن تسير انت وأمية ، ومحمـــد هذا ، ويبقى اخواك الآخران اسماعيل ومحمد ..

ولم يوجه كلمة الى الفتى الكناني ...

وجعل يقول لرجال البلاط :واما انتم فاشحذوا السيوف لابنائكم وليتهيأوا للرحيل بعد بضعة أيام

وصرف الناس الا روح بن زنباع ، وابن ذؤيب ، فقد أمرهما بالبقاء ثم قال لهما : قولا لسليمان ويزيد ومروان ان يبقوا

فهمّ ابن زنباع بان يتكلم ، فاسكته قائلاً : قل لهم ان امير المؤمنين يأمركم بالبقاء .. وكفى ...

ولم يعلم الرجلان ما هي الغاية التي تتردد في صدره

وكانت ولادة ، وميمونة ، وام كلثوم ، ينتظرن رجوع الفتيان الثلاثة من الخضراء

فلما أقبلوا قالت ولادة : ما وراءكم؟

فقال سعيد : الشرف لآل عمرو ..

فصاحت قائلة : الحرب ؟

ــ . نعم الحرب ، فهي أمر لا بد لنا منه

فخفقت قلوبهن ، ثم جلسن وجلس الفتيان ، ثم قالت : حرب فتح أم قتال عدو ؟

ــ . عدو وفتح

ــ . وفي اي اقليم ؟

ــ . القيروان

ــ . آه . . في ذلك القطر الذي يسمونه افريقيا . .ان المسلمين يحصدهم الوباء فيه ، ويحصدهم السيف ...

ــ . لنا اسوة بانجال عبد الملك

ــ : من يذهب منهم ؟

ــ سليمان ، ويزيد ، ومروان

ــ : لو لم يكن عبد الملك خائفاً لارسل الوليد

ــ : ان الوليد كبير انجاله وهو يجلس معه للناس

قالت : وتسيرون جميعكم ؟

ـ : يبقى اسماعيل ومحمد ونسير نحن الثلاثة

فقالت ميمونة : هذا ما كنت اخافه فلا حول ولا قوة الا بالله

فاجابها محمد قائلاً : ليس في الامر مجال الى الخوف .. الجيش كثير لم تشهد الشام جيشاً اعظم منه، وسيتم الفتح بعد شهرين او ثلاثة اشهر فنعود الى دمشق

ـ . قلبي يحدثني بانه لا يتم الا بعد بضعة اعوام

ـ . ذلك ما يمليه قلب الام

ـ . بل هذا ما يقضي به دهاء عبد الملك ، انه يريد ان تمر الاعوام ، وانتم في القيروان ، لانه يخشى ان ينضم اليكم الناس ، وانتم في دمشق

ـ . اي انه يخاف على عرشه

ـ . ، وهو لا يطيق ان يزعزع احد اركان العرش

ـ . ولكنه يعلم اننا اضعف من ان نفكر في العروش .. قتل مصعباً وهو سيد الابطال ، ثم قتل اخاه عبد الله وهو خليفة الحجاز ، فدانت له بلاد العرب والعجم ومصر ، ولم يبق الا ان يتربع في عرشه ، ويمهد لبنيه ملكاً لا تغيب عنه الشمس .. أفيخاف اليوم، وقد أمسى سيد العرب ، وبايعه بنو هاشم ، ان يسلبه الخلافة امية واخوته ، ومحمد الكناني ؟؟ .. إنها فكرة لا تخطر لنا كما انها لاتخطر له ..

ـ . ومع ذلك فهو خائف، وقد أمر بابعادكم عن الخضراء ، ولو كان محمد واسماعيل من رجال السيف لامرهما بالمسير

وكان قلب الفتى يضطرب في صدره ، وهو ينظر بجزع ولوعة ، الى ذلك البعاد الذي اكره عليه

ولكنه ، وهو الفتى الابي ، وأبوه عبد الله بن عزيز الذي شهدت له الميادين، لم يرَ الا ان يظهر بمظهر الشريف الباسل الذي يؤثر خير الاسلام على غرامه ..

فقال لامه : لو اراد ذلك عبد الملك لامر بنيه بالبقاء

ـ . ان بنيه غيركم انتم .. انهم في الجيش احرار مستقلون يبقون في

القيروان ما طاب لهم بالبقاء ، ويرجعون الى دمشق عندما يطيب لهم الرجوع ، دون ان يكون لحسان بن النعمان رأي في ذلك ..

ـ . ولكنهم سيقاتلون كما نقاتل نحن، وقد يخسرون حياتهم عندما تجول الخيل

وكانت ام كلثوم تمسح دموعها ، فقال أميه : أتبكين ؟

ـ . نعم ابكي فانا اخشى ما تخشاه ام محمد

قال : تريدان ، وتريد امي ان نقيم بالمنزل لا نحمل سيفاً ولا نخرج الى حرب كما تفعل النساء

قالت : خير لك ان تفعل كما نفعل نحن ، من ان تخرج الى الدفاع عن قاتل ابيك .

قالت هذا ، ومرة في الرواق يسمع كل شيء

فقال سعيد ، ليست الحرب حرب دفاع عن عبـــد الملك وانما هي فتـــح للاسلام .

ـ . ان عبد الملك لا يفكر الا في توسيع ملكه .

ـ . ولكن ملكه ملك المسلمين وقد كان ابي يبذل حياته من اجل توسيـــع هذا الملك .

ـ . بل كان يبذل حياته في سبيل مروان وهو الذي كان على ميمنته في مرج راهط يوم قتل الضحاك بن قيس ، وهو الذي رد مصعب بن الزبير عن دمشق ، وحفظ لمروان عرشه

ـ . اذن من الرأي ان نصنع كما صنع .

ـ . وهل نسيت ان اباك كان جزاؤه الموت ؟

ـ . ان الموت في ساحة القتال شرف لك يا ام كلثوم

ـ . وكذلك هو الموت ، عند سرير عبد الملك .

قال : لا تذكري الماضي الآن ، فقد طلب الينا الخليفـــة ان ننساه ، ومن الرأي ان ننسى .

فقالت ام محمد لولدها : ماذا قال لك عبد الملك ؟

ـ . لم يقل لي كلمة ، بل ، امرني بالمسير مع الجيش الى القيروان ، دون ان يلتفت الي .

ـ . كان عليك ان تعتذر ، لأن امك لا عون لها وانت غائب .

ـ . لم اشأ ان اكون جباناً .. ولقد قال عبد الملك لجلسائه انظروا الى الامام ، ولا تفكروا فيمن تركتم ، فالخليفة سيعطي اهلكم ما يحتاجون اليه ..
ثم قال : وسمعت حسان بن النعمان ، قائد الجيش يقول: نمكث بالقيروان بضعة اشهر ثم نعود .

قالت : سأسأل عبد الملك ان يأذن لي في المسير معك

ـ . اذن فانت تريدين ان يقول الناس : ان محمداً لا يجسر على حمل السيف ، الا اذا لحقت به أمه الى الميادين

ـ . ولكن العرب تفعل هذا

ـ . كان ذلك من قبل ، اما اليوم فالنساء لا يخرجن عن منازلهن ، لهذه الغاية

ـ . بل يفعلن ذلك كل يوم

ـ . اما انا فأرى ذلك عاراً ولا اطيق هذا العار . وانك تستطيعين ان تصبري ثلاثة اشهر كما تصبر أم امية

ـ . اقسم لك ان الحرب لا تنتهي في ثلاثة اشهر

ـ . اذا طالت الأيام استأذنا في الرجوع

فقال سعيد : ذلك هو العار الذي لا تطيقه .. تترك المسلمين في ساحات القتال ، وابناء عبد الملك معهم ، وترجع الى بيتك ؟؟ لا والله لا نعود الا اذا عاد الجيش

ـ . واذا عاد سليمان بن عبد الملك واخواه ؟

ـ . نطلب عندئذ الى سليمان ان يجعلنا من اتباعه

فقالت ام كلثوم : لم اسمع قط ان الخليفة يدفع الناس بالسوط الى الحرب
ـ . ومن قال لك ذلك ؟
ـ . الم يأمر الناس في دمشق بأن يحملوا السيوف ويخرجوا الى قتال عدوه ؟ ان السوط اهون من هذا

قال : لقد وعدنا الآن وانتهى الأمر،وهي فرصة نفتنمها ، لنعيد بالسيوف، ذلك المجد الذي فقدناه .

فقالت امه : سأمثل غداً بين يدي عبد الملك وأسأله ، باسم ابيكم القتيل ، ان يأذن لكم في البقاء .

فاضطرب قائلاً : خير لبني عمرو بن سعيد ان يموتوا جميعهم ، من ان تقف امهم بباب عبد الملك ، وتستأذن في الدخول عليه

ـ . بل خير لى ان انطرح على قدميه ، من ان اخسر احدكم

وتفجرت الدموع من عيون النساء الثلاث

فقال : الم يقض ابي حياته كلها ، غازياً ، فاتحاً مدافعاً عن الاسلام ؟

ـ بلى

وأنت يا أم محمد ، ألم يكن عبد الله ذلك الرجل الذي لم يغمد سيفه ؟

ـ بلى

ـ . وهل خطر لكما ، ان تبعدا الاثنين ، عن مواقف الشرف ؟

ـ . لا

ـ . وكيف يطيب لكما الآن ، ان يقول النـــاس ، وهم يدلون علينـــا بالاصابع :

هؤلاء هم الجبناء ..

فقالت امه : اني خائفة .. اني خائفة .

وقالت ام محمد : لم يضطرب هذا القلب مثل اضطرابه الآن .

فأجابها قائلاً : ذلك هو الخوف ، فاذكرا الماضي ، واتكلا على الله ، فهو قادر على ان يقصر اجل الحرب ، ويجمع الشمل

وقال لأمية ومحمد : هيا ، نعد العدة فسنرحل بعد ايام

وخرج فتبعته امه واخوته ، وبقي محمـــد ، ليكفكف دموع أم كلثوم ، بعاطفته ، ووعوده ، ولولا عزة نفسه ، لارتفع صوته بالبكاء

ليس لأنه من الجبناء .. بل لأنه من العشاق .

★★★

٤

لما تولى الحجاج بن يوسف ، أمر الحرمين ، بعد قتله ابـــن الزبير ، قرّب ابراهيم بن محمد ، بن طلحة اليه ، وعظم منزلته ، فكان رأيه في مجلسه ، الرأي الأول الذي لا يراجع فيه

حتى انه امسى في نظره ، اعظم رجل من رجال الحجاز

وابراهيم ، رجل زهد ودين ، يؤثر آخرته على دنياه

فلما اقبلت السنة الخامسة والسبعون ، رأى الحجاج ان يخرج الى دمشق ، حاملاً الى امير المؤمنين هداياه ، على عـــادة الحكام والولاة ، في كل زمـــان ومكان

وطاب له ، ان يكون ابراهيم معه ، ليقربه الى عبد الملك ويجعل منزلته في البلاط مثل منزلته عنده

فدعاه اليه فقال : تهيأ للمسير الى الشام

ـ . وماذا اصنع فيها ؟

ـ . تثبت اخلاصك ووفاءك لأمير المؤمنين

ـ . ان امير المؤمنين يعرف هذا الوفاء ولا يحتاج اليه

ـ . بل تذهب ، فأنا اريد ان يعلم أنك سيد المخلصين

ـ . وخرج الرجلان ، ووراءهما حاشية الحجاج ، حتى انتهيا الى الخضراء، والساحات تغص بالوفود ، فاستأذن الحجاج ودخل ، وبقي ابراهيم

فلما وقعت عين عبد الملك على والي الحرمين قال له :

في اي شيء قدمت ؟

فسلم وقال : قدمت ومعي رجل لم اجد له ، في الحجاز ، نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب ، والطاعة والنصيحة

قال : ويحك فمن هو ؟

ـ . ابراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد دعوته الى المجيء ليسهل عليه اذنك ، ويعرف له امير المؤمنين ما عرفته .

قال : ذكرتنا رحماً قريبة وحقاً واجباً .. يا غلام .. ائذن لابراهيم بن محمد بن طلحة

فلما اقبل ادناه عبد الملك حتى اجلسه على فراشه ثم قال : يا ابن طلحة ، لقد ذكرنا ابو محمد،قرابة الرحم ، ووجوب الحق ، وما نعرفه فيك ، من حسن الطاعة والوفاء ، فلا تدعن حاجة من حاجاتك الا ذكرتها ..

فكره الرجل الصالح ان يحرق البخور ، فقال : اول الحاجات ما كان لله فيه رضا ، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم اداء ، ولك فيه وللمسلمين نصيحة .

ـ . وليس عندك نصيحة تبذلها لأمير المؤمنين ؟

ـ . بلى ، عندي نصيحة لا اجد بداً من ذكرها

ـ . قل

ـ . لا اقدر على ذلك الآن .

ـ . اذن هي من الاسرار

ـ . نعم

ـ . ولا تبوح بها امام ابي محمد ؟

ـ . لا

فقال عبد الملك للحجاج :

قم فاخرج

ففعل ، ولم يبق في المجلس غيرهما ، فقال عبد الملـــك : نصيحتك يا ابن طلحة

فقال : يا امير المؤمنين ، عمدت الى الحجاج في كبريائه وظلمه ، وبعده عن الحق ، وقربه من الباطل فوليته الحرمين . وهما ما هما ، وفيهما من فيهما ، من المهاجرين والانصار والموالي الاخيار ، يسوقهم بالسيف ، ويسومهم الهوان ، ويحكم فيهم بغير السنة ، بعـــد الذي كان من سفك دمهم ومـــا انتهك من حرمتهم .

فجعل الخليفة ينظر اليه ، والغضب في عينيه

ولكنه لم يبال ، بل كان يقول : ثم ظننت ان ذلك فيما بينـــك وبين الله زاهق ، وفيما بينك وبين نبيك غداً بين يدي الله .. اما والله لا تنجو هنالك يا امير المؤمنين الا بحجة ، فارجع الى نفسك . !

فقال عبد الملك : كذبت .. وظن بك الحجاج ما لم نجده فيك .. وقـــد يظن الخير بغير أهله .. قم فأنت الكاذب !

فنهض وهو لا يعرف طريقه .. فلما انتهى الى باب القاعة ، لحق به غلام لأمير المؤمنين فقال للحراس :

احبسوا هذا ، ثم قال للحجاج : ادخل

فدخل ، ومكث ملياً ، وابن طلحة لا يشك انهما في امره

ثم خرج الغلام فقال : ادخل يا ابن طلحة .

وكشف له الستر

فلقيه الحجاج ، وهو خارج ، وابن طلحة داخل ، فاعتنقه ، وقبل ما بين عينيه ، ثم قال له هامساً :

اما اذا اجزى الله الأوفياء خيراً بفضل وفائهم فجزاك الله عني افضـــل الجزاء .. ووالله لأرفعن ناظرك ، ولأعلينّ كعبك .

فقال في نفسه : يهزأ بي ورب الكعبة

ومشى حتى مثل بين يدي عبد الملك ، فأدناه حتى اجلسه مجلسه الأول ثم قال : يا ابن طلحة ، لعل احداً شاركك في نصيحتك هذه ؟

قال : لا والله يا امير المؤمنين ما اعلم احداً اعظم معروفاًعندي من الحجاج، ولو كنت محابياً احداً لغرض لي لحابيته ، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه فقلت لك ما قلت .

قال : لقد علمت الآن انك لم ترد الدنيا ولو اردتها لكانت لك في الحجاج ، ولكن اردت الله والدار الآخرة .. اسمع يا ابن طلحة ، لقد عزلنا الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما

ــ . ونحيته يا امير المؤمنين عن كل شيء ؟

ــ . بل وليناه العراقين ، وخبرناه انك طلبت الينا ذلك استزادة لمقامه وحقه فأخرج معه غداً الى الحجاز فأنت عنده أعز من نفسه .

ــ . وكيف يرجع الى الحجاز وهو امير العراق ؟

ــ . امرناه بذلك ليعد عدته ، وسبعث اليه بعهدنا على العراقين ، وهو في المدينة فيجيء .

فخرج ابن طلحة شاكراً ورجع مع الحجاج الى الحجاز ، وهو اعظم مقاماً عنده وارفع منزلة مما كان

وكان الحجاج يفكر في أم كلثوم ، ابنة عبدالله بن جعفر ، بن ابي طالب ، صاحب الفضل على ابن قيس الرقيات

وقد عول ان يسترضي اباه ، ليجعلها زوجة له

فقال لابراهيم : تعرف ام كلثوم بنت عبدالله بن جعفر ؟

ــ . ومن لا يعرفها ويعرف اباها وبيتها الذي هو اكرم بيت

قال : سأسأل عبدالله ان يزفها الي قبل ان اترك المدينة

ــ . لا اظن انه يرضى ، ولو رضيت هي

ـ . لقد قل مال عبدالله كما تعلم ، وسأبذل من مالي الشيء الكثير ، حتى يرضى

ـ . ذلك ما لا شأن لي به

ـ . ولكن اذا سألك رأيك فكن عند حسن الظن

ـ . ليس لي رأي في هذا ففي الحجاز طائفة من خاصتك واصحابك يمهدون لك السبيل :

قال : لقد ثبت لي انك أوفى هؤلاء الاصحاب

ـ . ومع ذلك فأنا لا اهتم لقضايا الزواج

قال : دلني على رجل يخاطب عبدالله بالأمر

ـ . خير لك ان تخاطبه انت فهو لا يكتمك ما في نفسه ، ولا يخفي شيئاً من امره

قال : اصبت وسأفعل

وعندما انتهيا الى المدينة ، عرف الناس فيها ، ان عبد الملك ولى الحجاج العراقين ، وسيترك الحجاز ، عندما ينتهي اليه ، كتاب امير المؤمنين ، فأقبلوا يجالسونه ويسألونه ، وهو يتهيأ للرحيـــل ، وينظر في حاجـــات نفسه ، وعدة سفره

حتى مرت الأيام ، ولم يبق الا ان يتناول الأمر ، بالمجيء الى العراق

فسار في صباح يوم الى منزل عبدالله ، والمنزل يغص بالناس ، والوفود في الداخل والخارج ، والنوق حول الفناء ، وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فبيت ابن جعفر بيت شرف وجاه ومجد وكرم ، وأهل الحجاز يسمون عبدالله بحر الجود

فلما قيل لعبدالله ان امير الحرمين ببابك ، نهض لاستقباله ، وأمر الناس بالخروج وهو يقول في نفسه : لم يأت الامير الا لأمر

ومرت ساعة والاثنان يتحدثان ، ثم قال الحجاج :

اني خارج الى العراق بعد ايام ، فاذا كانت لك حاجة فيه او في الحجاز فهي مقضية .

قال : لو كانت لي حاجة لتقدمت بها اليك .

ـ . اما انا فمن اصحاب الحاجات .

ـ . ان الامير لا يحتاج الى رجل قل ماله .

ـ . ولكن مقامك فوق مال الأرض .. وانت انت .. افلا تقول ان حاجة الأمير مقضية كما قال لك هو ؟

قال : لا اخاف غير عجزي عن قضائها .

ـ . بل انت قادر عليها .. لقد اتيتك خاطباً .

ـ . ام كلثوم ؟

ـ . نعم ام كلثوم وانا واثق بأنك لا تردني .

قال : حول ام كلثوم ، فتيان ورجال ، من ابناء الخؤولة والاعمام ، وجميعهم من الراغبين في الزواج ...

ـ . ولكنهم لا يستطيعون ، اذا اجتمعوا ، ان يحملوا مهرهم ، مثل المهر الذي اتعجل في دفعه ...

قال : كم هو ؟

قال : زوّجها على الفي الف في السر ، وخمسمائة الف في العلانية

وهو مهر كثير كما ترى ، لا يحلم عبدالله بمثله ...

وبيت عبدالله ملجأ للعرب ، والمال قليل بين يديه .

فقال دون ان يتردد : لقد رضيت .

ـ . ومتى تحمل ام كلثوم الي ؟

ـ . تحمل اليك ، وانت في العراق !

ـ . لماذا ؟

ـ . لأن الزواج في العراق ، خير منه في المدينة .

ـ . وانا قد رضيت وسأبعث اليك بالمال

ولا يستطيع الحجاج ان يشك في كلمة يقولها ابن جعفر ، فهو اذا قال صدق واذا ، وعد وفى

ولكنه اراد ان يعلم موعد زواجـــه فقال : هب اني خرجت اليوم فمتى الزواج ام كلثوم ؟

ـ . بعد شهر

فودعه وانصرف الى دار الامارة ، فرأى رسول عبد الملك ، ومعه عهد الولاية ، وقد جاء فيه : ان اهل العراق يترددون في الخروج الى قتال الخوارج مع المهلب بن ابي صفرة ، فاذا اتيت الكوفة فارسل الناس اليـــه ليكونوا اعوانا له .

فأمر مناديه فنادى : الامير راحل غداً

فلم يبق في المدينة رجل الا اتاه مودعاً ، ثم ركب في اليوم الثـــاني يريد الكوفة ، ووراءه اثنا عشر رجلاً من خاصته ، على النوق

حتى دخل الكوفة فجأة وقد طلعت الشمس

فبدأ بالمسجد ، فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزا حمراء ، وقد القى قوسه على منكبه ، ووضع ابهامه على فمه

ثم قال احد رجاله : ليجتمع الناس

والحجاج جالس ينتظر اجتماعهم ، وهو ساكت ، وقد طال سكوته

فقال من حضر : ان هذا الرجل ومن معه من الخوارج

وكان محمد بن عمير التميمي حاضراً ، فقال لمن حوله : لعنه الله ، انه غلام عيي لا يستطيع ان يتكلم

وتناول حصاة ليرميه بها ، فقالوا له : لا تعجل حتى ننظر ما يصنع واجتمع الناس .

فقام الحجاج ، فرفع عمامته عن وجهه وقال :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

صليب العود من سلفي نزار كنصل السيف وضاح الجبين

اما والله اني لأحمل الشر بثقله ، وآخذه بفعله ، واجزيه بمثله ، واني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، وكأني ارى الدماء بين العمائم واللحى

هذا اوان الحرب فاشتدي زيم   قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي ابـل ولا غنم   ولا بجزار على ظهر وضـم

« ابن جلا ، الواضح الأمر ، وقيل هو الصبح ، وقيل هو القمر ، وخالف الخليل هذا التأويل فقال : انه اسم رجل ، « وابن جلا وطلاع الثنايا » قاله سحيم بن وثيـل الرياحي واشتدى زيم ، هو اسم للحرب ، والحطم الذي يحطم كل ما يمر به ، والوضم ، كل ما وقيت به اللحم عن الأرض مثل خشبة الجزار وغيرها »

ثم قال :

الا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، نثر كنانته فعجم عيدانهـا فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فوجهني اليكم ، ورمى بي في نحوركم ، فانكم اهل بغي وخلاف ، ونفاق وشقاق ، طالمـا سعيتم سعي المفسدين ، وسننتم سن الضلال ، فاستوثقوا واستقيموا فوالله لاذيقنكم الهوان ان لم تفعلوا ، ولاضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء ايامى والولدان يتامى .. الا انه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ، لعطلت الثغور ، وما قوتل عدو

وقد بلغني رفضكم المهلب ، وترككم حرب الخوارج ، واني اقسم بالله لا اجد احداً بعد ثلاثة أيام ، قاعداً عن اللحاق بالمهلب الا ضربت عنقـه ، ونهبت داره .

ثم قال :

يا غلام ، اقرأ كتاب امير المؤمنين

فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملـك بن مروان الى من بالكوفة من

المسلمين سلام عليكم »

فلم يقل احد شيئاً

فقال للغلام : اسكت فوالله لأؤدبنهم غير هذا الأدب .. ثم قال : اعد قراءة ما قرأت

ففعل ، فلما بلغ الى قوله : سلام عليكم ، لم يبق احد في المسجد الا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل ودخل دار الامارة ، فدعا وجوه الناس فقال : الحقوا بالمهلب كما امرتكم وأتوني بكتاب منه انكم فعلتم ، ولا تغلقوا ابواب الجسر ، لا ليلاً ولا نهاراً ، حتى تنقضي الايام الثلاثة التي جعلتها أجلا

فلما كان اليوم الثالث ، سمع تكبيراً في السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال :

يا أهل العراق ، اني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله وانما هو تكبير يراد به الترهيب .. أليس فيكم رجل يحسن حقن دمه ، ويعرف موضع قدمه ، اما والله لاوشك ان اوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها

فقام عمير بن ضابىء التميمي ، فقال : اني شيخ كبير عليل ، وابني هـــذا اقوى على الغزو مني

قال : أصاب فالابن خير من أبيه ، ثم قال :

من انت ؟

ـ . عمير بن ضابىء

ـ . أسمعت كلامنا بالأمس ؟

ـ . نعم

ـ . ألست الذي غزا عثمان بن عفان ؟

ـ . بلى

قال : يا عدو الله أفلا الى عثمان بعثت بدلاً .. وما حملك على ذلك ؟
ـ . حبس ابي وكان شيخاً كبيراً .
ـ . أولست انت القائل :

همت ولم افعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

اني لأظن ان في قتلك صلاح الناس .. اضربوا عنقه ، وانهبوا ماله ..

فسقط رأس الشيخ ، بضربة سيف واحدة ، عند قدمي الحجاج

« وقيل ان عنبسة ابن سعيد بن العاص قال للحجاج : أتعرف هذا ؟ قال لا ، قال :

هذا أحد قتلة عثمان

فأمر به عندئذ فضربت عنقه »

وأمر منادياً فنادى : الا ان عميراً اتى بعد ثلاثة أيام ، وكان قد سمع نداءنا ، ولم يلحق بالمهلب فأمرنا بقتله ، الا ان الذمة بريئة ممن لم يأت الليلة ، ويخرج الى القتال ..

فاجتمع الناس عند الجسر ، وتسابقوا الى الخروج

ثم اقبلوا الى المهلب في معسكره ، فأخذوا كتبه يطالع بها الحجاج على مجيء الناس وكان يقول لرجاله :

قدم العراق اليوم رجل .. اليوم قوتل العدو

ولما قتل عمير ، لقي ابراهيم بن عامر الأسدي ، عبدالله بن الزبير « بفتح الزاي وكسر الباء » فسأله عن الخبر ، فقال عبدالله :

أقول لابراهيم لما لقيته اری الأمر اضحى منصباً متشعبا
تجهز واسرع والحق الجيش لا اری سوى الجيش الا في المهالك مذهبا
تخير ، فاما ان تزور ابن ضابیء عميراً واما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من البلج اشهبا

ثم قال الحجاج لأهل الكوفة : دلوني على رجل اوليه الشرطة

فقيل له : اي الرجال تريد ؟

قال : اريد رجل دائم العبوس ، طويل الجلوس ، لا يغضب في الحق على حرة ويهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة

فقالوا : عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي

فأرسل اليه ، فأقبل ، فقال عبد الرحمن :

لست اقبلها الا ان تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك ورجال قصرك

فقال : يا غلام ، ناد :

من طلب من هؤلاء ، الى صاحب الشرطة حاجة واحدة ، فقد برأت الذمة منه .

قال الشعبي : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان اذا اتى برجل نقب حائطاً على قوم ، وضع منقبه في بطنه حتى يخرج من ظهره ، واذا اتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، وربما اقام اربعين وخمسين يوماً لا يؤتى اليه بأحد ...

وضم الحجاج شرطة البصرة الى شرطة الكوفة ثم جعل الحكم بن ايوب الثقفي عاملاً له على البصرة وأمره بأن يشتد على خالد بن عبدالله ، اميرها السابق .

فلما بلغ خالداً الخبر ، خرج من البصرة فنزل الجلحاء

وهذا ذنب لا يسكت عنه الامراء

يعينون للرجل مكانه من الثغر فاذا تركه ، وغاب عنه ، عاقبوه

وهنا يقول الشعبي : كان الرجل ، اذا أخل بالمكان الذي عين له ، نزعت عمامته ، وشهر امره وذلك ايام عمر وعثمان وعلي .

فلما ولي مصعب قال : ما هذا بشيء .. وأضاف عليه حلق الرؤوس واللحى .

فلما ولي بشر بن مروان ، زاد ، فيه وجعل يرفع الرجل عن الارض ، ويسمر في يديه على حائط ، فربما مات ، وربما خرق المسار كفه فسلم

وفي ذلك قال احد الشعراء :

لولا فخامة بشر او عقوبته   وان ينوّط في كفيّ مسمار
اذاً لعطلت ثغري ثم زرتكم   ان المحب لمن يهواه زوار

فلما جاء الحجاج قال : هذا لعب ، اضربوا عنق من يخل بمكانه من الثغر

وليس أهون من ضرب الاعناق ، على الحجاج .

★★★

٥

كان جرير والاخطل الشاعران ، قد تهاجيا ، ولم يلق احدهما صاحبه ، والواحد منهما لا يعرف الآخر

فبينا الأخطل في الخضراء ، عند عبد الملك ، اقبل جرير فاستأذن ، فجاء الحاجب فقال : جرير بالباب يا امير المؤمنين

فأذن له

وقد عرف الأخطل عندئذ جريراً

ودخل جرير فسلم وجلس ، ثم جعل ينظر الى الأخطل ، ثم قال : من هذا يا امير المؤمنين ؟

فطاب لعبد الملك ان يلهو فقال للأخطل :

قل له من انت . . .

قال : انا الذى منعت نومك وقهرت قومك .

قال : ذاك اشقى لك كائناً من كنت

ثم رفع صوته قائلاً : من هذا يا امير المؤمنين ؟

فضحك وقال :

هذا الاخطل يا ابا حزرة

فرد بصره اليه وقال : لا حياك الله يا ابن النصرانية .. اما منعك نومي لو نمت عنك لكان ذلك خيراً لك ، واما قهرك قومي فكيف تقهرهم وانت ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباء بغضب من الله ... ائذن لي يا امير المؤمنين في ابن النصرانية ..

قال : لا يكون ذلك بين يدي

فوثب جرير مغضباً ، واستأذن وخرج

فقال عبد الملك : قم يا اخطل واتبع صاحبك .

فخرج الاخطل

فقال الخليفة لغلام له : انظر ما يصنعان ، اذا وقعت العين على العين

وكان جرير قد دعا غلامه فقدم اليه فرساً له ادهم فركبه وهدر والفرس يطير من تحته

ولاذ الاخطل بالباب ، وتوارى خلفه ، حتي انصرف جرير

فدخل الخادم فخبر عبد الملك ، فضحك وقال :

قاتل الله جريراً ما افحله اما والله لو كان النصراني برز اليه لأكله

وخطر له عندئذ ان ينصب الموائد يطعم الناس ، قبل ان ينصرف الجيش الذاهب الى القيروان

فأمر بالطعام فصنع ، وكان كثيراً طيباً ، ونادى مناديه في اليوم الثاني : الموائد قد نصبت

وتلك كانت عادة عبد الملك

فأكل الناس ، وأمير المؤمنين معهم وقد اذن لهم فتحدثوا وارتفعت الاصوات

وسمع احدهم يقول : ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى ان احداً رأى اكثر منه ولا أكل اطيب منه

فقال اعرابي : اما اكثر فلا ، واما اطيب فقد أكلت والله اطيب منه

وطفقوا يضحكون من قوله

فأشار اليه عبد الملك بأن يدنو منه

ففعل ، فقال له : ما انت بمحق فيما تقول الا ان تخبرنا بما يبين به صدقك

قال : نعم يا امير المؤمنين ، بينا أنا بهجر ، في ترب احمر ، توفي ابي وترك عيالاً وصبياناً .. وكان له نخل بينها نخلة لم ينظر الناظرون الى مثلها ولم ير تمر قط اغلظ منه ولا اصلب ولا اصغر نوى ولا احلى حلاوة منه

وكانت تطرقها اتان وحشية قد ألفتها تأوي الليل تحتها ، فكانت تثبت رجلها في اصلها وترفع يديها وتتناول بفمها فلا تترك الا القليل والمتفرق

فأعظمني ذلك يا امير المؤمنين ووقع مني كل موقع ، فانطلقت بقوسي واسهمي وانا اظن اني ارجع من ساعتي

ولكني مكثت يوماً وليلة لا أراها حتى كان السحر ، فأقبلت ، فتهيأت لها فرميتها فأصبتها واجهزت عليها

فقال عبد الملك :

انك فصيح اللسان يا اعرابي تحسن الوصف .. ثم ماذا ؟

ـ . ثم عمدت الى سرتها فأفريتها ، وجمعت حطباً الى حجر كبير واضرمت النار في ذلك الحطب والقيت السرة فيه .. وادركني نوم السبات ، فلم يوقظني الا حر الشمس في ظهري ، فانطلقت اليها فكشفتها والقيت ما عليها من سواد ورماد حتى قلبت مثل الملاءة البيضاء ، فألقيت عليها التمر وأقبلت اتناول الشحمة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوي الى فمي ، فبما احلف يـا امير المؤمنين اني ما أكلت طعاماً مثله قط .

قال : اصبت فقد أكلت طعاماً طيباً ، فمن انت ؟

ـ . من اهل اليمن

ـ . من أيهم ؟

ـ . من اخوالك بني عذرة

قال : اولئك فصحاء الناس فهل لك علم بالشعر ؟

قال : سلني عما بدا لك يا امير المؤمنين .

قال : أي بيت قالته العرب أمدح ؟

— : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح

« والبيت من قصيدة مدح بها جرير عبد الملك ، وقد قرأت بعض أبياتها في « محمد وام كلثوم »

وكان جرير بين القوم ، فرفع رأسه وتطاول

ثم قال عبد الملك :

فأي بيت قالته العرب أفخر ؟

— . قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

فتحرك على مقعده ثم قال : فأي بيت أهجى ؟

— . قول جرير :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فاهتز لها جرير وطرب .

ثم قال عبد الملك : فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً ؟

— . قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه   قناديل فيهن الذبال المفتل

فرفع جرير صوته قائلاً : جائزتي لهذا الرجل يا امير المؤمنين .

فقال :

وله مثلها من بيت المال ولك جائزتك يا جرير لا تنقص اعطوا جريراً اربعة آلاف درهم وطائفة من الحلان ، وكسرة ، واعطوا العذري مثلها .

فخرج الرجل ومعـه ثمانية آلاف درهم وما يتبعها ، وطابت نفس جرير ،

بعد ذالك الحادث الذي جرى له مع الاخطل ، في مجلس عبد الملك

وفي صباح اليوم الثاني ، خرج حسان بن النعمان الى ساحة الخضراء ، ووراءه الجيش الزاحف الى افريقيا ، ليقوم هو وقواده ، بواجب التوديع

فنزل امير المؤمنين من القصر ، يشيع رجاله ، وينفخ في الصدور روح العزية والاستخفاف بالموت ، وحوله وزراؤه ورجال دولته ، والحرس الخاص .

وجعل يعرض الجنود ، وهو ينظر الى الصفوف واحداً بعد واحد ، حتى وقعت عينه على صف في المقدمة

فتنحى ، ثم دعا ابا زرعة ، كاتبه على الرسائل وهامسه قائلا : اعط امية ما امرناك به

ثم قال لقبيصة بن ذؤيب : قل لحسان ما اوصيناك بقوله واحذر ان تذكر اسم أمير المؤمنين .. اذهب الآن ...

فسار قبيصة حتى دنا القائد فقال : لي كلمة لا اريد ان يسمعها احد

فقال : امش معي

فمشيا ، حتى ابتعدا عن الصفوف ، فقال ابن ذؤيب : اوصيك بأن لا تغفل عن أمية بن عمرو وأخيه سعيد ، وعن ذلك الفتى الذي يرافقها وهو يدعى محمداً ..

قال : اعرف الثلاثة ، ولكن ما هي هذه الوصية ؟

— . ان ذلك سر من اسراري فلا تسألني عنه

— . وليس لي ان اعلم الغاية من وصيتك ؟

— . لك ان تذكر دائماً اني اوصيتك .. وان الفتيان الثلاثة وديعة بين يديك ، لا يرجعون الى دمشق الا عندما تعود انت

— . واذا قتلهم احد في الساحة ؟

— . ان الله وحده يحيي ويميت ..

فأطرق ملياً ثم قال : يظهر ان امير المؤمنين يريد ذلك
قال : يا حسان ، اعهد اليك امير المؤمنين في شيء من هذا ؟
— . لا
— . أذكر لك هؤلاء الفتيان ؟
— . لا
— . الا يستطيع وهو ولي النعمة ، وخليفة المسلمين ، ان يأمرك بما يخطر له ، دون ان يستعين بي
— . بلى
— . اذن فاحذر ان تذكر اسمه ، لأن ليس له رأي فيما اوصيتك ، وهو لا يعلم شيئاً منه
قال : آمنت الآن بأنها وصيتك .. وسأكون عند حسن ظنك ..
ورجع الى مكانه ، وهو يقول في نفسه : ذلك غرض من اغراض الخليفة لا اعرف ما هو
وكان ابو زرعة قد اتى أمية وسعيداً ، ومحمد بينهما والكآبة على وجهه ..
فقال لأمية : لقد اراد امير المؤمنين ان يحسن اليك ، والى محمد وسعيد ، قبل ان تغادروا دمشق ، فأمرني بأن اعطي كل واحد منكم عشرة آلاف ، وهذه هي ...
فهم سعيد بأن يرفع صوته ، فقال ابو زرعة : اخفض صوتك ، فوالله لئن علم احد بما اقول لضرب امير المؤمنين عنقي على مرأى من الجيش
فهامسه قائلاً لقد احاطنا امير المؤمنين بفضله ونحن لا نستحقه .
قال : لم يهب امير المؤمنين مـــاله قط ، الا للمخلصين الصادقين في خدمته .
— . ونحن من هؤلاء يا ابا زرعة ؟
— . لو لم تكونوا منهم لما فعل ..
قال : ان الأمير سليمان واخويه ، انجال امير المؤمنين ، ذاهبون مثلنا الى

القتال ، وهم اولى بهذا المال منا

— . لك ان تقول ذلك لأمير المؤمنين نفسه ..

— . ولكن لم ارَ بين الصفوف ، الامراء الذين ذكرت ..

قال : سيلحقون بالجيش الى مصر .

— . وما يمنعهم من ان يتقدموا هذاالجيش ؟

— . لم أحدّث امير المؤمنين بالأمر ..

فتجلد الفتى ، وأملت عليه الحكمة ان يكف عن السؤال

ثم قال وهو يبتسم : معك الآن عشرة آلاف لكل واحد منا ..

— . نعم

— . وأين هي ؟

فناوله صرة فيها ثلاثون الفاً

فأخذها وقال : لقد وهب لنا امير المؤمنين هذا المال ونحن نهبه لـــك فخذه ، بارك الله لك فيه ..

قال : ترد عطية امير المؤمنين يا ابن عمرو؟

قال : اخطأت ، فهذه عطيته في يدي ، وقد اخذتها ، وانا اهبها لمن اشاء لانها اصبحت ملكاً لي ..

فرأى ابو زرعة ان الصواب فيما يقول ، فقال : ولماذا تهبها ؟

— . لأن ابي عودني ان اهب الناس مما املك ..

فتردد الرجل فقال سعيد : والله لئن لم تأخذها لأنثرتها على الناس ..

فمد يده فتناول الصرة والاعجاب يملأ نفسه

وحول الفتيان الثلاثة وجوههم عنه كأنهم لم يروه

ثم قال امية : فعلها عبد الملك ، فسليمان واخواه لن يسيروا الى القيروان ، ودماء الناس يجب ان تبذل من اجله

فاسكته سعيد قائلاً : قل انك ستبذل دمك من اجل الخلافة .. لقد مضى ما مضى ، وسننظر في الأمر ، ان بقينا ، ونحن في القيروان

فقال محمد :

كان علينا ان نعتذر عندما ندبنا عبد الملك الى القتال

— . نعم ، تعتذر .. ثم تموت بعد اعتـــذارك ... امشوا ... وتوكلوا على الله

ثم تنهد قائلا : نسينا دم ابينا .. ولكن عبد الملك لم ينس

وفاته ان العبد الخائن ، نقل اقوالهم الى عبد الملك ، يوم تحدثوا ، وهم في منزلهم بأمر الرجل الى القيروان ، مع حسان بن النعمان ..

ومشى الجيش بعد ساعة ، والنساء الثلاث ، ام امية ، وام محمـــد ، وام كلثوم ، على سطح منزلهن يشيعنه بالدموع .

وكان الفتيان الثلاثة يتلفتون ، ومحمد يضطرب على فرسه .. والبكاء يتردد في صدره .



٦

رجع عبد الملك الى الخضراء فجلس للناس ثم صرفهم بعد ساعة

وبقي في المجلس ابنه الوليد ، وروح ابن زنباع ، ورجاء بن حيوة ، وأبو زرعة ، وسرجون ، وقائد الحرس

وكان ابن ذؤيب ، قد خبره بما قاله حسان

فقال لأبي زرعة : ماذا صنعت انت ؟

قال : يا امير المؤمنين ، لقد انزلت الي السماء اليوم ، ثلاثين الف درهم هي في حزامي الآن ..

قال : ويلك ، ألم تسلمها الى امية بن عمرو ؟

— . بلى يا امير المؤمنين ، سلمتها الى أخيه ، فوهبها لي ، وأمية ومحمد بن

عبدالله ، حاضران

فغضب قائلاً : انها حيلة من حيلك ، لجأت اليها لتحتفظ بالمال .. خبرنا ما حدث لك ولا تنس كلمة

— . قلت لأمية ، ان أمير المؤمنين أراد ان يحسن اليكم فبعث معي بثلاثين الف درهم لكل واحد منكم عشرة آلاف ، فقال سعيد : اعطني المال، فلما تناوله قال : انها عطية أمير المؤمنين نأخذها شاكرين ثم نهبها لمن نشاء وقد وهبناها لك ..

— . واخذتها يا لعين ؟

— . حلف الفتى انه سينثرها على الناس .. وكان يقول : عودني ابي ان أهب للناس مما املك ..

— . وبعد ذلك ؟

— . اخذت الصرة ورجعت ، ولو لم أفعل ، لفضح سعيد أمرها وأمير المؤمنين يؤثر الكتمان ..

فأطرق عبد الملك يفكر في الأمر

فقال روح بن زنباع : قد يكون الفتى جواداً مثل جده سعيد بن العاص .

— . وتسمي هذا العمل جوداً يا ابن زنباع ؟

— . نعم يا مولاي ، انه جود يشبه جود جده سعيد ، في حادثة مثل هذه، جرت بينه وبين امير المؤمنين معاوية

— . وكيف ذلك ؟

قال : مرض سعيد وهو في دمشق ، فمشى اليه معاوية يريد ان يعوده ، ومعه شرحبيل بن السمط ، ومسلم بن السمط ، ومسلم بن عقبة ، ويزيد بن شجرة .

فلما رأى سعيد معاوية ، وثب من فراشه اعظاماً له ، وهو مريض لا يستطيع النهوض فقال معاوية :

اقسمت عليك أبا عثمان ان لا تتحرك فقد ضعفت بالعلة وانت عاجز عن المشي ..

وكان معاوية صادقاً في قوله فان سعيداً لم يلبث حتى سقط عند الفراش .

فحنا معاوية عليه ، وأخذه بيده فأقعده على فراشه ثم جعل يسأله عن علته ومنامه وغذائه ، ويصف له ما ينبغي ان يتوقاه

واطال القعود ، فلما خرج ، قال لشرحبيل : هل رأيت في مـــال ابي عثمان خللاً ؟

قال : لا

— . وانت يا ابن شجرة ؟

— . لم ارَ شيئاً انكره يا امير المؤمنين

— . فقال لمسلم : ما تقول انت ؟

— . اما انا فقد رأيت

— . ماذا ؟

قال : رأيت على حشمه ومواليه ثياباً قـــذرة ، ورأيت صحن داره غير مكنوس ، ورأيت التجار يخاصمون صاحب ما له

قال : صدقت ، كل ذلك قد رأيناه

فلما انتهى الى القصر قال لمسلم : اترى ان نرسل الى سعيد شيئاً من المال ؟

— . اذا اردت يا امير المؤمنين

قال : خذ ثلثمائة الف درهم واعطه اياها

فحملها ابن عقبة ، وسبقه رسول يبشره بها ويخبره بما كان

فغضب سعيد وقال للرسول : ان صاحبك ابن عقبة ظن انه أحسن فأساء.. وأراد خيراً فأخطأ ، . فأما وسخ ثياب العبيد والغلمان فمن كثرة الحركة والرواح والمجيء ... وأما كنس الدار فليست اخلاقنا اخلاق من جعل داره مرآة له ثم لا يبالي بمن مات ، محتاجاً من قومه .. وأما قهرمـــان الدار ،

وخصومة التجار ، فمن كثرة الحوائج والبيع والشراء ، والقهرمان لا يجد بداً من ان يكون ظالماً او مظلوماً ..

ثم قال : واما المال الذي أمر به أمير المؤمنين ، فقد قبلناه شاكرين وأمرنا لصاحبك منه ، بمئة الف ، وهو يعني مسلم بن عقبة ، ولشرحبيل بن السمط مثلها ، وليزيد بن شجرة بمثلها ، وفي سعـــة الله وعلى جود أمير المؤمنين معولنا ..

فعاد مسلم الى معاوية فخبره ، فقال : صدق ابن عمي فيما قال ، وأخطأت فيما انهيت اليه

ثم قال : لقد جعلنا نصيبك من المال لروح بن زنباع عقوبة لك ، فانه من جنى جناية عوقب بمثلها ، كما انه من فعل خيراً كوفيء عليه ..

فقال عبد الملك : وأعطاك معاوية مئة الف ؟

— . نعم يا أمير المؤمنين وقد قال لي : امسى المال مال سعيد بن العاص يهبه لمن يشاء ولكن مسلماً لا يتناول منه درهماً

قال : ليس فيما صنعه سعيد شيء من الجود ..

— . وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

— . انها كبرياء ... ومع ذلك فنحن نحب الرجل الجواد . قص علينا حكاية اخرى من حكايات جوده

قال :

كان معاوية يديل بين سعيد ، وبين امير المؤمنين مروان ، في ولاية المدينة ، ينتزع الولاية من أبيك ليعطيها سعيداً ثم ينتزعهـــا من سعيد ليولي اباك

ـ. نعرف هذا

ـ . فدخل سعيد يوماً على معاوية ، وابوك أمير المؤمنين مروان ، امير المدينة ، فقال له معاوية وهو يضحك : كيف تركت ابا عبد الملك ؟

قال : تركته منفذاً لأمرك مصلحاً لعملك

فقال معاوية عندئذ كلاماً لا اقوله الا اذا اذنت لي

فقال عبد الملك : قل ما تعلم

قال : ان أبا عبد الملك كصاحب الخبزة كفّى انضاجها فأكلها

— . وكنت انت حاضراً يا ابن زنباع ؟

— . نعم يا أمير المؤمنين

— . وقال ذلك معاوية ؟

— . نعم ، ولكن سعيداً ، قال : كلا يا أمير المؤمنين ، ان مروان من قوم لا يأكلون الا ما حصدوا ، ولا يحصدون الا ما زرعوا

فأشرق جبين عبد الملك وقال : هذا قول العربي الشريف ... ثم ماذا ؟

— . ثم قال معاوية : وما الذي باعد بينك وبينه ؟

قال : خفته على شرفي وخافني على مثله

— . وأي شيء كان له عندك ؟

— . أسوءه حاضراً واسرّه غائباً

قال : يا أبا عثمان ، لقد تركتنا في هذه الحروب

قال : حملت الثقل ، وكفيت الحزم

— . وما ابطأ بك ؟

— . غناؤك عني ابطأني عنك ، وكنت قريباً ، لو دعوت لأجبناك ولو أمرت لأطعناك ..

فالتفت معاوية الى اهل الشام قائلا : هؤلاء قومي وهذا كلامهم ، ثم قال له : خبرني عن مالك فقد قيل لي انه قل

قال : يا أمير المؤمنين ، لنا مال يخرج لنا منه فضل ، فاذا كان ما خرج قليلا انفقناه على قلته ، وان كان كثيراً فكذلك ، ونحن لا ندخر منه شيئاً لا عن فقير ، ولا طالب ، ولا نستأثر منه بقطعة لحم ، او مزعة شحم ...

قال : فكم يدوم لك هذا ؟

— . من السنة نصفها

— . وما تصنع في باقيها

— . نجد عندئذ من يسارع الى اعطائنا المال

قال : ما احد احوج الى ان يصلح من شأنه منك

قال : ان شأننا لصالح يا امير المؤمنين ، ولو زدت في مالي مثله ، ما كنت الا بمثل هذه الحال

فقال معاوية : اعطوه خمسين الف درهم تشتري بهـــا ضيعة تعينك على مروءتك .

فقال سعيد :

بل أشتري بها حمداً وذكراً باقياً .. اطعم بها الجائع ، وازوج بها اليتيم ، وأفك بها العاني ، وأصلح بها حال الجار .

فجعل معاوية يهز رأسه ويقول : ما فضيلة بعد الايمان بالله ، هي ارفع في الذكر من الجود ، وحسبك ان الله تعالى جعل الجود آخر صفاته ..

وكان عبد الملك ، يصغي الى وزيره ، وهو يتألم .

لقد كان سعيد بن العاص ، عدو ابيه كما رأيت ، وكان ابنه ، عمرو بن سعيد ، ينازعه الخلافة ، وابن زنباع ، الذي تعود ان يجالس الخلفاء ويماشيهم في الهوى ، يذكر جود سعيد ويصف اخلاقه ولا يبالي

ولكنه وهو الخليفة الداهية ، لا يريد ان يدل رجال بلاطه جميعهم على غاية نفسه ، بل هو لا يريد ان يظهر للناس ان في صدره ما فيه

فقال والابتسامة على شفتيه : يا ابا زرعة ، أتعرف لماذا قال لك سعيد بن عمرو ان اباه عوده البذل ؟

فأجابه وهو يبتسم مثله : اني لا اعلم شيئاً من بذل ابيه ..

— . ولكن ابن زنباع يعلم .. أتذكر حكاية اخرى من حكايات سعيد ، في حياته وبعد موته ؟

فسمع روح لهجة جديدة ، فيها الاستخفاف واللوم فقال :

لم اقص على امير المؤمنين شيئاً غريباً عنه .. ذلك ما كان يتحدث به الناس ، ذكرته لك ، ليخف غضبك على الفتى الذي وهب مـــا احسنت به اليه ..

قال : يطيب لنا ان نسمع اخبار الكرم من افواه الناس ، ولو كان اصحابه اعداء لنا ، ولكن بني عمرو بن سعيد ليسوا من الاعداء وانما هم من الانسباء .. والماضي قد نسيناه .. هات ما عندك ..

– . لم يبق عندي ما اقوله يا أمير المؤمنين

قال : كم هم اجواد الحجاز ؟

– . ثلاثة ، عبيدالله بن العباس ، وعبدالله بن جعفر ، وهو باق ، وسعيد بن العاص .

قال : هات من اخبار بن العباس

– . يعلم عنه أمير المؤمنين ما لا نعلم

– . كنا نسمع اخباره ونحن في مكة ، اما اليوم فلا نذكر شيئاً مما سمعناه ونظن انه أجود المسلمين

– . بل هو أجود أهل الحجاز ..

فقال رجاء بن حيوة :

اظن انه أول من وضع الموائد على الطرق وفيه يقول شاعر المدينة :

وفي السنة الشهباء اطعمت حامضاً ... وحلواً ولحماً تامكاً وممزعا

وانت ربيع لليتامى وعصمـــة ... ذاالمحل من جو السماء تطلعا

ابوك ابو الفضل الذي كان رحمة ... وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

– . أجل هذا ما قيل فيه وأراك عالماً بأخباره ... هات أيضاً

قال : اتاه رجل وهو بفناء داره فقال له : يا ابن عباس ان لي عندك يداً وقد احتجت اليها

فجعل ينظر اليه ، فلم يعرفه ، فقال : ما يدك عندنا ؟

قال : رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يستخرج لك الماء وقد صهرتك الشمس فظللتك بطرف كسائي حتى شربت !

قال : اني لأذكر ذلك وانه يتردد بين خاطري وفكري ، يا غلام ، ما عندك ؟

قال : مئتا دينار وعشرة آلاف درهم

قال : ادفعها اليه وما اراها تفي بحق يده عندنا

فأعطاه الغلام ثلاثين الفاً ..

فقال له الرجل : والله لو لم يكن لاسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ ، ثم شفعك به وبأبيك .

فالتفت عبد الملك الى ابن زنباع قائلاً : ارأيت الجود ... هذا هو .. قص علينا ايضاً يا ابن حيوة

— . اقص حكاية اغرب من هذه يا امير المؤمنين

— . ما هي ؟

قال : حبس معاوية عن الحسين بن علي عطاياه ، حتى ضاقت عليه حاله ، فقال له بعضهم :

اذكر ذلك لابن عمك فان عنده اليوم ، الف الف درهم

فقال الحسين : وأين تقع الف الف من عبيدالله، فوا الله لهو أجود من الريح اذا عصفت وأسخى من البحر اذا زخر ..

ثم بعث اليه بكتاب يذكر فيه جفاء معاوية ، وحاجته ، وقد ضاقت حاله ، الى مئة الف درهم

فلما قرأ عبيد الكتاب ، وكان من أرق الناس قلباً وألينهم عطفاً ، دمعت عيناه ثم قال :

ويلك يا معاوية ما اجترعت يداك من الاثم حين اصبحت لين المهاد ،رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال .. ثم قال لقهرمانه :
احمل الى الحسين نصف ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابة ، وخبره اني شاطرته مالي ، فان رضي بذلك والا فارجع واحمل اليه الشطر الآخر
فقال القهرمان :
وهذه المؤن التي عليك كيف تقوم بها ؟
قال : اذا بلغنا ذلك دللتك على امر يقيم حالك
فلما حمل الرسول ما امره به الى الحسين قال : حملت والله ابن عمي ما لا يستطيع رجل حمله وما حسبت انه يتسع لنا بهذا كله
فقال عبد الملك :
اسمع يا ابن زنباع . واذكر ما فعله صاحبك سعيد بن العاص .. حكاية اخرى أغرب من هذه يا رجاء
قال : ان معاوية بن ابي سفيان، اهدى الى ابن عباس ، وهو عنده بالشام، حللاً كثيرة ، ومسكاً ، وآنية من فضة وذهب ، ووجهها اليه مع حاجبه .
فلما وضعها الحاجب بين يديه ، جعل ينظر اليه ، والحاجب ينظر اليها وقد اشتهاها ، فقال :
هل في نفسك منها شيء ؟
قال : نعم ، والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من ابنه يوسف عليهما السلام
فضحك عبيد الله وقال: شأنك بها فهي لك
قال : جعلت فداءك اخاف ان يبلغ ذلك معاوية
قال : اختمها بخاتمك وادفعها الى خازني فاذا كان الليل حملها اليك دون ان يعلم أحد
فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة في الكرم ، أعظم من الكرم نفسه ،

ولوددت اني لا اموت حتى اراك على العرش .

فظن ابن عباس انها مكيدة منه ، فقال : دع عنك هذا الكلام فنحن قوم نفي بما وعدنا ولا ننكث عهداً ..

فارتاحت نفس الخليفة وقال :

حجب جود ابن عباس ، جميع بني العاص ... ألا تعرف انت شيئاً من اخبار عبيدالله يا ابا زرعة ؟

ـ . بلى يا أمير المؤمنين ..

ـ . ماذا ؟

قال : اتاه سائل وهو لا يعرفه فقال : تصدق فاني نبئت ان عبيدالله ابن عباس اعطى سائلاً ألف درهم ، واعتذر اليه ، دون ان يعلم من هو

فقال له : وأين انا من عبيدالله ؟

قال : اين انت منه في الحسب أم في كثرة المال ؟

ـ . فيهما

فقال : اما الحسب في الرجل فمرؤته وفعله ، فاذا شئت فعلت ، واذا فعلت كنت من اهل النسب

فأعطاه الفي درهم واعتذر اليه

فقال السائل : ان لم تكن عبيدالله بن عباس فأنت خير منه ، وان كنت هو ، فأنت اليوم خير منك امس

فأعطاه الفاً اخرى

فقال السائل : هذه هزة كريم حسيب ووالله لقد نفرت حبة قلبي فأفرغتها في قلبك ..

فقال أمير المؤمنين عندئذ للوليد :

في كل خبر من اخبار عبيدالله شيء جديد .. فان شئت فاحفظ ما سمعت ..

قال : حفظته ، وعندي ايضاً ما أرويه

ـ . وما ذاك ؟

قال : جاءه رجل من الانصار فقال له :

يا ابن عم رسول الله ، لقد ولد لي في هذه الليلة مولود ، فسميته باسمك ، تبركاً مني به وان امه قد ماتت

فقال عبيدالله : بارك الله لك في الهبة ، وأجزل لك الاجر على المصيبة ، ثم دعا غلامه فقال :

انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحتضنه وادفع الى ابيه مئتي دينار للنفقة على تربيته ، ثم قال للانصاري : عد الينا بعد ايام فانك اتيتنا وفي المال قلة ..

فقال الرجل : لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب ، ابداً ، ولكنه سبقك فصرت له ثانياً وأنا اشهد ان عفوك اكثر من مجهوده ، وطل كرمك اكثر من وابله

فقال عبد الملك :

اي والله صدق الانصاري فقد كان عبيدالله اكرم من حاتم ولكنه سبقه فتحدث به الناس .. اسمعوا الآن لماذا قال سعيد بن عمرو ان اباه عوده البذل

فأصغى القوم ، فقال : كان الرجل يأتي سعيد بن العاص يسأله فلا يكون عنده شيء ، فيقول له : ما عندي ، ولكني اكتب علي كتاباً به

ويكتب الكتاب ثم يقول لمن حوله :

اروني اخذت منه ثمن كتابي ، لا ، ولكن يجيء فيسألني ، فينزو دم وجهه في وجهي ، فأكره ان ارده

فاتاه مولى لقريش ، بابن مولاه وهو غلام فقال : ان ابا هذا الغلام قد هلك ولقد أردنا تزويجه

قال : ليس عندي ما أعطيه اياه الآن ولكن خذ ما شئت في اماني
فلما مات سعيد ، جاء الرجل إلى عمرو ابنه فقال : أتيت أباك بابن فلان .. وخبره القصة

فقال له عمرو : كم أخذت في امانته ؟

قال : عشرة آلاف

فالتفت الى اهل بيته قائلاً : من رأى اعجز من هذا .. يقول له سعيد ،خذ ما شئت في اماني ، فيأخذ عشرة آلاف .. لو اخذ مئة ألف لأديتها عنه .

ذلك هو جود عمرو بن سعيد وبذله . . يدفع الى الناس ، ما كان في امانة ابيه الميت ، فيجيء ابن له فيقول : ءودني ابي بذل المال .. ووالله لم يكن هذا بذلاً وانما هو تأدية الأمانة ... اسمعوا أيضاً خبراً آخر يدلكم على كرمه :

نقل الي عروة بن الزبير ، من زمن ليس بالقصير ، ان سعيداً لمـــا حضرته الوفاة ، وهو في قصره ، قال له ابنه عمرو : لو نزلت الى المدينـــة ... فقال له :

يا بني ، ان قومي لن يضنوا علي بأن يحملوا جثتي على رقابهم ساعة من نهار، فاذا انا مت فادفني بالبقيع ثم انطلق الى معاوية فانعني له ، واذكر له ديني ، واعلم انه سيعرض عليك قضاءه ، ولكن لا تفعل ، بل اعرض عليه قصري هذا فليشتره منك فاني انما أتخذته نزهة وليس بمال .

فلما مات آذن به الناس فحملوه من قصره حتى دفن ، وعزى الناس عمرواً وودعوه ، ثم انطلق الى معاوية فكان هو اول من نعاه له

فتوجع معاوية وترحم عليه ، ثم قال : هل ترك ديناً ؟

قال : نعم ، ثلاثمائة الف

— هي علي

فقال عمرو : قد ظن ذلك فأمرني ان لا اقبله منك ، وان أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه فيكون قضاء دينه منه

قال ، فاعرض علي

قال : قصره بالعرصة

قال : اخذته بدينه

فسأله عمرو ان يحمل المال الى المدينة ، فحمل ، وفرقه في اصحاب الدين ، من اهل الحجاز

ثم أتاه شاب من قريش ، بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة أحد مواليه عليه

فأرسل عمرو الى مولى ابيه فأقرأه الصك فقال : نعم هذا خطه وهـذه شهادتي عليه

فقال : كيف يكون لهذا الفتى ، على ابي ، عشرون الف درهم وهو صعلوك من صعاليك قريش ؟

قال : مر ابوك بعد عزله عن امارة المدينة ، فعرض له هذا الفتى فمشى معه حتى انتهى الى منزله .

فقال له : ألك حاجة ؟

قال : لا ولكني رأيتك تمشي وحدك ، فأحببت ان أسير وراءك واصل جناحك .

فقال له ابوك : ائتني بصحيفة

فأتاه بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين وقال : انك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فاذا انعم الله علينا بشيء ، فأتنا . فقال عمرو : اذن فأعطه اياها

ثم قال لهم عبد الملك : أفرأيتم كيف كان عمرو بن سعيد يبذل ماله ؟

فقال ابن زنباع :

لم يأخذ الناس درهماً واحداً من مال عمرو ، وجميع من في المدينة يشهدون ،

ان اباك امير المؤمنين مروان كان أجود العرب

فنظر اليه وجعل يضحك

فأرخى الرجل نظره الى الأرض حياء وخجلا

فقال عبد الملك انك يا ابن زنباع رجل السياسة والحرب ، ولكنك ضعف الذاكرة قصير النظر وهذا ما يقوله هذا الرومي .. أليس كذلك يا سرجون ؟

قال : لو كانت عندي الجرأة لقلت ذلك قبل ان يقوله امير المؤمنين ...

فضحك طويلاً ثم نهض قائلاً : الجود ... نعم ان الجود صفة من صفات الله عزوجل ، فاذا قدرتم فكونوا اجواداً ..

ونهض فتفرقوا ، والكآبة على جبين ابن زنباع ، وقد ندم على ما كان منه ، ولكنه كان موقناً ، بأن عبد الملك الذي غضب عند الصباح ، سيبتسم لـه ويزول غضبه عند غروب الشمس ..

بل كان موقناً بأنه أعز عليه من جميع رجال البلاط ..



٧

لم يدخل افريقيا قط ، جيش مثل جيش حسان بن النعمان ، في عدله وعدده ، وكثرة قواده ورجاله

فلما انتهى الى القيروان ، جعل حسان يسأل المسلمين المقيمين بها ، عن امراء القطر الافريقي الواسع ، الذين لم يخضعوا للجيش الفاتح

ويستشيرهم في امر الغزو ، وينظر معهم في الوسائل ، التي يستطيع بها قهر البربر المنتشرين في القرى ، والمدن والجبال

وليس البربر وحدهم اعداء المسلمين ، وانما هنالك شعب آخر له القوة والمال

والسلطان هو شعب الروم

وفي مدينة قرطاجنة ، جند كثير من الشعبين وصاحبها ، اعظم امراء افريقيا شأناً ، وابعدهم صوتاً

فقال الناس لحسان : ابدأ بقرطاجنة ، فهي حضن القوم ، ودار عزهم ، وعشائر البربر تأتيها من كل ناحية ، وهي على طاعة الرومان

ثم قالوا : فاذا ظفرت ، فامش الى قتال المرأة التي جلست على عرش البربر ، بعد مقتل سيدهم كسيلة ، واجتمع حولها الناس

قال : وبأي بلد تقيم ؟

ـ . بجبل يقال له اوراس وهو أمنع مقام لها ولأهلها

ـ . واذا انتهى أمرها ؟

ـ . دانت لك هذه الاقاليم كلها دون استثناء

وكان الى جانبه ، امية بن عمرو ، واخوه سعيد ، ومحمد الكناني ، وقد جعلهم من حراسه ... فقال : ماذا ترى يا امية ؟

قال : اني غريب كما ترى ، وليس لي خبرة بالقتال ، فأنا ، وأخي ، ومحمد ، لا نحسن غير ركوب الخيل وضرب السيف

ـ . ولكننا نسألك رأيك في الزحف الى قرطاجنة

ـ . انك أمير هذا الجيش وقائده ، فاذا مشيت الى اقاصي الأرض مشينا وراءك دون ان نسألك

ـ . وتقول يا سعيد مثله ؟

قال : نجرد السيف ونغمده بكلمة منك فمر بما تشاء

ـ . والحرب ؟

ـ . اما الحرب فستخرج منها ظافراً ان شاء الله

قال : أعهد اليكم في أمر ارجو الا تخالفوه

ـ . ما هو ايها الأمير ؟

ـ . هو ان تسيروا ، وأنتم في الساحة ، الى حيث أسير ، وتقفوا عندما اقف .

ـ . ولا نغير مع الخيل ؟

ـ تفعلون ذلك اذا امرتكم به

ـ . خير انا ان نفعل ما يفعله الحرس والا فنحن جبناء

ـ . بل خير لكم ان تكونوا كما وصفت ، من ان تخرجوا عن الطاعة

فقال محمد : ايأذن لي الامير ان اتكلم ؟

ـ . قل

ـ . ما هي الغاية من بقائنا الى جانبك ؟

قال : أنصح لك يا بني بأن لا تسأل قائدك مثل هذا السؤال مرة اخرى .. يقول لك ابق فتبقى ، او سر فتسير غير متردد في الطاعة ولو كان وراءها الموت .

فقال الفتى وهو هادىء : لو لم يخطر لي خاطر لما سألتك

فرأى الأمير ان يخفي مظاهر استيائه ، فقال وهو يبتسم له : ماذا خطر لك ؟

ـ . خطر لي انك تخاف ان نقتل في الحرب ، وانت تريد ان نعيش

ـ . اصبت فأنا قد فكرت في ذلك

ـ . ولكننا فتيان لا نريد الا ان نخوض المجال ، ونخضب السيوف بدماء الأعداء .. أجل ، انها المرة الأولى التي نشهد فيها القتال ، ولكن يجب ان يعلم المسلمون اننا من الأبطال ..

ـ . قلت يا بني انك لم تشهد الحرب

ـ . نعم

ـ . اذن فاصغ الي اصفها لك .. يصطف الجيشان ثم تغير الخيل على الخيل ، وتتلاحم السيوف والأسنة ، والقائد مشرف على جنده ، يأمر صفوف اليسار بان تسير الى الجناح الأيمن ، وصفوف اليمين الى الجناح الأيسر .. وقد يأمر

بجيشه كله بان يتراجع الى الموضع الذي يسميه له ، أو يهجم هجوم رجل واحد الى قلب العدو .. أو يدور حول عدوه والأسنة في النحور .. وهكذا . حتى يبسم النصر لواحد من الجيشين ، ويتمشى الذعر في صفوف الجيش الآخر فيفر.. ولكن أتعلم من يحمل أوامر القائد الى رجاله ..؟

ـ . لا

ـ . تحملها جماعة من الحراس تحيط بالامير من النواحي الاربع ، وهو يثق بها الوثوق كله ، وهي تذود عنه ، وتفرق الرجال عن المكان الذي يشرف عليه .. وانتم من افراد هذه الجماعة التي يعلق الامير عليها أمله .. أفهمت الآن .

ـ . اذن فنحن لا نشهر سيفاً ولا نضرب ضربة .

ـ . بل انتم الذين لا تغمدون السيوف

ـ . وكيف ذلك ايها الامير ؟

ـ . قد يتصدى لكم عدوكم وانتم سائرون من مكان الى آخر فلا ينجيكم الا السيف .. والحرس ، هم حصن الامير ، وسياج الجيش ، والقوة التي تحسن الدفاع عن الشرف ..

والتفت الى الأخوين قائلا : هل لكما ما تقولان ؟

فقال سعيد : نصنع ما تأمرنا به دون ان نقول كلمة

فقال لمن حضر من أهل القيروان : صفوا لي الآن قرطاجنة

فجعلوا يصفونها له ، باسوارها ، وابراجها ، وعظمتها وشدة رجالها ، حتى اسكتهم قائلا : كفى فنحن زاحفون اليها غداً عند الصباح

وأمرهم بان ينظر كل واحد منهم ، في أمر نفسه ، حتى تأتي ساعة الرحيل .

وخرج وهو يطوف بين الصفوف وكان يقول : ايها المسلمون انتم الفاتحون

الغزاة الذين دوختم الشرق ، وانكم لمنتهون غـــداً الى النصر بقوة الله عزوجل .

***

٨

الروم والبربر في قرطاجنة ، جماعات جماعات ، وكلهم من رجال البأس ، الذين خبروا الحرب ، وتعودوا خوض الغمرات

ولكن الرعب كان قد بسط فوقهم ظله واستولى على القلوب

فلما بلغها حسان رأى ان يعمد الى الحصار ويضيق عليهم النطاق لاجئاً الى الحزم والقساوة والعنف

حتى طال الزمن وضيـع اهلها البسالة والصبر

ولم يبق الا ان يغادروها هاربين ويركبوا البحر ، بعضهم الى صقلية والبعض الآخر الى البلاد التي يقال لها الاندلس

وعرف حسان ما عولوا عليه

فلما خرجوا منها ، في ظلام الليل ، دخلها المسلمون بالسيف ، فسبوا ونهبوا ، وقتلوا ما طاب لهم القتل ، ثم أمرهم حسان ، فهدموا جانبـــاً من المدينة ، وأقبل الناس الذين حولها يسألونه الغفو ، فكف عن ذلك ، وبعد ان فعل ، بلغه ان القوم عادوا فاجتمعوا في مدينتين اخريين ، في الداخل ، فسار اليهم ، وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزموا

وقد كثر القتل فيهم ، واستولى المسلمون على بلادهم ، لم يترك حسان موضعاً منها الا غزتها خيله

وخاف الافريقيون خوفاً غريباً فجعلوا يدخلون الحصون البعيدة يعتصمون بها لا يجسرون على الظهور

وكانت الحكمة عندئذ تقضي على حسان بالعودة الى القيروان ، لأن جيشه قد تعب ، وكثرت الجراح في اصحابه ، وقتلت منهم طائفة من الابطال

وقد نصح له اركان حربه بالرجوع ، ففعل ، وأقام بالقيروان حتى استعاد الجيش قواه

وكانت له ، الى امية بن عمرو والفتيين الآخرين نظرتان:

نظرة اعجاب ، بالبسالة ، والمروءة ، والاستخفاف بالموت ، وكل ذلك قد رآه بعينيه ، في الحروب التي انقضت .

ونظرة حذر وحرص أوصاه بها قبيصة بن ذؤيب ، احد رجال البلاط ، وقبيصة لا يوصيه الا بأمر أمير المؤمنين

وزاد قبيصة على وصيته قوله : لا يرجع الفتيان الثلاثة الى الشام الا عندما رجع انت ...!

ومعنى ذلك ان امير المؤمنين يريد ان يبعدهم عنه لغاية ، من غاياته .

على ان امير افريقيا كان نبيلا شريف الغاية ، والقصد ، فهو سليل الاشراف من الغسانيين الذين حملوا لواء المكرمات ، من قبل ، وهو الرجل الذي يلازم دينه ويخاف الله ..

لقد رأى بعينه ، ان الثلاثة ، من احسن فتيان المسلمين ، أدباً ، واثبتهم جناناً ، وأصلبهم عوداً ، ولمس بيديه صدق العزيمة ؟ والمروءة ، وعظمة النفس ، فأحس انه يحبهم كما يحب بنيه ، ويؤثرهم على العدد الكثير من جماعة الحرس

ولكنه كان يريد ان يعلم ، ذلك السر الذي قضى بابعادهم عن دمشق ، على تلك الصورة التي رأى .

يأمر عبد الملك بنيه الثلاثة ، سليمان واخوته ، بـأن يخرجوا مع الجيش الزاحف الى القيروان ، ثم يأمرهم ، في اليوم الثاني بان يبقوا ، وتلك حيلة اراد ان يخدع بها الناس ، ويظهر لهم انه لا يؤثر بنيه على اخوانهم ابناء المسلمين

ولولا امية واخوه ، ومحمد بن عبدالله ، لما خطر لعبد الملك ان يفعل ما فعل .

اذن فالغرض ظاهر فيما صنعه الخليفة ، وما من شك في انه أراد ان يقذف بالفتيان الثلاثة الى القطر الافريقي

وكان هم حسان ، ان يعرف السبب الذي قضى بهذا الابعاد ، فقال لأمية في مساء يوم

اذا انصرف الناس الليلة من المجلس ، فابق مع اخيك ومحمد لأن لي ما أقوله لكم .

فلما انقضى الهزيع الأول من الليل ، خرج الناس من قصر الامارة الى منازلهم،فقال حسان لغلامه : لا تأذن لأحد في الدخول

واغلقت الابواب .. فقال للأخوين :

كان أبوكما عمرو رحمه الله صديقاً لي ، وكنت أعرف من هو ، وقد رأيت منكما ، ومن محمد ، ونحن في هذه الأرض ، ما لا يفارق الذهن ، من بسالة وأدب ، ومروءة وطاعة ، واني اريد ان اسألكم سؤالاً اشترط عليكم ان تكتموه جميع الناس ، بل اشترط أن تنسوه اذا خرجتم من هذه القاعة

فقال سعيد : ولحن قد رأينا من الأمير ما انطق ألسنتنا بالشكر وسنكون عند حسن ظنه فاسأل ما شئت ..

قال : شهدت مجلس أمير المؤمنين في الخضراء ، قبل ان يخرج هذا الجيش من دمشق ، وشهدتموه انتم ، وقد سمعت كما سمعتم ، ان سليمان ابن عبد الملك واثنين من اخوته ، سيزحفون مع الجند الى القيروان ، أليس كذلك ؟

ـ . بلى

ثم عرفت بعدئذ انهم باقون في دمشق لا ينقلون منها قدماً ، وقد خرج الجيش بعد ذلك ولم يخرجوا معه ..

ـ نعرف ذلك ايها الأمير

ـ . ولكني احب ان اعلم السبب .

فسكت الفتى ولم يجب

فقال حسان : تستطيع ان تقول ما تعلم دون ان تتردد فـأنا صديق الملت

قال : يشهد الله اني لا اعلم شيئاً من هذا

ـ . وانت يا امية ؟

ـ . اني اجهل السبب ، الذي يريد الأمير ان يعرفه ، كما يجهله محمد

ـ . وماذا تظنون ؟

فاجابه سعيد وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف : أما انا فأظن ان أمير المؤمنين كان يخشى ان يتردد بعض الأشراف ، في الخروج الى القيروان ..

ـ . فتظاهر بأن بنيه سيكونون في الصف الأول

ـ . نعم ، ولكنه عندما رأى ان الناس أطاعوه ، وعمدوا الى سيوفهم يقاتلون بها اعداءه ، اشار الى بنيه ، من وراء الستار ، بأن يبقوا ، وهو يظن ان الناس قد غفلوا عما فعل .

ـ . ذلك ما اراه ، ولكن كيف قربكم اليه بعد غضبه ، وبعد ان أبعدكم الى العراق ؟

ـ . دعانا الى مجلسه ونحن في الكوفة فسألنا ان ننسى الماضي بما فيه من ذكرى مؤلمة وكان يقول : « اما نحن فقد نسيناه ، ونأمركم الآن بالرجوع الى دمشق » ثم احسن الينا وادنانا منه على مرأى ومسمع من الناس

ـ . وماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ . بقينا في الكوفة حتى قتل ابن الزبير ، فرجعنا الى الشام ، ولكن يحيى وعنبسة لم يرجعا كما تعلم

ـ . لماذا ؟

ـ . أأقول وانا آمن ؟

ـ . قل يا بني ولا تخف

ـ . لانهما لا يطيقان ان ينظرا كل يوم الى قاتل عمرو

ـ . وأما انتم فقد رجعتم

ـ . نعم ولولا أمنا ، اجل ايها الامير ، لولا أمنا لما خطر لنـــا ان نعود ، ولكانت خراسان أحب الينا من ربوع الشام

ـ . ان أم امية تؤثر دمشق على العراق

ـ . لا ، ولكنها خافت ان يمد الينا عبد الملك يد السؤ ، اذا نحن خالفناه في ما امرنا به

ـ . ولم يذكر لكم بعد رجوعكم ، عنبسة ويحيى ؟

ـ . بلى ، وقد اعتذرنا ان يحيى ، في ارضه ، في الحجاز ، وان الاقامة ، تطيب لعنبسة في العراق ، في ظل امير المؤمنين وعماله .

ـ . وبماذا كنتم تتحدثون وانتم في منزلكم في الكوفة ؟

ـ . فيما يعني عبد الملك ؟

ـ . اجل

ـ . لم تكن احاديثنا احاديث حقد وعداوة ، بل ، كنا نخشى ان يعرض لنا عبد الملك ، او أحد رجاله ، في امر أم كلثوم

ـ . وما هو هذا الأمر ؟

ـ . أمر الزواج ، فمحمد هذا يريد ان يجعلها زوجة له ، وقد خطبها قبل ان نترك الكوفة على ان تزف اليه في هذا العام ، او العام الذي يجيء

قال : اذكرتم ذلك لأحد من أهل الكوفة ؟

ـ . لا ، بل كنا نتحدث به ، ونحن في منزلنا ، لا يرتفع لنا صوت

ـ . ومن عندكم من الغلمان ؟

ـ . غلمان ابي انفسهم ، وهم من أصدق الناس

فقال محمد :

اذكر ان بشراً ، شقيق عبد الملك ، اهدى الى آل عمرو ، يوم كان أمير الكوفة ، عبداً من عبيده

ـ . وماذا يدعى ؟

ـ . مرة

ـ . وهو اليوم في الدار ؟

ـ . نعم

فأطرق ملياً ثم قال : ليس هذه الهدية مظهراً من مظاهر التكريم وانما هو دهاء يعمد اليه الخلفاء والامراء

ـ . ايظن الأمير ان مرة جاسوس لعبد الملك ؟

ـ . ليس لي ان امعن في الريب ، ولكن يقوم في الذهن ان العبد ينقل الى امير المؤمنين ما تتحدثون به

فذعر الثلاثة ، وجعل سعيد ينظر الى امية وشفتاه ترتجفان ، ثم قال : لقد دلنا الامير الآن على ما نجهل ، وأمسيت الآن مؤمناً بأن مرة يفعل ما ذكرت ، وان كل كلمة يهامس بها أحدنا الآخر ، تنتقل الى عبد الملك ، في اليوم نفسه .

ـ . وهل كان يصغي الى ما تقولون ؟

ـ . كنا نراه يروح ويجيء ، ونحن نتحدث بشأننا الخاص ، واذكر اني رأيته في احدى الليالي ، واقفاً عند باب القاعة التي نجلس فيها

قال : اذا كان هذا فأمير المؤمنين يخاف ان تخونوه ، بعـد ان امركم بالرجوع الى دمشق ، وتنسوا يده ، بعد احسانه

وقد رأى حسان في تلك الساعة ، انه تمادى في حبه ... وانه لا يجوز له ، بصلته قائداً من قواد عبد الملك ، ان يمد أصبعه في امر لعبد الملك رأى فيه .. واذا فعل ، فهو القائد النذل الذي يخون مولاه

اراد ان يعلم سبب جفاء الخليفة ـ اذا كان هنالك من جفاء ـ ولكنه لم يعلم شيئاً ، فخير له ان ينصح للفتيان الثلاثة بالاستسلام الى الطاعة والصبر ، خوفاً من ان يفضح نفسه في النهاية ، او يفضحوه ..

ثم قال : اردت ان تكونوا على حذر ، لأن أمير المؤمنين لا يرحم الخونة ، وان تبقوا كما أنتم الآن ، أولئك الأشراف البررة ، الخاضعين لخليفتهم باخلاص ووفاء .

فقال سعيد في نفسه : لقد خاف حسان .

ولم يجد بداً من أن يقول : نحن عبيد أمير المؤمنين نبذل أرواحنا من أجل خلافته

قال : هذا الذي أسألكم اياه ، وأرجو أن تثقوا ، قبل أن تنصرفوا ، بأنه ليس في قومكم في دمشق ، رجل يعطف عليكم كما يعطف حسان ..

وأمرهم بالانصراف وهو يخاطب نفسه قائلاً : اذا كان عبد الملك يريد أن يموت هؤلاء ، فأنا أريد أن يبقوا ، وسأمنعهم من أن يخوضوا الغمرات.



٩

حملت أم كلثوم ، بنت عبد الله بن جعفر الى العراق ، وزفت الى الحجاج بن يوسف كما عرفت

ومر على ذلك الزواج ثمنية أشهر ، فخطر لعبد الله أن يزور عبد الملك في دمشق

وتلك هي عادة الوجوه وأشراف الناس .

يفدون على الخلفاء ، مرة في العام أو العامين ، وهم يحملون اليهم الهدايا ، فيعطيهم الخلفاء العطايا ويبذلون لهم المال

ولم يتردد ابن جعفر في الخروج من الحجاز ، ومعه رجل يقال له بذيح ، هو من خاصته ، وعبـــد له أعز عليه من نفسه

فلما دخلوا دمشق ، حطوا رحالهم في مكان ينزله أهل الحجـــار والعراق، واليمن وغير هؤلاء من وفود الاقطار ، وباتوا ليلتهم فيه ، والناس يتهامسون، قائلين : هذا عبد الله بن جعفر

حتى طلعت شمس اليوم الثاني ، فسمع القوم رجلاً يقول : جاء الوليد بن

عبد الملك ..

وكان الوليد على بغلة له ، وراءه طائفة من خاصته والمقربين اليه فقام في أذهان الناس انه أقبل ليحيي ابن جعفر ويدعوه الى منزله وليس ذلك بالأمر الغريب ، فان جعفر سيد الأشراف ، وله مقامه عند أمير المؤمنين وأنجاله الامراء

وأهل الشام جميعهم يعرفون هذا المقام

فنهض ابن جعفر وهش للوليد قائلا : مرحباً ... مرحباً ...

فأجابه وهو على بغلته : أما أنت فلا مرحباً بك ولا أهلا

فتراجع عبد الله وقال : مهلا يا ابن أخي ، ان هذا الكلام لا يقال لي ..

ـ . بل أنت أهل لشر منه

ـ . لماذا ؟

ـ . لأنك عمدت الى ابنتك أم كلثوم ، عقيلة نساء العرب ، وسيدة بني عبد مناف ، فجعلتها زوجة .. لعبد ثقيف .

وهو يعني الحجاج

قال : وفي هذا عتب علي يا ابن اخي ؟

ـ . نعم وانه لأمر ليس اعظم منه

فهز رأسه قائلا : ليس لأحد من الناس ان يلومني في ذلك لا انت ولا أمير المؤمنين أبوك ... لقد كان الولاة الذين قبلكم يصلون رحمي ويعرفون حقي ، اما انتم يا آل مروان فقد منعتموني ما عندكم حتى قل مالي وركبني الدين .

ثم قال وشفتاه ترتجفان : والله لو ان عبداً حبشياً اعطاني بام كلثوم مثلما اعطاني عبد ثقيف لزوجتها ، فانما فديت بها رقبتي من النار ..

فلم يقل الوليد كلمة ، بل لوى عنق دابته ورجع ، حتى دخل على ابيه عبد الملك .

وكان اذا غضب ، عرف ذلك في وجهه

فلما رآه عبد الملك قال : مالك يا ابا العباس ؟

قال : لقد سلّطت عبد ثقيف ، الحجاج بن يوسف ، وملّكته ورفعته حتى امست نساؤه من بنات عبد مناف !

قال : ام كلثوم اردت ؟. وادركت الغيرة عبد الملك ، فقال لغلامه :

اكتب : من عبد الله عبد الملك بن مروان امير المؤمنين الى الحجاج بن يوسف عامله على العراقين

اما بعد فاذا اتاك كتابنا فلا تضعه من يدك حتى تطلق ام كلثوم ، بنت عبد الله بن جعفر ..

ثم قال : ادعُ ابا ذرعة

فأقبل الرجل ، فقال له : كتبنا هذا الكتاب الى الحجاج فأبعث به اليه الساعة .

فتناوله كاتب الرسائل وخرج

فقال للوليد : أرضيت الآن ؟

قال : أجل يا امير المؤمنين

ودخل الحاجب عندئذ يستأذن لابن جعفر

فاستقبله عبد الملك وهو يبتسم ، ثم اخذ بيده فأجلسه معه على سريره

ثم دخل يحيى بن الحكم وعبد الملك يسأل ابن جعفر عن حاله ، وعن أهل بيته ، ومطعمه ومشربه ..

فلما انتهى قال يحيى لعبد الله : أمن خبثة قدمت ؟ ..

قال : وما خبثة ؟

ـ . أرضك التي جئت منها

قال : سبحان الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسميها طيبة وتسميها خبثة .. لقد اختلفتما في الدنيا واظنكما في الآخرة مختلفين

ونظر الى عبد الملك ، وكان ساكتاً ، وقد اكتفى بابتسامة قصيرة بدت على شفتيه ، ثم اضمحلت

فرأى عبد الله ان يستأذن في الذهاب ، ويبعث الى أمير المؤمنين بالهدايا التي حملها اليه وقد هيأها له بعد رجوعه ، وقال لبذيح : ما قيمة هذه ؟

ـ . مئتا ألف

قال : احملها الى الخضراء

فدخل بذيح على عبد الملك وهو وحده . وجعل يعرض عليه ما حمل من كسوة ووصائف وحرير وديباج واشياء تصنع في الحجاز نفسه

وعبد الملك يظهر اعظامه لما يعرض عليه وكان يقول كلما اراه شيئاً :

عافى الله ابا جعفر ، ما رأينا مثل هداياه ، وما كنا نريد ان يتكلف لنا شيئاً من هذا

ثم خرج بذيح واذن الخليفة لأصحابه

ثم جعل يذكر لهم هدايا ابن جعفر ويعظمها ويثني على عبد الله ، ويحيى بن الحكم في القوم ، فقال : وماذا اهدى اليك ابن جعفر يا امير المؤمنين . جمع لك الرديء من جواري الحجاز وعبيده وبخل عليك بجارية هي معه وهي من احسن النساء ... !

فقال الريان : اسمعت ما قاله يحيى ؟

ـ . نعم يا امير المؤمنين

ـ . اذن فاذهب الى ابي جعفر ، واعد عليه ما سمعت ، وقل له ان أمير المؤمنين يريد ان تبعث اليه بجاريتك ، وسمها له

فبينا بذيح وعبد الله يتحدثان ، اقبل الريان فقال : يا ابا جعفر ، ان امير المؤمنين يقرأ السلام عليك ويقول : انك قد جمعت له الرديء من رقيق الحجاز ، وبخلت عليه بفلانة ، فأبعث بها اليه .

وكان يحيى قد قال لعبد الملك : والله لم يسمع أحد بمثلها قط جمالاً وخلقاً وأدباً ولو اراد كرامتك لجعلها بين هداياه ...

وكان عبد الله بن جعفر قد ثقلت اذنه ، فاذا سمع ما يكره ، تظاهر بأنه لم يسمع .

فلما اعاد عليه الريان كلام أمير المؤمنين قال : ما يقول الرجل يا بذيح ؟

فأجابه قائلا :

يقرأ عليك السلام ويقول :

لقد جاء في البريد الذي انتهى اليه اليوم ، ان الله نصر المسلمين ، واعزهم ، في جميع الثغور ..

فقال للريان : اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل له اعزك الله واظفرك بعدوك . . .

فقال الريان : يا ابا جعفر ، اني لم أقل ما ذكره لك ... واعاد قوله الأول .

فقال : يا بذيح ، ما يقول ؟

فصرفه بذيح الى وجه آخر

فأقبل الريان فقال : أبرسول عبد الملك تستخف يا بذيح ، وعن عبد الملك تجيب هذا الجواب ... اما والله لأطلبن دمك

وانصرف والغيظ يملأ نفسه

فقال عبد الله : من هو صاحبنا الذي ذكر الجارية لأمير المؤمنين ؟

قال : هو يحيى بن الحكم صاحبك امس

ـ . اي والله ، فما الرأي ؟

ـ . ارى ان تبعث بها اليه فان لم تفعل جعلتها سبباً لتغير عبد الملك عليك، ولو طلب احدى بناتك لما ترددت في ارسالها اليه

قال : ادعها الينا

فلما اقبلت ، رحب بها واجلسها بالقرب منه ثم قال : والله ما كنت اظن انه يفرق بيني وبينك الا الموت

قالت : وماذا حدث ؟

ـ . حدث أمر ليس فيه الا ما احببت انشاء الله .

ـ . ما هو ؟

ــ . ان امير المؤمنين طلب الى ان ابعث بك اليه فان كنت ترغبين في ذلك فقد تم له الأمر كما أراد . والا والله لم يكن ذلك ابداً

قالت : ما شيء لك فيه هوى ، وفرج عنك ، الا فديته بنفسي

وجعلت تذرف الدموع

قال : اذا فعلت لم أرَ من امير المؤمنين ما اكره

ثم قال لبذيح هامساً :

استحثها قبل ان تبدر من عبد الملك بادرة غضب

ثم دعا بأربعة جوار ، وبخمسمائة دينار ، وملأ لها وعاء من الطيب وقال : اخرج ويحك

فانصرف والجارية معه حتى انتهى الى باب المجلس ، فما تركه الحجاب ان لمس قدماه الأرض حتى ادخل على عبد الملك

فقال له ولحيته ترقص من الغضب : اتجيب انت عن امير المؤمنين وتستخفه برسله ؟

قال : ائذن لي اتكلم يا امير المؤمنين

ــ . وما تقول يا لعين ؟

ــ . ائذن لي جعلني الله فداك

ــ . تكلم

قال : يا امير المؤمنين ، انا اصغر شأناً وأقل خطراً من ان يبلغ كلامي عن أمير المؤمنين ما أرى ، وهل انا الا عبد من عبيدك ؟ نعم لقد قلت ما بلغك وانت تعلم اننا نعيش في ظل هذا الشيخ . وان الله لم يزل اليه محسناً فأتاه منك شيء لم يأته مثله قط ، وانما طلبت نفسه التي بين جنبيه فأجبت بما بلغك لأسهل الامر عليه ، ثم سألني فخبرته واستشارني فأشرت عليه وهذه هي الجارية ..

قال : ادخلها ويلك

وكان في المجلس ، مسلمة بن عبد الملك ، وهو احسن فتيان الشام وجهاً

فلما جلست جعل يكلمها وهو معجب بما تقول ، ثم قال :

لله ابوك ، أمسكك لنفسي احب اليك ، أم اهبك لهذا الفتى فانه ابن أمير المؤمنين ؟

واشار الى مسلمة

فقالت : يا امير المؤمنين لست لك بأهل ، وعسى ان يكون هذا الفتى وجهاً لي .

فقام من مكانه ولم يراجعها ثم دخل القصر

وأقبل عليها مسلمة فقال : أعلى امير المؤمنين تختارين ؟

قالت : يا عدو نفسه ، اتلومني على هذا ؟ اني اذن لم احسن الاختيار ...

ورجع عبد الملك ، وقد ادّهن بدهن حجب الشيب ، وعليه حلة تتلألأ كأنها الذهب ، ثم جلس على سريره وقال : تكونين لي احب اليك أم اهبك لهذا الفتى ؟

قالت : ومن انت اصلحك الله ؟

فقال احد الخصيان : هذا امير المؤمنين

قالت : لست بمختارة على امير المؤمنين احداً

ـ . ولكنك آثرت علينا هذا الفتى منذ ساعة

قالت : رأيت امير المؤمنين من قبل شيخاً كبيراً ، وأراه الآن اشب الناس وأجملهم ولست مختارة عليه احداً

قال : خذها يا مسلمة

فنشر بذيح الكسوة والدنانير التي معه ، وأراه الجواري والطيب ، فقال عبد الملك :

عافى الله ابن جعفر ، اتراه يخشى ان لا يكون لها عندنا نفقـــة وطيب وكسوة ؟

— : لا يا امير المؤمنين ، ولكنه أحب ان يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس .

فسار بها مسلمة الى منزله ، ولكنها لم تلبث عنده الا يسيراً حتى هلكت .

وأمر عبد الملك لابن جعفر ، بمئة الف وقد بلغ ما انفق في هديته وخروجه من الحجاز اكثر من مئتين ...

وكان عبد الملك قد كتب الى الحجاج ، يأمره بأن يسير اليه رجلاً يصلح الدين والدنيا يتخذه سميراً له

فقال الحجاج : ليس له الا عامر الشعبي ، وبعث به الى دمشق ، من اجل هذه الغاية ، وقد انتهى اليها في مساء ذلك اليوم

فلما دخل على الخليفة رآه مطرقاً فسلم اليه كتاب الحجاج وقال له : ما بال امير المؤمنين ؟

قال: ذكرنا قول زهير:

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا ارى ... فكيف بمن يرمي وليس برامي
فلو انني أرمى بنبـــل رايتهـــا ... ولكنني ارمى بغير سهام
على الراحتين تارة وعلى العصا ... انوء ثلاثاً بعدهن قيامي

فقال الشعبي :

ليس كذلك يا امير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة ، وقد بلغ سبعين عاماً :

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عن منكبي ردائيا

ولما بلغ تسعين سنة قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولما بلغ عشراً ومئة سنة قال :

أليس ورائي ان تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الاضالع
اخبر اخبار القرون التي خلت ... أنوء كأني كلما قمت راكـــع

ولما بلغ ثلاثين ومئة وحضرته الوفاة قال :

تمنى ابنتاي ان يعيش ابوهما	وهل انا الا من ربيعة او مضر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه	ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه	أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
الى سنة ثم السلام عليكما	ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

فأشرق جبين عبد الملك ، وبان الفرح في وجهه ، طمعاً بأن يعيش مئة وثلاثين عاماً

وكان يقول في نفسه : احسن الحجاج في اختيار الشعبي ، فهو خير سمير .



١٠

الكوثر بن زفر وشقيق الهذيل والرباب زوجة مسلمة بن عبد الملك ، فتى حسن الوجه وشجاع رابط الجأش

وهو يشبه اباه في ابائه وعزة نفسه

وانت تذكر ، انه خرج من قرقيسياء مع اخته الرباب الى الشام ، بعد زفافها الى مسلمة ، وهو لم يخرج عن طاعة الخليفة ، ولم يحمل السيف مع عدوه مصعب بن الزبير كما فعل أخوه الهذيل

بل انصرف مع شقيقته الى دمشق ، واقام بها حتى عاد عبد الملك من العراق ، وحتى ظفر الحجاج بعبدالله خليفة الحجاز

وكانت الرباب قد وعدت اباها ، بانها ستختار للكوثر ، زوجة من بنات الامراء في الشام

فلما عرف الناس الرباب ، وعرفت هي رجال البلاط والمقربين الى عبد

الملك ، خاطبت زوجها بالأمر ، وطلبت اليه ان يختار لأخيها ، الفتاة التي تصلح له

فعهد مسلمة ، الى غلمانه وجواريه ، في قضاء هذه الحاجة ، وأمرهم بأن يسألوا الرجال والنساء عن حسان الاحياء ، بنات الشرف والجاه

وكانت غايته ان يرضي الرباب ، التي احبها الحب كله ، وأحاطها بالعناية والعطف

وبينا هو يسعى الى الأمر ، وجواريه ينقلن اليه اسماء العذارى كل يوم ، خرج الجيش الى القيروان ولم يبق في دمشق ، غير الشيوخ والاطفال والنساء

فقال لزوجته : اما اليوم فسنبلغ الغاية

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد خرج الجيش ، وستستطيع الجواري ، بعد خروجه ، ان يدخلن كل بيت من بيوت دمشق

ومن عادة مسلمة ، ان ينزل كل صباح الى بستان القصر . ثم تلحق بـه الرباب ، فيجلسان بين الخمائل والازاهير حتى تطلع الشمس

ثم ينصرف الى مجلس امير المؤمنين ، فيمكث به حتى يقوم عبد الملك

وليس له ان يغيب ، او يتردد في المجيء ، الا اذا اذن له امير المؤمنين في ذلك .

وكان الربيع قد اقبل ، ودمشق في رياضها وانهارها ، كأنها جنة الله

ففي صباح يوم ، دخل الريان على مسلمة ، والكوثر والرباب بين يديه ، وهم يتحدثون بأمر الزواج

فقال مسلمة : ما وراءك يا صاحب الحرس ؟

قال : امرني امير المؤمنين ، بأن ازور انجد له الامراء كل صباح ، قبل ان امثل بين يديه

ـ . وما هي الغاية من هذا ؟

ـ قد يكون لأحدهم حاجة اقضيها له

ـ . لقد احسن أمير المؤمنين فيما امرك به ، ان لنا الآن حاجة نسألك قضاءها

ـ . ما هي يا مولاي ؟

ـ . هي ان تدلنا على فتاة نزفها الى الكوثر

فأطرق ملياً كأنه يفكر ، ثم قال : اجعل لجوابي اجلاً ايها الامير

قال : خذ يوماً كاملاً

ـ . تمهلني ثلاثة ايام

ـ . وتحمل الينا بعدها جواباً فيه رضى ؟

ـ . نعم

ـ . اذن فارجع بعد ثلاثة ايام ونحن بانتظارك

فخرج الريان ، ثم بعث الى مرة ، عبد بن عمرو يقول له : صف الكوثر لأم كلثوم ، وادفعها بدهائك الى ايثاره على خطيبها محمد

ثم قص على عبد الملك ما جرى ، وصبر حتى مرت الايام الثلاثة ، فعاد الى مسلمة ، فقال :

لقد وجدت الفتاة يا مولاي

ـ . وهي طيبة العنصر كريمة النبعتين ؟

ـ . اجل

ـ . من هي ؟

ـ . ام كلثوم ، بنت عمرو بن سعيد

ـ . عمرو بن سعيد .. ! ذلك الخائن الذي اراد ان يسلب امير المؤمنين عرشه ؟

ـ . بل ذلك الرجل الذي قتله الله في مجلس امير المؤمنين

فاستوى الكوثر جالساً ثم قال : لقد وصفت لي ام كلثوم ، ولكني سمعتهم يقولون ، انها مخطوبة لفتى من كنانة يدعى محمداً .

ـ . نعم ، مخطوبة كما قيل لك

فقال مسلمة : وطاب لك انت ، بعد ثلاثه ايام ، ان تنقل الى الكوثر اسم فتاة هي لسواه ؟؟!

ـ . نعم ، واني اسألك يا مولاي ، ان تضيع هذه الخطبة ، واسأل الكوثر ان يحمل الفتاة اذا استطاع زوجة له .

ـ . ولِمَ ذلك ؟

ـ . لانها سيدة الحسان في الشام ، وأبوها عمرو بن سعيد ...

ـ . ومن وصفها لك ؟

ـ . عبيد المنزل وجواريـــه ، وكانوا يقولون : ليس في حسان دمشق ، واحدة تشبه أم كلثوم

قال : الم يخرج بنو عمرو جميعهم الى القتال ؟

ـ . لا يا مولاي ، خرج منهم امية وسعيد ، وبقي اسماعيل ومحمد

ـ . والكناني ؟

ـ . هو معهم في القيروان

فضحك قائلاً للكوثر : لقد خلا لك الجو

قال : اما انا فلا استطيع ان افعل شيئاً

ـ . لماذا ؟

ـ . لاني لا اعرف الفتاة ، وليس لي بأهلها صلة ، وقد لا يعرفون جميعهم من هو زفر بن الحرث صاحب قرقيسياء

ـ . ان العرب جميعها تعرف اباك

ـ . ومع ذلك فأنا اعجز عن ان امحو عقد الخطبة

فقال : اذن بقي على الريان ان يدلنا على فتاة اخرى

ـ . لا افعل ولو امرني بذلك امير المؤمنين نفسه

ـ . ألم يعهد اليك امير المؤمنين في قضاء حاجات بنيه ؟

ـ . بلى ولكني اكره ان اختار للكوثر فتاة غير ام كلثوم

قال : ستجد في الشام أحسن منها وجهاً وأكمل أدباً

قال : لو طاف مولاي الأمير في احياء العرب كلها لما رأى مثلها ... ان ام كلثوم فتنة الناظرين ..

فاستيقظت عاطفة الكوثر ، وجعل ينظر الى الرباب كأنه يسألها الرأي ، فقالت :

هل رأى صاحب الحرس أم كلثوم ؟

ـ . لا ، ولكني مؤمن بأن العيون في دمشق ، لم تقع على أروع من هـــذا الجمال الذي وصف لي

فقالت لأخيها : ماذا ترى ؟

قال : لقد اصبح ايماني الآن ، مثل ايمان الريان ...

فابتسمت قائلة : ونسيت الفتيات اللواتي ذكرتهن الجواري لك ؟

ـ . نعم ..

فقالت لزوجها : لم يبق الا ان نلجأ الى امير المؤمنين

ـ . وما عساه ان يصنع ؟

ـ . يأمر ارملة عمرو بأن تزف ابنتها الى الكوثر

فقال الريان : خير لكم ان تكتموا امير المؤمنين خبر الزواج

ـ . انه يعلم ذلك

ـ . ولكنه لا يعلم ان ام كلثوم هي الفتاة التي يرغب فيها ابن زفر

ـ . وتظن انه يغضب اذا علم ؟

ـ هذا ما اراه ، وقد لا يطيق ان تمسي ابنة عمرو بن سعيد ، زوجة لفتى قرّبه اليه وجعله من خاصته

ـ اذن فأنت تريد ان تزوج الكوثر ، دون ان يكون لأمير المؤمنين ، رأي في زواجه ..

ـ بل أريد ان يوصف الكوثر لأم كلثوم ، وان يراها وتراه ، وتمهد اسباب الزواج قبل ان تحدثوا امير المؤمنين بالأمر

ـ . ثم ماذا ؟

ـ . ثم تمثلون بين يديه فتقولون : لقد علق الكوثر بام كلثوم، وعلقت هي به ، وتركت خطيبها من اجله ، فان شئت فائذن في الزواج

ـ . ويرضى عندئذ ؟

ـ . انا ضامن رضاه ...

قالت : مسلمة .. ألم تزر بني عمرو بن سعيد بعد رجوعهم من الكوفة

ـ . لا

ـ . أليس امير المؤمنين هو الذي امرهم بأن يرجعوا ؟

ـ . بلى

ـ . ألم تقل لي انه قرّبهم اليه ، واحسن اليهم كما يحسن الى الخاصة ؟

ـ . بلى

قالت : يفعل ذلك . ثم يمنع بنيه من ان يزوروا القوم ؟

ـ . لم يمنع امير المؤمنين احداً كما تظنين

ـ . واذا طاب لك ان تزورهم اليوم ؟

ـ . استأذنه في ذلك قبل ان افعل

ـ . وانا ؟

ـ . وهل تخرجين انت الى زيارة هؤلاء ؟

ـ . نعم

قال : الاستئذان لا بد منه

فقال الريان : اما انا فأرى ان تخرجي بدون اذن

قال : ثم يعلم الخليفة غـــداً ، فيطردني من مجلسه على مرأى ومسمع من الناس ، ويمنع الرباب من الدنو منه

ـ . اذا فعل الخليفة شيئاً من ذلك فاضرب عنقي

فقال في نفسه ، ان لأمير المؤمنين يداً في الأمر ، ثم قال له : وأي رأي لك

في زيارة الرباب ؟

– ارى ان تفعل ، وخير للكوثر ان ترى اخته ام كلثوم. ثم تصف له بعد ذلك جمالها الخلاب

ــ . ولكن الرباب لا تعرف القوم

قال : ان لمولاتنا الرباب غاية لا تتم لها الا اذا زارت آل عمرو

ــ . وكرامة آل مروان ؟ اتدخل زوجة مسلمة بن عبد الملك ، بيتاً من بيوت دمشق ، لا تعرف احداً من اهله ، وليس لها مع احدهم صلة ولاء ؟

ــ . والزواج يا مولاي ؟

ــ . اما الزواج فله الجواري ، وهن اللواتي ، يتولين امره في كل مكان وزمان

فهمت الرباب بأن تتكلم ، فقال : خير لك ان تنسي هذه الزيارة فليس لك سبيل اليها الآن

ــ . ومن يحول ام كلثوم عما تهم به ؟

ــ . احدى الجواري كما قلت ، وقد يجد الريان من يهيء اسباب الزواج

فقال الريان : سأنظر في الأمر غداً يا مولاي .. ولكن لي رأي

ــ . ما هو ؟

ــ . هو ان يصافح الكوثر اسماعيل ومحمداً

ــ . وكيف يفعل ذلك ؟

ــ . يراهما في السوق أو في ساحة المسجد

ــ . ثم ماذا ؟

ــ . ثم اتولى انا الأمر من وراء الستار

قال : يا كوثر ، اتوافق الريان فيما يقول ؟

ــ . نعم ، وليس عليه الا ان يدلني على الفتيين

ــ . وبعد ذلك ماذا تصنع ؟

ــ . اقضي ايامي معهما وأقرأ ما في نفس ام أمية ، دون ان تعلم

ـ . وترسل الرباب من الناحية الاخرى ، جارية من جواري القصر، تقرأ ما في نفس ام كلثوم

ثم قال للريان : وتحمل انت الينا الاخبار كل يوم

ـ . سأفعل يا مولاي

ـ . اذن فانصرف على ان ينتهي دهاؤك الى ما نحب

فخرج صاحب الحرس الى منزله ، يقص على عبده الكوفي ما سمع ، ويأمره بان يطلع مرة على كل شيء ، ويدعوه الى قراءة اسرار الفتـــاة خطيبة محمد بن عبد الله



١١

ـ . رسول من حسان بن النعمان يا امير المؤمنين

ـ . ائذنوا له

فدخل رجل فسلم ، ثم مد يده برسالة تناولها أبو زرعة

فقال له عبد الملك : ما اسمك ؟

ـ . حرملة يا امير المؤمنين

ـ . ممن أنت ؟

ـ . من كندة

ـ . وسرت الى القيروان تحت لواء حسان ؟

ـ . بل سرت تحت لواء زهير بن قيس الذي قتل

ـ . وكيف حال المسلمين الذين اقاموا هنالك بعد مقتله ؟

ـ . لقد نال المسلمين ، في الزمن الذي مر ، أذى شديد

ـ . اجل ، ظلمهم البربر ظلماً لم يروا مثله من قبل ، وكتب الينا ، ان ملكتهم التي يقال لها الكاهنة ، هي التي دفعت قومها الى هذا الظلم

ـ . نعم يا امير المؤمنين ، ان الكاهنة هي التي أمرت بذلك

ـ . واليوم ؟

ـ . اما اليوم فقد منّ الله بالفرج ، وانك لتعلم كل شيء ، من رسالة عاملك حسان قائد الجند

فقال : اقرأ يا ابا زرعة

فقرأها ، وفيها اخبار الظفر بقرطاجنة ، ومن فيها من البربر والروم ، واخبار الفتح من جميع النواحي ورجوع الجيش للراحة في القيروان

فلما فرغ ابو زرعة قال عبد الملك : نسألك يا حرملة عما يخطر لنا فذلك خير من القراءة

ـ . لأمير المؤمنين ان يسأل عما يشاء

ـ . من قتل من المسلمين ؟

ـ . مع زهير بن قيس ، أم مع حسان بن النعمان ؟

ـ . مع حسان

قال : لا اعرف اسماء القتلى

ـ . وتعرف عددهم ؟

ـ . اما عددهم فقليل ، واما الجرحى فهم اكثر مما تظن

ـ . ذلك ما جاء في رسالة ابن النعمان . ولكنه لم يذكر اولئك الرجال الذين جعلتهم عوناً له في قيادة الجيش

ـ . لم يقتل أحد من هؤلاء

ـ . وانت واثق ؟

ـ . نعم ، وان شئت سميتهم لك

ـ . وما تعلم عن اهل الشام ؟

ـ . قتل منهم بضعة وعشرون جندياً جميعهم من الفتيان

فأضطرب قليلاً ، ثم نظر الى قبيصة بن ذؤيب ، نظرة قصيرة عرف الرجل غايته منها ، قال : أيأذن لي امير المؤمنين ان اسأل حرملة ؟

ـ افعل

قال : بين اهل الشام فتيان ثلاثة اسألك عنهم

ـ . من هم ؟

ـ . ابنان لعمرو بن سعيد ، وفتى آخر يدعى محمداً ، هو ابن عبد الله بن عزيز الكناني

فابتسم قائلاً : اعرف جميع من ذكرت

ـ . وهل قتل احدهم ؟

ـ . لا ، وانهم من اثبت المسلمين جناناً ، واصدقهم قتالاً ، كلما جالت الخيل .

وخيّل الى القوم عندئذ ان حرملة يتردد في الكلام

ثم قال : وانا احمل اخبارهم الى ام امية وام محمد ..

ـ . ومن اوصاك بهذا ؟

ـ . سعيد بن عمرو ، كما اني احمل اخبار الناس الذي عرفوا اني حامل رسالة حسان الى امير المؤمنين

فقال الريان وكان حاضراً : وأنا ارجو ان يأذن لي امير المؤمنين في ساعة اقضيها مع الرجل

ـ . اذنا لك وستخلو بحرملة ساعتين .. والآن قص علينا ايها الكندي اخبار كاهنة البربر .. اين تقيم هذه المرأة ؟

ـ . بجبل يقال له اوراس

ـ . وحولها جيش كثير ؟..

ـ . البربر جميعهم يا امير المؤمنين عبيد لها يقتحمون من اجلها الموت ولا يبالون .

ـ . والمسلمون يقتحمون الموت من اجل خلافتهم ولا يبالون .. اكتب يا أبا زرعة الى حسان : ان امير المؤمنين يريد ان تضرب البربر ضربة لا يقوم لهم بعدها ذكر ، وان تغزو القطر الافريقي كله وتجعله ملكاً للاسلام .. اكتب الساعة .. وسيحمل حرملة رسالتنا بعد ثلاثة ايام

والتفت الى الناس قائلاً : قوموا فاخرجوا ، الا حرملة وصاحب الحرس

فانصرف الناس ، وبقي الرجلان

اما هو فاحتجب وراء الستر ، خلف سرير الخلافة ، وجلس على وسادة يصغي الى ما يقولان ..

وقد عرف الريان ان عبد الملك يسمع ما يقال .

فقام وقال للحجاب : ان امير المؤمنين قد خرج من المجلس كما ترون فامنعوا الوفود ، ثم رجع فدنا من حرملة وهو يقول : أأنت غني ؟

قال : لو كنت غنياً لما جعلني حسان على بريده ..

ـ . وعندك اهل ؟

ـ . في بيتي زوجتان واثنا عشر ولداً

ـ . وما نصيبك من العطاء ؟

ـ . نصيب مسلم ليس له ماض زاهر وليس له فضل

ـ . وهذا يكفيك ؟

ـ . اجل ، يكفيني مع رحمة الله ، ولو استطعت لطلبت المزيد

قال : عندي رأي اذا وافقتني فيه ، يتوفر المال بين يديك

وحرملة ، من اولئك الصعاليك ، الذين يبيعون أنفسهم ، ويمشون الى غايتهم ، على جثث الابرياء

فقال وهو هادىء : اني مصغ اليك

قال : احلف لي انك لا تبوح بالسر لأحد من الناس

ـ . اذن هو سر خطير تجود علي به ..

ـ . نعم واحذر ان يطلع عليه امير المؤمنين ..

قال : احل سرك في هذا الصدر ، ثم انصرف الى القيروان ، فلا يراني امير المؤمنين بعد ذلك ولا اراه

وحلف له فقال: بينك وبين الفتيان الثلاثة الذين ذكرهم قبيصة بن ذؤيب، عهد صحبة ؟

ـ . لا

ـ . وهل تؤثرهم على غيرهم من فتيان المسلمين ؟ .

ـ . لا ، ولكني احبهم ، ولا اريد ان امد اليهم يد سوء

ـ . اذا كان هذا فقد خسرت المال الذي وعدتك به

ـ . لماذا ؟

ـ . لأني لا اريد ان اضع يدي بيد رجل يشترط علي . . .

ـ . وتريد ان يتم الاتفاق دون ان اقول كلمة ؟

ـ . نعم

ـ . واذا أمرتني بأن اغمد خنجري هذا في صدر بريء ؟

ـ . لا آمرك بشيء من هذا

قال : هات

ـ . ورضيت بأن تمشي معي الى النهاية .

ـ . هذا ما يخطر لي الآن

قال : ذكرت لأمير المؤمنين ، انك تحمل اخباراً الى ام امية وام محمد . فما هي هذه الاخبار ؟

امرني سعيد بأن اقول لأمه ، ان الحرب ستنتهي بعد حين ، وان اللقاء قريب . .

ـ: وبماذا اوصاك محمد ؟

ـ: بان اصف لأم كلثوم ، اخت سعيد ، عاطفة شوقه

قال : ان في دمشق فتى ، يحب ام كلثوم ، ويريد ان يجعلها زوجة له

ـ: نعم

ـ: وهو يعلم انها تحب محمداً وتؤثره على جميع الناس

ـ نعم

ـ: وليس له الا ان يستعين بالحيلة والدهاء على بلوغ غايته

ـ: وما هي هذه الحيلة ؟

ـ: هي ان تستبدل كلاما عهد اليك في نقله ، بكلام اقوله لك الآن

ـ: اي ان انقل قولا لم يقله محمد ؟

ـ: هو ذاك

ـ: وماذا اقول ؟

ـ: تقول للقوم ، وانت لا تنظر الى ام كلثوم ، ان محمـــداً غير راغب في الرجوع الى دمشق ، ولو انتهت الحرب

ـ: واذا سألوني عن السبب ؟

ـ: تقول انه عاشق ، والفتاة التي يهواها ، بنت شريف من اشراف الاسلام في القيروان تدعى آمنة

ـ: وابوها ... ؟

ـ: واختر لأبيها الاسم الذي تشاء

ـ: ولكن القوم سيعلمون بعد قليل اني كاذب

ـ. وكيف يعلمون ذلك وهم في دمشق ؟

ـ. يبعثون رسولا الى افريقيا ..

ـ. يكفي ان هذا الرسول سيغيب شهرين ..

ـ. وان الأمر لا يحتاج الى اكثر منها .. لقد فهمت الآن

فضحك قائلا : اجل فهمت ، ولكن من ناحية واحدة

ـ: بل فهمت من الناحيتين .. انك تريد ان اقول لمحمـــد الكناني ، ان ام كلثوم تعشق فتى من فتيان دمشق يدعى .. سعداً

ـ. قيل انه يدعى الكوثر بن زفر صاحب قرقيسياء

ـ. الكوثر بن زفر صاحب قرقيسيا... اني لا أنسى هذا الاسم .. وسأحمل البشرى الى الكناني المسكين .

ثم قال :

وعدتني الآن ، بأنك لا تكلفني ان اغمد خنجري في صدر بريء ... ثم كلفتني ما هو اصعب من ذلك

قال : كلفتك ان تحدث الناس باحاديث الهوى...

قال : خير لمحمد بن عبدالله ، ان اطعنه في قلبه طعنة تذهب معها حياته ، من ان احمل اليه خبر غرام الكوثر بن زفر ...

قال : اراك تعطف على المحبين ايها الكندي ..

ـ. وانا اهم بأن اخرج من هذه القاعة دون ان يكون بيني وبينك عهد ...

ـ. ونسيت المال ؟

ـ. واي مال هذا .. اني لا اراه ..

ـ. ساعطيك صرة فيها عشرون ديناراً ..

فرفع صوته قائلاً :

اكاذيب ... واخبار غرام لا وجود له .. وقتل عاشقين .. ثم تجزيني على الملك كله بعشرين ديناراً ..؟؟ انك يا قائد الحرس اجود العرب ، وخير للمسلمين ان يخلعوا عبد الملك ويرفعوك الى العرش .. !

فضحك عبد الملك من وراء الستر وكاد يفضح نفسه

فقال الريان : اجعلها ثلاثين ..

قال : وهذا مظهر آخر من مظاهر الجود .. اني آخذ بكل كلمة تأمرني بأن اقولها ، ثلاثين ديناراً..

قال : ويلك ان هذه الكلمات ستبلغ الالف ..

ـ. ولكن كل كلمة اقولها انا لا تدخل في الحساب ..

قال آمرك بان تقول كلمتين اثنتين

ـ. اذن اقول لأم كلثوم : محمد عاشق ثم اسكت ...

فتنهد عبـــد الملك ... فقـــال حرملة : اخشى ان يكون امير المؤمنين وراء الستر

ـ. أمير المؤمنين في المسجد ، وهؤلاء غلمان الخضراء فلا تخف

وقد عرف الريان عندئذ ، ان امير المؤمنين يريد ان يبذل لحرملة ، ما يشاء

فقال : يكفي ان تكون كلماتك خمساً

ـ. خير لك ان تكون عشراً ، وخير لي ،اي والله خير لي ان اضع في جرابي الآن ثلثمائة دينار ..

قال : ان امير المؤمنين نفسه لا يجود على المقربين اليه ، بمثل هذا

ـ لو كلفني امير المؤمنين قضاء حاجة مثل هذه ، لاعطاني الفاً

فاطرق كأنه يفكر ثم قال : لقد رضيت وستضع المال في جرابك قبل ان تترك دمشق

ـ. بل تعطيني اياه الآن ، لأنام الليلة ملء عيني

قال : والله لم أر مثلك قط ..

وانا والله لم أر اكرم منك قط .. اين المال ؟

فقام فحمله اليه ثم قال : عده ان شئت

قال : الحساب في يدي ، وسأجعل كلماتي على قدر مالك

ثم نهض قائلا : بقي ان تدلني على منزل عمرو بن سعيد .

فقال لأحد الغلمان : افعل بما يأمرك به هذا الرجل

ثم هامسه قائلا : كن عند حسن ظني بك

قال : لقد اصبت في قولك ، انك رأيت رجلا لم تر مثله قط .. وستلمس حماتي بيدك

ـ. احذر ان تذكر شيئاً من هذا لأهل القيروان ..

فوضع يده على جرابه وقال: لقد جعلني هذا الجراب من اخلص الناس لك..

وخرج ، وهو يجر ذيل الخيلاء ...
فقال عبد الملك للريان .
انه دهاء لا بأس به ، ولكنك لم تكن جواداً ...

★★★

١٢

استخلف الحجاج ، عروة بن المغيرة ، بن شعبة ، على الكوفة ، ثم خرج في ذلك العام ، يريد البصرة

فلما قدمها ، خطب خطبة توعد بها القوم ، وأمرهم بأن يلحقوا بالمهلب ، بعد ثلاثة ايام

فلما انتهى ، مثل شريك بن عمرو اليشكري بين يديه ، وكان اعور ، وبه مرض فقال له : اصلح الله الامير ، ان بي مرضاً ، وقد رآه بشر بن مروان الذي كان والياً قبلك ، فعذرني ، وهذا عطائي مردود في بيت المال فأنا لا استطيع الخروج الى القتال

فقال لغلامه:

اضرب عنقه ، فهو يكره ان يدافع عن الخلافة ..

ففعل الغلام ما أمره به دون ان يتردد ، فلم يبق بالبصرة رجل من جيش المهلب الا لحق به .

ثم سار الحجاج بعد شهر ، الى بلد بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً ، وهو يريد بذلك ان يكون قريباً من الجيش

وفي ذلك البلد طوائف المسلمين

فقام فيهم خطيباً فقال : يا اهل المصرين : هذا المكان والله مكانكم ، شهراً

بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، حتى يهلك الله هؤلاء الخوارج

ثم خطب في يوم آخر وقال : ان الزيادة ، التي زادكم اياها ابن الزبير، انما هي زيادة ملحد فاسق منافق فلا نجيزها

وكان مصعب ، قد زاد الناس في العطاء ، مئة مئة

فقال عبد الله بن الجارود ، وهو من وجوه النـاس : ليست هي زيادة ابن الزبير ، وانما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك وقد اجازها على يد اخيه بشر ،

فقال الحجاج : ما انت والكلام ، لتحسنن حمـل رأسك او لأسلبنك اياه .. !

ونزل عن المنبر وهو غاضب ، ومكث اشهراً لا يذكر الزيادة ، ثم اعاد القول فيها بعد ذلك

فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول

فقام مصقلة بن كرب العبدي فقال : ليس للرعية ان ترد على راعيها ، وقد سمعنا ما قال الأمير ، فسمعاً وطاعة ، فيما احببنا وكرهنا

فقال : متى كان مثلك يتكلم بمثل هذا ؟

فلما كان المساء ، اتى الوجوه عبد الله بن الجارود فصوبوا رأيه وقوله .

ثم قام الهزيل بن عمران ، وعبد الله بن حكيم وغيرهما فقالوا : نحن معك واعوانك .. ان الحجاج لا يرضى الا بأن ينقصنا هذه الزيادة ، فهلم نبايعك على اخراجه من العراق ، ثم نكتب الى عبد الملك نسأله ان يولي علينا غيره ، فان أبى الحجاج خلعناه ، فانه يخافك ما دامت الخوارج

فبايعه الناس سراً ، وعاهدوه على الوفاء

وبلغ الحجاج ما فعلوه ، فعمد الى بيت المال فأحاطه بالحرس ، واستمان بمن حوله ، من المخلصين له

فلما تم لاعدائه الأمر اظهروه ، وخرج عبد الله بن الجارود ، ومعه بنو عبد القيس على راياتهم ، وخرج الناس معه

وكان ذلك في ربيع الآخرة ، من السنة السادسة والسبعين ، وليس مع

الحجاج ، غير خاصته ، واهل بيته ، والمال والسلاح من ورائه ، وقد عرف انه لا يستطيع الدفاع

فأرسل رجلاً الى ابن الجارود يستدعيه اليه

فلما مثل بين يديه قال : ان الامير يدعوك ..

فقال : ومن هو الأمير ؟ . لا ، ولا كرامة لابن ابي رعال ، فليخرج عنا مذموماً والا قاتلناه

قال : لي كلام امرني الحجاج بأن انقله اليك فان شئت ذكرته كما هو

ـ . قل

ـ . يقول لك الحجاج : اتطيب نفساً بقتلك وقتل اهل بيتك وعشيرتك ؟ والذي نفسي بيده لئن لم تأتني لأدعن قومك عامة واهلك خاصة حديثاً للغابرين .

قال : لولا انك رسول لقتلتك يا ابن الخبيثة ، وأمر به فاخرج

واجتمع الناس لعبد الله ، فأقبل بهم زحفاً نحو الحجاج ، وليس لهم غاية الا ان يخرجوه عنهم دون ان يقاتلوه ، فلما انتهوا اليه ، نهبوا ما في فسطاطه ، واخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه

ثم جاء اهل اليمن فأخذوا زوجته الاخرى ، ام سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو .

وانصرف القوم عن الحجاج وتركوه ، فجعل الغضبان الشيباني يقول لابن الجارود :

تعشَّ بالجديِ قبل ان يتغدى بك . ان انصاره سيأتونه ولئن اصبح ليكثرن الناس حوله ، فقال : لقد قرب المساء وسنعالجه عند الصباح

وكان مع الحجاج ، عثمان بن قطن ، وزياد بن عمرو ، صاحب شرطة البصرة فقال لهما : ما تريان ؟

فقال زياد : انا آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بامير المؤمنين

فقد تخلى الناس عنك ، ولا أرى لك ان تقاتل بمن معك

وقال عثمان :

اما انا فلا ارى ذلك ، ان امير المؤمنين قد شركك في امره وولاك ،فسرت الى ابن الزبير وهو اعظم الناس خطراً فقتلته ، فولاك امير المؤمنين الحجاز ، ثم رفعت فولاك العراقين ، فعندما مشيت الى الغاية واصبت الغرض الاقصى ، تخرج وانت خائف ، الى الشام ؟ ! واالله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي انت فيه من سلطان ابداً

– . وبهاذا تنصح لي ؟

– . ارى ان نمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفراً او نموت كراماً .

فقال : الرأي ما رأيت

وحفظ هذه النصيحة لعثمان ، وحقدها على زياد بن عمرو صاحب الشرطة .

ثم أقبل عامل بن بني مسمع فقال له : اني قد أخذت لك أماناً من الناس

فجعل يرفع صوته ليسمع القوم وهو يقول : والله لا أؤمنهم أبداً حتى يأتوا بالهذيل وعبد الله بن حكيم

ثم أرسل الى عبيد بن كعب النميري يقول له : هلم الي فامنعني ، فقال : اذا أتيتني منعتك

فبعث الى محمد بن عمير بن عطارد فقال ما قاله عبيد

ولكن الفرج أتاه قبل ان يدب اليأس في صدره ، فقد أتاه عباد بن الحصين ومعه مئة رجل

ثم أتاه قتيبة بن مسلم ومعه قومه ، فاطمأن

ثم جاءه ميسرة بن علي الكلابي ، وسعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي ، وجعفر بن عبد الرحمن الازدي

وأرسل اليه مسمع بن مالك يقول له : : ان شئت أتيت وان شئت أقمت وأبعدت العدو عنك

فأجابه قائلا . اقم وافعل ما قلت

فلما اجتمع هؤلاء الوجوه ، ومعهم قومهم ، خرج الحجاج عند الصباح فعبى اصحابه ولحق الناس به

واذا حوله ستة آلاف رجل

فقال ابن الجارود لعبيدالله بن زياد بن ظبيان :

ما الرأي ؟

قال : تركت الرأي أمس ، حين قال لك الغضبان تعش بالجدي قبل ان يتغذى بك ، وقد ذهب الرأي الآن وبقي الصبر

فدعا بدرع فلبسها مقلوبة وتقدم رجاله ، وعلى ميمنته الهذيل بن عمران ، وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد

وعلى ميمنته الحجاج ، قتيبة بن مسلم ، وعلى الميسرة سعيد بن أسلم

وحمل ابن الجارود في اصحابه حتى ضعضع أصحاب الحجاج وكاد يظفر بهم

ولكن القدر لم يكن عوناً له ، فان النصر لم يفتر ثغره ، حتى أتاه سهم فاصابه فوقع ميتاً

فنادى منادي الحجاج :

الأمان للناس ، الا الهزيل وعبد الله بن حكيم

وأمر أصحابه بأن يكفوا عن القتال ، وقد فرت رجال ابن الجارود وتفرقوا

ثم أمر ، فوضع عبيد بن كعب ومحمد بن عمير في السجن حيث قالا له : تأتينا لنمنعك

وحمل رأس ابن الجارود ، وثمانية عشر رأساً من وجوه اصحابه الى المهلب ، فنصبت ليراها الخوارج

وكان بين القتلى ، عبد الله بن انس بن مالك الانصاري ، فقال الحجاج : لا أرى أنساً يعين علي

وانس حي ، وهو بالبصرة ، فلما دخلها الحجاج أخذ ماله

فاستأذن عليه أنس ، فلما دخل قال الحجاج : لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن الخبيثة ، شيخ ضلالة جوال في الفتن ، مرة مع أبي تراب ، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الجارود ، أما والله لاجردنك جرد القضيب

فقال : من يعني الأمير ؟

قال : اياك أعني لعنك الله

فرجع ، فكتب الى عبد الملك كتاباً يشكره فيه ويصف له ما صنعه معه ولأنس منزلته ومقامه في الاسلام

فلما بلغ كتابه امير المؤمنين،وكان ذلك في اول الليل ، غضب غضباً شديداً وقال لحاجبه : ادع اسمعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر .

فلما دخل قال له : يا اسمعيل ، ما اشد علينا ان تقول الرعية ، ضعف أمير المؤمنين وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز له عن سيئة . .

قال : وما ذاك يا امير المؤمنين ؟

قال : أنس بن مالك ، خادم رسول الله ، كتب الينا يذكر ان الحجاج قد اساء جواره .

– وما تريد ان اصنع ؟

– لقد كتبنا في ذلك كتابين ، احدهما الى أنس ، والآخر الى الحجاج ، فخذهما واخرج الى البريد ، فأذا أتيت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع اليه كتابنا وقل له :

اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج اليك ، ولن يأتيك أمر تكرهه ان شاء الله ، أفهمت ؟

– . نعم يا امير المؤمنين .

– . ثم سر الى الحجاج فادفع اليه كتابه وقل له : اغتررت بامير المؤمنين غرة لا اظنه ينساها لك .

ثم احفظ ما يقوله لك وما يكون منه حتى تعيده علينا اذا رجعت .

والتفت الى ابي زرعة قائلاً : اعطه الرسالتين .

فتناولهما اسميل وخرج على البريد حتى قدم العراق .

فبدأ بانس فدفع اليه كتاب عبد الملك ، ونقل اليه قوله لم ينس منه كلمة .

فلما فرغ من قراءة الكتاب قال له : يا أبا حمزة ، ان الحجاج عامل من عماله أمير المؤمنين له القوة والسلطان وهو قادر على أن يضر وينفع .

— . واي شيء تراه ؟

— . أريد ان تصالحه . .

قال : ذلك اليك فانا لا اخرج عن رأيك .

ثم أتى الحجاج ، فرحب به قائلاً : والله لقد كنت احب ان اراك في بلدي هذا .

— . وانا والله كنت احب ان اراك ، وامثل بين يديك بغير الذي ارسلت به اليك . . .

فذعر الحجاج وقال : ماذا ؟

— لقد فارقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك .

— . وما صنعت حتى استحققت غضبه ؟

فدفع اليه كتابه، فجعل يقرأ وهو يمسح العرق بيمينه ، ثم قال : قم نذهب الى أنس بن مالك .

قال : لا تفعل ، فأني سأدعوه للمجيء اليك .

فألقى الكتاب من يده وقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف » .

« امـا بعد ، فانك عبد طمحت بك الامور فطغيت ، وعلوت فيها حتى جزت قدرك ونسيت نفسك . اذكر مكاسب آبائك في الطائف اذ كانوا ينقلون .

الحجارة على اكتافهم ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم . لقد نسيت ما كنت عليه انت واباؤك من الدناءة والضراعة واللؤم .

« وقد بلغ أمير المؤمنين ، استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(فعليك لعنة الله ، من عبد اخفش العينين ، وايم الله لو ان امير المؤمنين علم انك انتهكت له عرضاً فيما كتب به الى امير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهر البطن حتى ينتهي بك الى أنس بن مالك فيحكم فيك بما احب . . . » .

وانطلق اسمعيل الى أنس ، فلم يزل به حتى جاء معه الى الحجاج .

فلما دخلا عليه قال :

يغفر الله لك يا أبا حمزة ، عجلت باللائمة واغضبت علينا أمير المؤمنين .

ثم اخذ بيده فاجلسه معه على السرير .

فقال أنس : لقد كنت تزعم اننا الاشرار والله سمانا الانصار ، فكان المخرج والمشتكى في ذلك الى الله والى الخليفة ، الذي عرف من حقنا ما جهلت وحفظ منه ما ضيعت ، وسيحكم في ذلك رب هو اقدر على الغير ، في يوم لا يشوب الحق عنده الباطل ...

ثم قال :

والله لو ان اليهود او النصارى ، رأت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم ، يوماً واحداً ، لرأت له ، ما لم تروا لي ، في خدمة رسول الله عشر سنين ...

فاعتذر اليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره ثم كتب الى امير المؤمنين كتابا يذكر له فيه ما جرى .

وهذا بعض ما ورد في كتابه :

الى امير المؤمنين عبد الملك بن مروان . بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد

اصلح الله أمير المؤمنين وابقاه ، فان اسمعيل ابن ابي المهاجر قدم علي بكتاب امير المؤمنين ، يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي ، وتعييري بما كان قبل نزولها لنعمة بي من عند امير المؤمنين ، ويذكرني استطالة مني على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

ان امير المؤمنين ، في قرابته من محمد رسول الله امام الهدى وخاتم الانبياء احق من اقال عثرتي وعفا عن ذنبي . وقد رأى اسماعيل بن المهاجر حامل كتابك ، نزولي عند مسرة أنس بن مالك ، وخضوعي لكل ما ورد في الكتاب .

فان رأى امير المؤمنين ان يأمر لي بكتاب رضى يومنني به من سفك همي فليفعل . .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب قال لأبي زرعة :

اكتب الى ابي محمد ما سألناه اياه .

وكان ذلك ، في مساء اليوم الذي خرج فيه حرملة الكندي ، من الخضراء ، ليسير الى منزل عمرو بن سعيد



١٣

قيل لأم أمية وأم محمد : بالباب رسول من القيروان

فأقبلتا الى قاعة الجلوس ، والشوق مطل من العيون ، ووراءهما اسماعيل ومحمد وأم كلثوم ، وقد حبسوا الأنفاس

ودخل حرملة .

فقالت ولادة : مرحباً برسول الخير . ما وراءك ؟

قالت : انت أم امية ؟

ـ . نعم وهذه أم محمد

ـ . وهذان الفتيان ، محمد واسماعيل ، بينهما أم كلثوم

قالت : وتعرف اسماء بني

ـ . بل اعرف ما في الصدور ... ان الفتيان الثلاثة الذين يحـــاربون في القيروان تحت لواء حسان فتيان طاعة ومروؤة ، واباء ، وقد سألوني ، قبـــل خروجي ، ان اصف لكم حالهم ، وأنقل اليكم أخبارهم

فتحدرت الدموع ، وساد السكون ..

فقال : ألا يسألني أحدكم سؤالاً ؟

فأومأت ولادة الى اسماعيل تأمره بأن يفعل ذلك لأن النساء الثلاث خنقهن الدمع .

فقال : اتحمل رسالة ؟

ـ . حملت رسالة حسان الى امير المؤمنين ، التي يذكر له فيها ، ما تم على يده من الظفر والفتح

ـ . الحمد لله فقد ظفر المسلمون

ـ اجل ، فتحوا بلداً يدعى قرطاجنة كان الروم والبربر فيه ، ثم انثنوا على المدن الأخرى التي لجأ اليها العدو

ـ . ومن خسروا من الرجال ؟

ان ما خسروه ، لا يستحق الذكر

ـ . وهم يهمون بالرجوع ؟

ـ . لا ، فقد بقي هنالك حرب الملكة

ـ . من هي هذه الملكة ؟

ـ . هي كاهنة البربر وسيدتهم ، والناس حولها يفدونها بالمهج ، والمسلمون لا يستطيعون الاقامة بذلك القطر ، الا اذا محوها من الوجود

ـ . وحسان اليوم يتحفز للوثوب ..

ـ . نعم ، فقد عاد مع الجيش الى القيروان ، لأن الجراح قـــد كثرت في

أصحابه ، وسيزحف اليها بعد ان يستعيد الجند قواه

قال : ان الله الذي نصر المسلمين، في كل بلد ، على اعدائهم الرجال، ينصرهم غداً، في قتال البربر على المرأة التي ذكرت ، ثم قال :

اما الآن فارجو ان تصف لنا ، حال أخوي ومحمد ..

قال : لقد انتهى الفتح الذي خبرتك به ، دون ان يسقط واحد من الثلاثة عن فرسه ، ودون أن يصاب أحدهم بجروح

فقالت ميمونة : وتقسم لنا أن روايتك صحيحة ؟

اقسم بالله الذي لا اله الا هو اني لم اخف شيئاً مما اعلم ولم أزد كلمة

فاشرقت الوجوه

ثم قالت أم محمد : والامير .. أيعطف على الثلاثة ؟

ـ. حسان ، لا ينسى جندياً من جنوده ، ولا يغفل عن مسلم .. انه يعطف على الاشراف والصعاليك في الجيش ، كأنهم جميعهم بنوه .. وقد يكون له عناية خاصة بجماعة الحرس ، التي تحيط بفسطاطه في الميادين والفتيان الثلاثة من هؤلاء ..

ـ. من حرسه ؟

ـ. نعم ، وقد رأيته اكثر من مرة ، ويبتسم لهم ابتسامات الرضى وهم من جانبيه ..

ـ. في ساحة الحرب أم في الفسطاط ؟

ـ. ان الشفاه لا تبتسم في ساحات القتال

ـ. اذن هو يحبهم ولو لم يكن الأمر كذلك لما قربهم اليه

ـ. بل يستشيرهم في كل أمر ولهم في مجلسه رأي

فمسحت دمعها قائلة : ولم يقولوا لك كلاماً تنقله الينا ؟

ـ. قالوا لي : صف لهم ما تعلم ، وقد فعلت الآن

ـ. ومتى تستعر نار الحرب بين المسلمين والملكة ؟

ـ يستعيد الجيش قواه بعد شهر على الاكثر

-. ثم يستولي على بلادها ويرجع الى دمشق
-. ولكن هذا الاستيلاء صعب
-. لمـــاذا ؟
-. لأن الملكة في جبل هو أمنع حصن في ذلك الاقليم
قالت : تهون المصاعب عند المسلمين الابرار ، الذين ينشرون ، في ذلك القطر البعيد ، الايمان بالله
-. ومع ذلك فقد يرجع بضعهم ، وتطيب الاقامة بافريقيا للبعض الآخر فيبقى .
-. اما فتياننا الثلاثة فسيعودون على الأثر
فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : من يعلم . فقد يعود الاخوان ويبقى محمد..
فابتسمت قائلة : أصبت فمحمد يؤثر القيروان على دمشق ...
وقام في ذهنها عندئذ انه يمزح .. ولكن لهجته لم تكن لهجة رجـــل يحب المزاح
وقد عرف اللعين ما خطر لها ، فتمتم قائلاً : اي والله .. انه يؤثر القيروان على دمشق وكان من قبل .. يؤثر دمشق .. على الجنة ...
فصاحت أم كلثوم صيحة ذعر .. ذلك لأنها رأت على وجه حرملة ، ما لم تره أم محمد
رأت رجلاً رصيناً يتكلم بهدوء وشفتاه ترتجفان ، وهو يقص قصته ...
وخطر لها ، قبل ان تفكر في الأمر ، ان الاقدار غيرت محمداً
ثم صاحت أم محمد وجعلت تقول : لقد طاب لك المزاح ايها الرجل فقلت ما قلت
فأجابها وهو هادىء : اذا أذنت لي تكلمت ..
فأومأت اليه بأن يفعل ، فقال : عندما عرفت محمداً ، عرفتــه عاشقاً برح به الهوى ، وكنت أسمعه، في نهاره وليله ، يذكر اسم أم كلثوم ، ويشكو هذا

البعاد الذي اكره عليه ، ويسأل الله على مسمع من اصحابه ، ان يقصر اجل الحرب ..

ـ. ثم ماذا ؟

ـ. ثم رأيته بعد شهر ، وقد برح به هوى آخر ليس لأم كلثوم صلة به !!

فانتهرته قائلة : انها رواية كاذبة فلا تزد ....

ـ. بل هي رواية صحيحة ، طلبت الي الساعة ، أرويها كما هي ، ثم رأيت الآن ان اسكت ، فسكت ، واني راجع ...

ونهض وهو يهم بالإنصراف

فقالت ولادة : تقصها علينا قبل ان تنصرف

قال اذا رضيت أم محمد ..

قالت : صف لنا هذا الهوى الذي ذكرت ...

ـ. انه هوى ما رأيت أغرب وأشد منه ، وكان محمد يقول لي : خير لي ان أراجع اليوم ، وانسى الخطبة ، من أن أتزوج غداً أم كلثوم واطلقها بعد يومين

فاتجهت النظرات الى أم كلثوم ..

وكانت أمها واخواها يظنون ، انها لا تستطيع ان تحتمل اكثر مما سمعت..

ولكنهم رأوها ، تنظر الى الرجل نظرة جديدة ، وفي عينيها شعاع من الشك .. محا دلائل الذعر ، التي غمرت وجهها منذ لحظة ..

ثم قالت ميمونة : ألا تذكر لنا اسمك ؟

ـ . اسمي عباد بن جندب ، من بني مرة .. !

فحفظت أم كلثوم هذا الإسم ..

ـ . واسم الفتاة التي أحبها محمد ؟

ـ . آمنة بنت سيار العكلي ! ..

ـ . وأبوها حي ؟

ـ . نعم وله ثلاث زوجات وخمسة بنين

قالت : لم يرض سيار الا أن يأخذ زوجاته وبنيه الى القيروان ..

ـ . ان الرجل لم يخرج الى افريقيا مع حسان

ـ . ومتى خرج ؟

ـ . يوم جعل معاوية ، أبا المهاجر ، عاملاً له على ذلك القطر ، ثم تولى عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، وسيار باق

ـ . يظهر ان جمال آمنة خلاب ، وفي عينيها شيء من السحر ..

ـ . اجل ، ولكن جمالها لا يذكر عند جمال أم كلثوم ..

ـ . وتعلم كيف نشأ الحب بين الاثنين ؟

ـ . رأى محمد آمنة على سطح المنزل فوقع في الشرك ، وجعل الحب ينمو ويشتد حتى فضحه ..

ـ . وباح لها بغرامه ؟

ـ . نعم ..

ـ . ثم كانت الخطبة؟

ـ . نعم ...

ـ . واذن له حسان في ذلك ؟

ـ . ان الأمير لا يعلم شيئاً عن هذا الغرام ..

ـ . وسعيد وامية ؟

ـ . كتمها الأمر فهم مثل حسان لا يعلمان شيئاً ..

ـ . وكيف استطاع محمد ، ان يبوح بهواه ، ويخطب آمنة ، وليس لـه في القيروان أهل ، يهتمون له بالأمر ؟

ـ . أما أهله ، فأنا وزوجتي ، وقد فعلنا كل شيء ، وعـــاهدناه على الكتمان ..

ـ . ثم نكثت الآن عهدك وبحت السر ..

ـ . أجل ، بحت به ، لأنه هو الذي أمرني بأن انقل اليك خبره ، واذكر لك ما جرى له ..

ـ . الي أنا ؟

ـ . لقد قال لي: خبّر أمي بما تعلم

ـ . ولكنك خبّرت في الوقت نفسه ، أم أمية وبنيها ولم تبال ..

ـ . كان ذلك مظهراً من مظاهر وفائي لأمية وسعيد .. ان أم كلثوم ، يجب ان تعلم هذا قبل ان يمسي حديث الناس في الشام ..

فخطر عندئذ خاطر لأم كلثوم ، فقالت له : ليفعل محمد ما يطيب له فأنا لا اعبأ به .. واني اعترف لك ، قبل ان ترجع ، بأنك كنت وفيـاً لأخوي جزاك الله

فأسكتتها أمها قائلة : لا تقولي مثل هذا يا أم كلثوم

قالت : ليس غريباً أن اقول الآن ما اشاء .. فأنا الفتـاة المخطوبة .. وسيمسي محمد لآمنة ... كما اني سأمسي لسواه ..

ونهضت فجأة ، ففتحت باباً ينتهي منه الداخل الى مخدعها ، فرأت العبد مرة وراءه

فتراجعت الى الوراء ثم قالت : ماذا تصنع هنا ؟

فاصفر وجهه ، واضطرب وهو يقول : كنت اصغي الى ما يقوله .. هذا الرجل .. الغريب

ـ ولكنك كنت عند دخوله في الدهليز ..

ـ . نعم ... ثم .. أتيت .. لأعلم .. من هو

فأمرته بأن يبقى ، ثم رجعت الى القاعة وحرملة يهم بالذهاب ، فقالت له: متى ترجع الى القيروان ؟

ـ بعد يومين

ـ . اذا قدمتها فاذكر لأخوي ما سمعت ورأيت

فقالت أم أمية :

رسالة ... رسالة .. أريد ان تحمل رسالتي اليها

فقالت الفتاة :

لا حاجة لنا الى الرسائل الآن .. أعطيه دينارين فقد كان وفياً لأميــة وسعيد .. قف يا عباد ..

ولكنه لم يشأ ان يقف من أجل دينارين ..

فشيعته الى آخر الدهليز وهي تقول : على بركات الله ... ولا تقل شيئــاً لمحمد ..

فلما خرج ، وأغلق الباب ، تلألأت الدموع في عينيها وهامستهم قائلة :

رجل كاذب .. وقصة كاذبة .. وسترون

ودعت عبداً من عبيد أبيها يقال له بكير فقالت له : أرأيت الرجل الذي خرج الساعة ؟

ـ . نعم يا مولاتي

ـ . انه رسول حسان بن النعمان الى عبد الملك ، فأنا اريــد ان أعرف اسمه ، والى أي مكان يسير الآن .. اذهب ، واحذر أن يراك

ـ . انه لا يعرفني لأنه لم ير لي وجهاً ..

ـ . اذن فافعل ما شئت

فانصرف بكير ، فقالت للقوم : أتظنون ان محمداً خانني ونسي شرفـه ؟

فقالوا جميعهم الا أم أمية :

ان محمداً لا يفعل ذلك ولم نشك قط فيه

ـ . وانت يا أمي ؟

ـ . اما أنا فسأنظر في الأمر بعد رجوع بكير ..

قالت : لقد احسست من قبل ، ان هــذا القلب يضطرب مذعوراً في صدري ، ولكن اضطرابه لم يلبث حتى اضمحل ، عندمــا سمعت الرجل يقول :

ليس في القيروان من يعلم شيئاً عن غرام محمد ، غيره هو .. وغير زوجته ... ان في الأمر ما فيه .. وسيبين كل شيء ..

وخفضت صوتها قائلة لإسماعيل ومحمد :
ان العبد مرة ،هدية بشر بن مروان،من الخونة ، وقد يكون عيناً علينا
فقال اسماعيل : وكيف عرفت ذلك ؟
ـ . رأيته الساعة وراء هذا الباب يصغي الى ما نقول
فناداه فأقبل ، وأغلقت الأبواب

★★★

- ١٤ -

اجتمع الزنج بفرات البصرة ، في آخر أيام مصعب بن الزبير ، ولم يكونوا كثاراً ولكنهم افسدوا ، ثم كثروا
فشكا الناس الى خالد بن عبد الله ، وكان والياً ، ما نالهم منهم ، وسألوه أن يكفيهم شرهم
فوجه اليهم جيشاً ، فلما بلغهم ذالك تفرقوا ، ولكنه استطاع ان يقبض على بعضهم ، فقتل منهم من قتل ، ثم صلبهم
فلما كان من أمر ابن الجارود ، ما ذكرنا ، خرجوا مرة ثانية ، واجتمع منهم خلق كثير على الفرات ، وجعلوا عليهم رجلا اسمه رباح
فأمر الحجاج ، صاحب شرطته ، زياد بن عمرو ، بأن يرسل اليهم من أهل البصرة ، من يقاتلهم
فسير اليهم زياد ، ابناً له يقال له حفص ، مع طوائف من اصحابه ، فقتلوه ، وهزموا رجاله
غير ان زياداً لم يسكت ، بل ارسل اليهم جيشاً آخر ، فتك بهم ، وفرقهم ، ثم استقامت البصرة

وكان كتاب الحجاج ، الى المهلب ، وعبد الرحمن بن مخنف ، قد انتهى اليهما ، وهو يأمرهما فيه ، بالقضاء على الخوارج

والخوارج في أرض من بلاد فارس

فسار الرجلان اليهم ، وجعل المهلب ، حول جيشه خندقاً يمتنعون وراءه ، وكان اصحاب عبد الرحمن يقولون :

لا حاجة لنا نحن الى الخنادق ما دامت السيوف بالأيدي

فلما كان الليل ، اتى الخوارج المهلب ، فوجدوه قد امتنع،واحتاط لأمره ، فانثنوا يريدون عبد الرحمن

ولم يكن هنالك ما يمنعه ، غير رجاله

فقاتلوه ، فتفرق اصحابه ، ولم يبق حوله غير واحد وسبعين رجلاً

وهو يقاتل ، في مكان مشرف حتى انقضى الهزيع الثالث من الليل ، فقتل ، وجرح ابنه جعفر ؟ وقتل معظم الرجال ، الذين صبروا معه

فلما اصبحوا ، قدم المهلب ، فدفنه ، وصلى عليه ، ثم كتب بذلك الى الحجاج .

فقال الحجاج لعتاب بن ورقاء : جعلناك قائداً لجيش عبد الرحمن ، على ان تطيع المهلب ، وتسمع له ، وتستعين برأيه في كل أمر

فساءه ذلك ، ولكنه لم يجد بداً من طاعته .

على انه لم يكن يستشير المهلب في شيء ، بل كان يقاتل مستقلاً كأنه لم يكن للمهلب سلطان

فدعاه المهلب فقال : يا ابن ورقاء ، ألم يجعل الحجاج أمرك الي ؟

ـ . بلى .

ـ . وكيف تصنع ما تصنع بدون اذن ؟

ـ . ذلك ما خطر لي ...

ـ . ولكنك نسيت اني قادر على تأديبك .

فغضب قائلاً : انك لأضعف من أن تفعل ... انا عتاب .

ـ . وأنا المهلب ...

ثم رفع قضيباً كان بيده ، يهم بأن يضربه به

فتصدى له إبنه المغيرة بن المهلب فقال : انه شيخ من اشياخ العرب ، وشريف من اشرافهم ، فان سمعت منه بعض ما تكره فاحتمله فانه لذلك أهل .

فحوّل المهلب وجهه ، ثم افترقا

فأرسل عتاب الى الحجاج ، يشكو ابن ابي صفرة ، ويسأله أن يأذن له في الرجوع اليه

فأمره الحجاج بأن يعود ، بعد ان يضم جيشه الى جيش المهلب ، وقد تولى أمر ذلك الجيش ، ابن للمهلب يقال له حبيب

وفي مقتل عبد الرحمن بن مخنف يقول الشاعر :

لمن العسكر المكلل بالصر عى فهم بين ميت وقتيل

فتراهم تسفي الرياح عليهم حاصب الرمل ، بعد جر الذيول

ولحق المهلب بالخوارج ، وهم بسابور ، يقاتلهم ويقاتلونه أكثر من عام

على ان حرباً اخرى نشبت في الجزيرة ، سعّر نارها رجل من بني تميم ، يدعى صالح بن مسرح

وهو شيخ صالح زاهد ، كان يأتي الكوفة فيقيم بها الشهر يعد ما يحتاج اليه ، ثم ينصرف

وقد أملى عليه صلاحه وزهده ، ان يخرج عن الطاعة ، ويقاتل عمال عبد الملك .

وهنالك رجل آخر من اهل العراق ، إسمه شبيب بن يزيد ، له مذهب صالح ورأيه .

وقد عرف ان صالحاً يهم بالخروج

وأمير المؤمنين لا يعلم شيئاً من أمر الرجلين

فلما حج في ذلك العام ، مشى شبيب يريد ان يفتك به ، ولكن جواسيس

عبد الملك ، نقلوا اليه خبره ، فأحاط نفسه بالحرس ، وكتب الى الحجاج ، يأمره بطلبه وطلب اصحابه

ثم انتهى الى المدينة فخطب في الناس قائلاً :

أما بعد ، فاني لست بالخليفة المستضعف « وهو يريد عثمان » ولا بالخليفة المداهن ، « وهو يعني معاوية » ولا بالخليفة الناقص العقل « وقد عني يزيد » ألا واني لا أداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم .. انكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثلها .. وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه .. »

وقضى حجه ورجع ، وهو يلج على الحجاج في طلب صالح وشبيب

وكان صالح قد ترك الكوفة ولجأ الى الموصل والجزيرة وحوله اصحاب يقرأ لهم القرآن والفقه ، ويقص عليهم الاخبار

فلما اشتد الطلب ، دعاهم الى الخروج ، وحمل السيف ، في وجه الامراء الظالمين ..

وراسل من بقي من انصاره

فبينا هو في ذلك ، ورد عليه كتاب شبيب يقول له :

لقد كنت تريد الخروج ، فان كان ذلك من شأنك اليوم ، فانت شيخ المسلمين ولن نرضى غيرك ، وان ترددت ، فاكتب إلي ، فان الآجال غادية رائحة ، وانا لا آمن ان تمتد الي يد الموت ، قبل ان اقاتل اهل الظلم والجور

فكتب اليه : اقبل الينا ، فانت ممن لا يستغنى عن رأيه ، ولا تقضى الأمور دونه .

فركب شبيب مع قومه حتى أتوا صالحاً ، وهو بمكان يقال له دار

فلما تلاقى الرجلان ، قال شبيب : اخرج بنا فوالله ما يزداد المجرمون الا طغياناً ..

فبعث صالح رسله ، ثم خرجوا هلال صفر

وكان محمد بن مروان ، شقيق عبد الملك ، أمير الجزيرة كما علمت ، وقد بلغه ما فعلوه

فأمر عدي بن عدي الكندي ، بأن يسير الى قتالهم ، ويقود من أجل هذه الغاية ، الفاً من الفرسان

ثم انتهى اليه ، ان رجال صالح ، مدّوا أيديهم الى دواب له كانت ترعى ، واستعانوا بها على أمرهم

فقال لعدي : تعجل فقد أمعن القوم في العداء ، فسار عدي ، وكأنه كان يساق الى الموت

وأرسل الى صالح يسأله ان يخرج من مكانه وينصرف من ذلك الاقليم ، لأنه يكره قتاله

ذلك لأن عدياً كان ناسكاً مثله فقال صالح لرسوله : اذا كان سيدك يرى رأينا خرجنا عنه

فبعث اليه عدي يقول: اني لا أرى رأيك ولكني اكره قتالك وقتال غيرك

فقال لاصحابه : احبسوا هذا الرسول واركبوا

فركبوا . فمضى بهم حتى أتى عدياً وهو يصلي الضحى ، فلم يشعروا الا والخيل طالعة ، فلما رأوها تنادوا

وجعل صالح شبيباً في ميمنته ، وسويد بن سليم في ميسرته ، ووقف هو بالقلب ثم حملوا عليهم فانهزموا

واقبل صالح فنزل في معسكر عدي ، وأخذ ما فيه

فلما انتهى المنهزمون الى محمد بن مروان ، غضب غضباً شديداً ، وندم على اختياره عدياً ، من أجل هذه الغاية ..

ثم دعا خالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة رجل ، ودعا الحرث بن جعونة فبعثه في ألف وخمسمائة ، وقال لهما: اخرجا الى هؤلاء المتمردين، فايكما سبق ، فهو الامير على صاحبه

فخرجا متساندين لا يسبق احدهما الآخر وهما يسألان عن صالح حتى انتهيا الى مكانه

فاقتتلوا من العصر حتى غربت الشمس ، فلم تثبت خيـــل بن مروان ، فترجل الاميران وترجـل اصحابهما ، فهزموا صالحاً حتى اخرجوه من الجزيرة والموصل ، ودخل ارض العراق

ووجه اليه الحجـــاج الحرث بن عميرة ، في ثلاثة آلاف من اهل الكوفة ، واستمرت نار القتال

ولكن الحظ خان صالحاً في هذه المرة ، فقتل ، ولجأ شبيب ومن معه الى حصن في ذلك المكان ، وكانوا جميعهم سبعين رجلا ، فأحرق الحرث البـــاب وكانوا يقولون:

انهم لا يقدرون على الخروج منه وعوّل على ان يصحبهم غداً بالسيف

فقـــال شبيب لرجاله : هذا الليـــل يحجبنا عن عيون القوم ، فما تنظرون .. والله لئن صبحنا هؤلاء لما أبقوا منا واحداً

قالوا : نفعل ما تأمرنا به

قال : بايعوني، او بايعوا من شئتم

— . وبعد ذلك ؟

: نخرج فنفاجيء العدو في جيشه ، وهو آمن

فبايعوه ، وأتوا باللبود فبلّوها بالماء وجعلوها على جمر البـــاب ثم خرجوا وما هي الا ساعة ، حتى ضعضعوا الجيش ، وصرع الحرث ، وهو اول جيش هزمه شبيب

ثم كانت الوقائع بعد ذلك ، والنصر فيها كلها يبسم لشبيب ، وهو يقتـل الرجال الذين يسيرهم اليه الحجاج ، ويهزم الجند ، ويصول ويجول بالقرب من الكوفة وهو ظافر

حتى وجه الحجاج عبـــد الرحمن بن محمد ، بن الاشعث ، في ستة آلاف رجل ، وامره بأن يطلبه ولو تعلّق بالغمام

ثم كتب اليه بعد بلوغه المدائن : امـــا بعد، فاطلب شبيبا وامش في أثره حتى تدركه فتقتله او تنفيه ، فانمـــا السلطان سلطان امير المؤمنين والجند جنده والسلام

فخرج عبد الرحمن في أثره ، فكان شبيب يصبر حتى يدنو منه ثم يتركه ويسير، وهو يرى انه غير قادر على اقتحام جيشه

فتبعه عبد الرحمن يمشي زهـــاء عشرين فرسخاً ثم ينزل في ارض خشنة غليظة ، وعبد الرحمن وراءه

فاذا دنا منه ، فعل مثل ذلك

حتى لقي جيش عبد الرحمن ما لقي من الجهد

وانتهى السير بالجيشين الى قرية من قرى الموصل ليس بينها وبين سواد الكوفة إلا نهر صغير

فنزلا ، فارسل شبيب الى عبد الرحمن يقول : ان هـــذه الايـام عيد لنا ولكم ، وهو يعني عيد النحر ، فهل لك في الموادعة حتى تنقضي ؟

فأجابه الى ذلك . فكتب عثمان بن قطن الى الحجاج :

اما بعد فان عبد الرحمن كسر خراج البلاد وخلى شبيباً يأكل أهلها

فكتب اليه الحجاج، سر الى الجيش فأنت اميره ، وقد عزلنا عبد الرحمن

فسار من المدائن حتى بلغ المعسكر ، مساء الثلاثاء يوم التروية، فنادى الناس وهو على بغلة له : اخرجوا الى عدوكم

فلم يخرج الناس في ذلك الليل

فبات عثمان ليلته كلها يحرّض اصحابه

فلما اصبحوا ، استقبلتهم ريـح شديدة تميد لها الجبال

فصبر الى اليوم الثاني حتى هدأت ، ثـم خرج وقـد عبّى اصحابه ، وعلى الجناحين ، خالد بن نهيك بن قيس ، وعقيل بن شداد

وعبر شبيب النهر اليهم ورجاله مئة وواحد وثمانون ليس غير

وقال لأصحابه : إني حـامل على ميسرتهم فيما يلي النهر ، فاذا هزمتهـا فليحمل صاحب ميسرتي على جناحهم الأيمن ، وليبق قلب الجيش حتى يأتيه امري .

ثم حمل على ميسرة عثمان فهزمها ، وقتل قائدها عقيل بن شداد ، ثم هزم الميمنة وقتل قائدها خالد بن نهيك

فبرز عثمان ومن معه من الوجوه والأشراف يريدون القلب ، وفيـه أخو شبيب ، فلما دنوا منه ، تصدى لهم ، وجعل يضاربهم حتى فرّقهم عنه ، ثـم حمل شبيب بالخيل من ورائهم ، فما شعر عثمان الا والرماح في اكتافهم

وكان عثمان يقاتل قتالاً ضعيفاً فأحاطوا به ، وضربوه حتى قتلوه

وسقط عبد الرحمن جريحاً ، فحمل الى دير يقال له دير ابي مريم واجتمع المنهزمون اليه ، فلما كان المساء ، أتاه فارسان أخفيا وجهيهما بعمامتيهما ، وخلا احدهما به طويلاً ثم انصرفا راجعين

فتبين بعد ذلك ان الرجل الذي خلا بعبد الرحمن ، كان شبيباً نفسه...

وكان الاثنان يتراسلان قبل ذلك،ولم يلبث عبـد الرحمن حتى خرج الى الكوفـة

واحتجب فيها عن الحجاج ، حتى اخذ له الأمان منه

وجعل شبيب يطوف في القرى ، والناس يكثرون حوله ، حتى عظم امره على الحجاج ، وخاف ان يغضب عليه عبد الملك ، اذا امتـدت سطوة الرجل ، وبعد نفوذه

★ ★ ★

١٥

مرة .. كنت في مخدع ام كلثوم تسمع ما نتحدث به ؟

-. نعم يا مولاي

-. وما هي غايتك من ذلك ؟

-. خيل الي اني اعرف الرجل من قبل ، فخطر لي ان اصغي الى ما يقوله

-. وكيف تعرفه وهو مقيم بالقيروان ، وقد رحل اليها منذ اعوام ؟

-. كنت اراه في الكرفة قبل رحيله ..

-. وتذكر إسمه ؟

-. لا يا مولاي

-. وماذا سمعت ؟

-. سمعت بعض ما ذكره عن محمد

-. وانت واثق بأنه لم يكذب ؟

فاطرق قليلاً ثم قال : اجل واثق وقد سمعت مثل هذا ، منذ شهر ...

-. ممن ؟

من رسول آخر بعث به حسان الى دمشق ...

وتحدث ذلك الرسول بامر محمد وام كلثوم

- نعم وكان يقول : ان محمداً علق فتاة في القيروان وقد لا يرجع الى الشام ...

فنظر اسمعيل الى امه نظرة قصيرة ثم قال :

اين رأيت الرجل ؟

-. عند الخضراء ، وكان الناس يسألونه عن الحرب

-. ثم جعل يقص عليهم حكايات الغرام ...

فاختلجت عينا العبد واصفر وجهه

ولكن اسمعيل لم يبال بمـا رأى ، بل كان يقول : أطاب للرسول ، انه يحدث الناس ، بغرام محمد ، دون ان يسألوه ؟

قال : لقد سألته انا يا مولاي

ـ. وكيف كتمتنا الامر ولم تقل لنا كلمة ؟

ـ. لم اجسر على ذلك

ـ. أي انك كنت تخاف ان تضطرب لخبرك ، ام كلثوم ...

ـ. نعم

ـ. ولكنك لم تخف الآن ، ما كنت تخافه من قبل

قال : سألتني يا مولاي ، وبحت لك بما اعلم ..

قال : أكان رسول حسان يحمل كتاباً الى عبد الملك ؟

ـ. ذلك ما قيل لي

فابتسم قائلاً : كان رجـال البلاط يقولون لاهل دمشق كل يوم ، ان حسان ابن النعمان لم يبعث كتاباً يصف فيه الحرب ، ولم ير ان يرسل الى امير المؤمنين رجلاً ، ينقل اليه اخبار القيروان ... ثم قـال : ان الرجل الذي كان عندنا الساعة ، أول رسول من افريقية واول من حمل اخبارها الى الشام ..

ـ. هذا ما سمعته يا مولاي خبرتك به ..

ـ. لك ان تقول ما تشاء .. ولكن لا اصدق ..

قال : لم اكن قط كاذباً يا مولاي

ـ. وما هو دليلك ؟

ـ بعض الناس الذين سمعوا ما سمعت ..

ـ سم أحدهم

ـ. اعرف عبداً من عبيد الكوفة ، كان مع القوم عند الخضراء ، وقد سمع كل شيء ..

ـ. وسيد هذا العبد ؟

ـ. رجل من رجال القصر ..

قال : كلما دنونا من الامر شبراً .. أبعدتنـــا عنه ذراعاً .. اجلس . فأنا اعرف دواءك ...

ثم نادى :

يا غلام السوط والسيف

فحملهما اليه ، فأخذ السوط وقال : وتربة عمرو بن سعيد ، لا تخرج من هنا ، الا اذا اعترفت بما في صدرك .. قل الان .. أي غرض لـــك من الوقوف وراء الأبواب ، والاصغاء الى ما نقول ؟

فتلجلج صوته وهو يقول : اني عبد من عبيد الدار ولا غرض لي

واقبل بكير عندئذ والهم في وجهه

فقالت ام كلثوم :

دعوني أسأله ثم قالت له : أخرجت وراء الرجل ؟

ـ. نعم يا مولاتي ولم أغفل عنه

ـ. واين هو ؟

ـ. دخـــل دار الريان صاحب الشرطة ، ثم خرج فسار الى الخضراء حتى انتهى الى الرواق الغربي والحرس لا يعرضون له

ـ. ثم ضيعته ؟

ـ. لا ، فبينما انا مع الغلمان ، عند الباب ، اقبل الريان فقال لأحدهم :

ادع حرملة الكندي ، رسول حسان بن النعمان ، فوثب الغلام الى الرواق ، فدعاه ، فاذا هو الرجل نفسه ، الذي كان يدعى عباداً منذ ساعة . . . !

— . عباد . . . بن جندب من بني مرة . . . اذن هو يـــدعى حرملة من بني كندة . .

— . اجل ثم انصرف الاثنان الى المقصورة القائمة عند الجدول الذي يسقي بساتين الخضراء وجلسا هناك . .

— . في المقصورة ؟

— . في ظلها من ناحية النهر

فنظرت الى القوم كأنها تقول: لقد ظفرت

ثم قالت لبكير : وبعد ذلك ؟

— . انضم اليهما عبد للريان هو من موالي الكوفة وجعل الثلاثة يتحدثون ، والابتسامة على شفتي الريان

فقالت : اسمع يا مرة .. انـه من موالي الكوفة ، ولعله العبد الذي ذكرته الان لمولاك اسماعيل ...

ثم هامست اخويها قائلة: استخرجا بالسوط ما في صدر هذا اللعين ... قل يا بكير .. الم تسمع شيئاً ؟

— . بلى ، كان حرملة يقول للريان :

لقد صدق القوم ، ولم تشأ ام كلثوم ان اقول لمحمد كلمـة ، وكانت تقول : سيكون لفتاة من القيروان وسأكون لسواه

— . وطابت عندئذ نفس صاحب الشرطة ...

— نعم ثم قهقه وقال له : بقي عليك ان تصنع ، وانت في القيروان ، مـا صنعته وانت في دمشق ...

فأشرق جبينها قائلة : كفى فقد وضح الامر . . ان حرملة يدفعه الريان الى الكذب ، لغاية له ، وهذه الغاية يعرفها مرة . . اخرج يا بكير ..

وكانت امها وام محمد تقولان : ان محمداً لا ينكث العهد .. وقد ابتسم الجميع ابتسامة النصر .

ثم قالت : لقد جاء دور مرة يا اسماعيل .

فقال له : انك يا مرة شريك الريان في غايته ، اليس كذلك ؟

— . إني لا أعرف الرجل . ولكنك ستعرفه بعد قليل

وقام فدنا منه والسوط في يده

فرأى العبد عزيمة الفتى على وجهه ، فقال : خير لك يا مولاي ان تعمد الى اللين . .

قال : كلمة واحدة اقولها لك ثم أعمد الى الشدة ... أتعرف الريان ؟

قال : تستطيع ان تمزق لحمي بهذا السوط ولكني لا اقول شيئاً .

قال : سنرى

وهم بضربه ، فقال لام كلثوم :

اذا ضربني مولاي اسماعيل سوطاً واحداً سكت الى الابد

فقالت : اترك السوط يا اسماعيل فمرة يريد ان يبوح بما يعلم

وقامت فحملت اليه ألف درهم وهي تقول : اذا اعترفت اعطيناك عشرة آلاف ..

قال : المال خير من السياط .. وانك يا مولاتي خير من الريان . فاسألي ما تشائين واني اوثر الموت وانا شريف، على الحياة وأنا من الخونة .

— . ولماذا تذكر الموت الآن ؟

— : لانه سيكون جزائي اذا بحت بالسر

قالت : تبوح بكل شيء دون ان يعلم صاحبك .. قل ولا تخف .. أكنت من عبيد بشر بن مروان ؟

نعم وقد خطر له ان يجعلني من الجواسيس

—. وكنت تنقل اليه ما نتحدث به ؟

—. نعم وهو بدوره ينقل ذلك الى اخيه امير المؤمنين

وتذكر ما كان يقوله لك ؟

—. كان يقول ، يتظاهر بنو عمرو بن سعيد ، بالاخلاص لأمير المؤمنين ، وهم يكيدون له .. ثم يوصيني بان احفظ ما اسمع

—. وماذا سمعت ؟

—. سمعت محمداً يقول : ان عبد الملك الغدّار لا يصلح للعرش

فصاحت ام محمد : ابني ؟

ـ. اجل ، وقد نقلت كلمته الى عامل الكوفة

فأطرقت ام كلثوم ملياً ، ثم رفعت رأسها قائلة : وذكرت لبشر اسم قائلها .

ـ. ذكرته له ،ولم أنس ما كان يقوله يحيى وعنبسة

فقالت في نفسها : ويل لي ، فمحمد يستحق القتل في هذا وحده

ثم قالت : ذلك ما كنت تصنعه قبل موت بشر ، ونحن في الكوفة أليس كذلك ؟

ـ. بلى

ـ. واليوم ؟

ـ. اما اليوم فانا انقل كل شيء الى صاحب الشرطة

ـ. الريان ؟

ـ. نعم

ـ. وتفعل هذا بأمر امير المؤمنين ؟

ـ. بأمر الريان نفسه

ـ. وهو يخبر مولاه ما يسمعه منك

ـ. لا اعلم .. وقد يكون هنالك غرض للريان ليس لأمير المؤمنين رأي فيه

ـ. لم يقل لك الريان ، يوم لقيته ، ان عبد الملك يأمرك بأن تفعل ، ما يشير عليك به ؟

فخاف مرة ، ان يجعل عبد الملك ، في صف المتآمرين فقال : لم يذكر لي صاحب الشرطة ، اسم عبد الملك

ـ. وكيف تطيعه ، وانت عبد لنا ، وليس له سلطان عليك ؟

ـ. لا تنسي ، مولاتي اني كنت من عبيد بشر ، وقد خطر له ان يجعلني في الظاهر عبداً لكم وعيناً عليكم من وراء الستار

ـ. وأي صلة بين صاحب الشرطة وبشر بن مروان ؟

كنت أعلم أن بشراً ، في الكوفة ، لا يخطو خطوة الا بأمر أخيه ، فلما أتيت دمشق ، ولقيني الريان ، ظننت ان الرجل لا يفعل ما يفعل الا بأمر عبد الملك .. فسمعت وأطعت

قالت : أصبت ، فصاحب الشرطة لا يفعل ذلك الا بأمر سيده ، وهذه أصابع عبد الملك أكاد المسها بيدي الاثنتين ...

-. ولكن تبين لي بعدئذ ان للريان غرضاً كما قلت .

-. ما هو ؟

-. هو أنه يريد أن تزف أم كلثوم، بنت عمرو بن سعيد، إلى فتى من أبناء الأمراء يقيم بدمشق .

فاضطربت قائلة : وتعرف هذا الفتى ؟

-. نعم فهو الكوثر بن زفر صاحب قرقيسياء

فقالت أم أمية : أخو الرباب زوجة مسلمة ؟

-. نعم وقد طلب إلي أحد عبيد الريان ، أن أصف الكوثر لمولاتي أم كلثوم وأذكر لها جمال وجهه ، وكريم خلقه .

-. ولماذا لم تفعل ؟

-. لأنه لم يسألني ذلك إلا منذ يومين ، وسترسل الرباب إحدى جواريها لتقوم بما أقوم أنا به .

فقالت الفتاة : لقد أيقنت الآن بأنك أصبحت من المخلصين ..

-. بل أصبحت عبداً يبذل حياته من أجل مولاه .

فقال إسمعيل : إن لم تكن كما ذكرت ، ذهبت حياتك .

-. سألتك يا مولاي أن لا تتهددني بالسوط والموت فأنا لا أخافهما ، وأنت لا تستطيع على كل حال ، أن تمد إلي يد سوء ...

-. وكيف ذلك ؟

-. إن العبد الذي يحميه قصر الخضراء ، لا يخاف أحداً

قال : أضرب عنقك ، ثم أقول لعبد الملك : قتلت مرة لأنه عـــدو لي ، فيسكت ، وهو لا يريد أن يغضبني من أجلك .

ـ. ولكن الريان لا يرضى إلا بأن يأخذ دماً بدم ، وقد وعدني بذلك

فقالت أم كلثوم : الا ترضى يا اسماعيل بأن اضمن لك وفاءه ؟

قال : لقد آمنت الآن بهذا الوفاء .

ـ : إذن فأعطه ثلاثة آلاف درهم .

فخرج ، ثم حملها اليه قائلاً : هذه هي

فتردد العبد في أخذها ودمعت عيناه .. ثم قال : أتعطوني ثمن خيانتي ؟

قالت : بل نعطيك ثمن وفائك .. إسمع يا مرة انك ستبقى اليوم ، في نظر الريان عيناً علينا

ـ : وانقل إليه الأخبار الكاذبة ؟

ـ : تنقل إليه ما أقوله لك .. أخرج الآن

فتناول الصرة من يد اسماعيل وقال لأم كلثوم : خذيهـــا يا مولاتي واحفظيها لي .

قالت : وسيكون لك غيرها .. أخرج

فلما انصرف قالت : إن أمر مرة في يدي ، وسنقاتل الريان بالسلاح الذي اراد أن يقاتلنا به .

فقالت ميمونة : وما رأيك في الكوثر ؟

قالت : لقد تمشت قشعريرة حية في دمي ، قبل أن أراه .

فضحكت قائلة : وعلى أي شيء عولت الآن ؟

ـ : على أن أكيد لهم كما يكيدون لي ولمحمد

ـ : ذلك أمر لا بد منه ، ولكني أرى ، ان نبعث برسول الى القيروان يحمل اليها أخبارنا

فقالت ولادة : سيخرج رسولنا غداً من دمشق، قبل أن يخرج حرملة .

وجعلوا يتحدثون ، وأم كلثوم تفكر في أمرها ، ونار الغرام تتأجج في الصدر .

★★★

١٦

شفى الله جراح المسلمين في القيروان

وكان حسان ، يعد عدته ليزحف الى قتال المرأة ، التي مشى تحت لوائها ، الشعب الأفريقي ، شعب البربر .

والبربر ، كما عرفت ، طوائف كثيرة ، يسودها الجهل ، ويبسط الوهم عليها ظله ،فهي تؤمن ، بأن الملكة تعلم بالغيب ، وتتنبأ بما يخلقه الزمان .. وليس في العالم كله ، ملك يستطيع أن يصنع ما تصنعه هي .

تأمر البحر فيجف ماؤه ، وتومىء إلى الجبال فتنحدر الى الأعماق،وتغضب على المخلوقات ، فتصير رماداً ، تفعل ذلك إذا أرادت .. ولكن عاطفتها العالية تأبى عليها أن تغير وجه الأرض. ! وهي إذا أمرت البربر ، بأن يقذفوا بأنفسم الى النار ، فعلوا مختارين دون أن يوجهوا اليها سؤالاً.

سلطان لا حد له .. ونفوذ هو نفوذ الآلهة ومال كثير لا تأكله النيران كما يقولون،والشعب حولها ، تنحني لها رؤوس أشرافه،ويحملونها على الأكف ،كلما طاب لها ان تصعد الى جبل ، أو تطوف في سهل .

وقد تقول للمرأة : إطمني زوجك في قلبه ، فتطعنه ، والزوج لا يفكر في

الدفاع ، وقد تقول للرجـــل : اذبح ولدك .. فيفعل !! ويخضب يده بدم غـــلام هو قطعة من كبده !!

أجل انه لجهل لا يرى الناس أغرب منه ، وانها لطاعة عجيبة ، لا تجد مثلها في تاريخ الشعوب ، وحسان يعرف ذلك كله ، وقد خبره المسلمون بما يعلمون، وكانوا يقولون : اذا قتلتها جعلت البربر عبيداً لك .

وهو يهم بالخروج الى القتال ، ويتردد فيه حتى ورد ، عليه جواب عبد الملك ، واستعاد الجيش قواه .

وكان بكير ، رسول اسماعيل بن عمرو ، قد انتهى الى القيروان قبل ان يبلغها حرملة ودفع كتابه الى أمية وقد جاء فيه :

أما بعد فهذا بكير يحمل اليكم أخبارنا ، ويذكر لكم ما فعله حرملة رسول حسان في دمشق ، وقد قرأ الفتيان الثلاثة ، هذا الكتاب .

فقال أمية : ويلك وماذا صنع حرملة ؟

قال : خبرنا أن محمداً علق فتاة في القيروان ولن يرجع الى الشام ...

وجعل يقص عليهم تلك الحكاية الكاذبة التي رواها لهم الرجل الكندي ، ويصف لهم ما كان من ام كلثوم .

فابتسم محمد قائلاً : ووصف لكم غرامي ...؟

— : أجل وليس في القيروان من يعلم سر هذا الغرام غير أهل بيته .

— : وأي غرض له ؟

— : فعل ذلك بأمر الريان ، وتظن مولاتي أم كلثوم ان اليد يد عبد الملك، وهو يريد ان يجعلها زوجة للكوثر بن زفر .

وذكر لهم عندئذ كل شيء ، ولم ينس خيانة مرة ، ثم قال : وان حرملة سيأتيكم اليوم ، وسيمضي في أمره الى النهاية .

— : وماذا ترى أم كلثوم ؟

— : ترى ان تتظاهر بتصديق ما يقوله الك دون ان تتردد في ذلك .

— : لماذا ؟

— : لكي يقوم في ذهن الريان ، أن الأمر قد استقام له ، وأن الواحد منكما ـ أنت وأم كلثوم ـ قد ابتعد عن الآخر ..

— : فيكف الريان عندئذ عن الأذى ؟؟

— : نعم .

فقال سعيد : لقد فهمنا الآن كل شيء ، فصف لأمنا وأم محمد ما رأيت ، وهذه رسالة تحملها اليهما .

وقام فكتب رسالته ودفعها اليه . ثم أمره بأن يحتجب في الدار خوفاً من ان يراه حرملة ، اذا جاء ، ويتهيأ للسفر في مساء ذلك اليوم . ومرت ساعتان ، والثلاثة يتحدثون بأمر الريان حتى اقبل حرملة ، وقد أعدوا العدة لاستقباله..

وكانت الكآبة على وجه الرسول اللعين ، وهو لا يعلم ان العبد الذي يقال له بكير ، قد سبقه الى القيروان .

فقال سعيد : متى رجعت من الشام ؟

— : منذ ساعة .

— : ومعك رسالة من أمير المؤمنين الى حسان ؟

— : نعم وهو يأمره فيها بالزحف الى قتال الكاهنة .

— : ورأيت أم محمد وأم أمية ؟

— : رأيت الجميع ونقلت اليهم ما أمرت به . ثم حنى رأسه وجعل ينظر الى الأرض .. فقال له : يخيل الى الناظر إليك أنك تحمل أخبار سوء ...

فلم يجب .. ولكن شفتيه كانتا ترجفان ...

قال : اذكر ما رأيته ولا تكتمنا شيئاً .

ـ : كل شيء في دمشق على ما تحبون ، إلا حادثاً خطيراً ليس لي بـــد من ذكره ..

قال : ويلك ، أمات أحد من آل عمرو ؟

ـ : لا .

ـ : أمات أمير المؤمنين ؟

ـ : لم يمت أحد .

ـ : إذن خرج الناس في الشام عن طاعة الخليفة ...

ـ : الشام وأرض العرب كلها تدين لعبد الملك .

ـ : إذن ماذا ؟

قال : أأقول ما أعلم ؟

ـ : قل ما تعلم ولا تخف ..

قال : ان أختك أم كلثوم نكثت عهد محمد ...

فاهتز محمد كما يهتز الغصن النضير بين يدي العاصفة ، ثم قال : أم كلثوم تنكث العهد وتنسى الخطبة ؟

ـ : ذلك ما جرى أذكره وأنا مكره .

ـ : ومن خبرك بهذا ؟

ـ : أم كلثوم نفسها ، وقد أمرتني بأن اقول لك : انسَ الماضــي فلم يبق لك أمل به ..!

فأطرق الفتى وبدت اللوعة في عينيه .

فقال أمية : يحدث مثل هذا ، ولا تكتب أمي كلمة ؟

ـ : لم تشأ أن تفعل وقد أمرتني بأن أقص عليكم ما عرفت .

ـ : وتعلم الأسباب التي اكرهت أم كلثوم على ذلك ؟

ـ : أعرفها يا بني .

ـ : ما هي ؟

ـ : هي انها آثرت على محمد ، فتى حسن الوجه ، أبوه من الأمراء .

— : ماذا يدعى ؟

— : الكوثر بن زفر صاحب قرقيسياء .

— : الكوثر بن زفر ... ! ورأيته أنت ؟

— : رأيته عندكم في الدار ، ومعه صهره مسلمة بن عبد الملك .

— : وكانت أم كلثوم حاضرة ؟

— : نعم ، وكان الاثنان يتكلمان بلغة الهوى ...

— : وأم محمد ؟

— : لا تعلم شيئاً مما جرى .

— : يظهر أن أمي ، وأم كلثوم ، إستماتتا بالكتمان .

— : أجل حتى أن غلمان مسلمة وجواريه يجهلون كل شيء .

— : ومن حمل أم كلثوم على نكث العهد؟

— : الرباب زوجة الأمير فقد أقسمت ان تزف أم كلثوم ، الى أخيها الكوثر ، ولو غاصت دمشق في بحر من الدماء ...

قال : يفعلون كل ذلك دون ان يكون لنا رأي ؟ أنه أمر لا نطيقه ولا نرضى به ..

— : ولكنه قد تم الآن ...

— : لم يتم شيء ، وستعود أنت الى الشام ، بعد يومين ، حاملاً اليهم رسالة تفسد عليهم ما فعلوه .

فابتسم قائلاً : أما أنا فلن أرجع .

— : لماذا ؟

— : لأن رسالتك ستضيع ، كما ضاع رجاء هذا الفتى .. وأشار الى محمد ..

قال : بل تعود ، وسترى اني أفعل ما أشاء وأنا في القيروان .

— : ولكنك نسيت أن مسلمة جرّ أباه عبد الملك ، وعبد الملك اليوم ، يتولى الأمر بنفسه ..!

— : وأي شأن له ؟

ــ : أتقول أي شيء لأمير المؤمنين ، وهو الذي يتولى أمور المسلمين في كل قطر ولا يغفل عن شيء ؟

وابتسم ابتسامة أخرى ثم قال : ونسيت ايضاً ، أن الرأي رأي الرباب ، وعبد الملك يعطف عليها ويحبها كما يحب زوجها الذي هو ولده ..

فتظاهر أمية بالتفكير . ولكن سعيداً كان يقول : لقد صدق حرملة ، فالأمر قد انتهى الآن ، ولم يبق الا أن يختار محمد فتاة من القيروان .

ــ : ذلك ما أراه يا بني ، وفي القيروان طوائف كثيرة من الحسان .

فقال محمد : أشكر لكما هـذه العاطفـة .. ولكني لا أفكر اليوم في الزواج .

فهامس سعيد حرملة قائلاً : لقد قتلت أم كلثوم محمداً ..

ثم قال : اذا رجعت مرة أخرى الى الشام ، بأمر حسان ، فلا تفعل الا اذا رأيتك، لأن لي ما أقولهلك.

قال : اني طائع كما تعلم ولا أنقـــل من هنا قدماً الا اذا كان لـك في ذلك رأي .

قال : ألم يهب لك أمير المؤمنين شيئاً من المال ؟

ــ : لم ترَ عيني درهماً واحداً ، وأنا في دمشق .

ــ : والأمير حسان ؟

ــ : أعطاني ثلاثة دنانير من دنانير الروم .

ــ : وهذه ثلاثة أخرى لا أملك سواها الآن .

فأخذها الرجل وخرج شاكراً ، وكان يقول في نفسه :

ليبك محمد ، ولتبك أم كلثوم ، فأنا لا أبالي بغرام الاثنين .

وكان محمـد يقول للآخرين : لو لم ينقل بشر بن مروان ، الى أخيـــه عبد الملك تلك الكلمة التي قلتها في الكوفة لما خطر لعبد الملك أن يفصـل بيني وبين أم كلثوم .

فقال أمية : أتظن أن عبد الملك صاحب الفضل عليك ..؟؟

— : نعم ، ولولا جاسوسه مرة ، لما غمرني فضله ...

قال : حسبنا الآن أن مرة أمسى من الخاصين وسنقاتل عبد الملك ورجاله بالسلاح الذي يحاربوننا به كما قالت أم كلثوم .. أخرج يا بكير ..

فخرج الرجل وهو يضحك ، ثم خفض صوتـــه قائلاً : لو أذنتم لي لمشيت الآن الى حرملة وانتزعت روحه .

فقال محمد : خير لنا أن يبقى ، فيد الله فوقه وفوق الذين علموه ..

قال : إذن خبروا حسان ..

— : لا تخبر أحداً فحسان أضعف من أن يمد أصبعه في أمر لعبد الملك غاية و هوى فيه ... إذهب وقص على أهلنا ما علمت واحذر أن يراك حرملة .

قال : لا أخافه لأنه لا يعرف من أنا .

فودعهم وانصرف ، وقد ملأوا يديه من المال الذي حمله اليهم من دمشق ..



١٧

كان عبد الملك ، يكتب في صدور رسائله الى الروم هذه العبارة :

« قل هو الله أحد » ويذكر النبي مع تاريخ الكتاب .

فكتب اليه ملك الروم : ترد علينـــا في رسائلكم ، كلمات لا نطيق أن تكتبوها لنا بعـــد اليوم ، فاتركوها ، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر النبي ، ما تكرهون .

فدعا عبد الملك ، خالد بن يزيد بن معاوية وقال له : خـــذ واقرأ كتابه الملك الرومي .

فلما قرأه خالد قال : لا تكف عن ذكر الله والنبي .

ــ : وماذا نصنع اذا كتب الروم على دنانيرهم ما نكره ؟

ــ : تحرم أنت هذه الدنانير ، وتضرب للناس دنانير ودراهم فيهـا ذكر الله تعالى ، ففعل الخليفة ما أشار عليه به ، وهو أول من صنـع ذلك في الإسلام ، وكتب الى ملك الروم : إفعل ما يطيب لك ، وبينما هو ينظر في ذلك ، ويلمس دنانيره الجديدة بيده ، أتاه كتاب من الحجاج يقول له فيه : أن شبيباً قد شارف المدائن وهو يريد الكوفة وقد عجز أهلها عن قتاله في مواقع كثيرة .. يقتـل أمراءهم ، ويهزم جنودهم .. فان شئت فابعث اليه جنداً من الشـام يقاتلونه ويأخذون خراج العراق .

فقال عبد الملك لرجال مجلسه : ما رأينا أضعف شأناً من أهل الكوفة .. أين سفيـان بن الأبرد الكلبي ، وحبيب بن عبـد الرحمن الحكمي ، فطلب الرجلان ، فمثلا بين يديه ، فقال : يخرج سفيان في أربعة آلاف من أهل الشام ، ويخرج حبيب في ألفين ، حتى يقدما العراق ، ويقاتلا هذا الخارجي الذي يقال له شبيب بن يزيد .

ثم قال : ولو بقي في الشام رجال سيف ، لأرسلنـاهم جميعهم الى قتاله .. وأوصى القائدين بأن يستعينا برأي الحجاج . فانصرفا ليعـدّا عدّة الحرب .

وكان الحجاج يتهيأ للحرب ، وقد دعا الكوفيين فقـال لهم : ان لم تدافعوا عن بلادكم ، بعثت الى قوم هم أطوع وأصـبر على الشـدة ، فيقاتلون عدوكم ويأكلون خراجكم .

فقـام النـاس من كل جانب يقولون : نحن نقـاتلهم فولّ الأمـير الذي تشـاء .

ثم قام زهرة بن حوية ، وهو شيخ كبير ، لا يستطيـع النهوض إلا اذا أخذ بيده ، فقال : أصلح الله الأمير ، انما تبعث الناس الى شبيب جماعة بعد جماعـة وليس في ذلك رأي .

ــ : وماذا إذن ؟

ــ : أندب الناس جميعاً ، واجعل أميرهم ، رجلاً شجاعاً مجرباً صـادق

العزيمة ، يرى الفرار عاراً والصبر مجداً .

فقال الحجاج : أنت ذلك الرجل .

قال : أصلحك الله انما يصلح الرجل الذي يحمل الدرع والرمح ويهز السيف ، ويثبت على فرسه ، وأنا لا أطيق شيئاً من هذا ، ولكن اخرجني مع الأمير في الناس ، فأكون معه ، وأشير عليه بما أعلم .

قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله في أول أمرك وآخره فقد نصحت ، ثم قال : أيها الناس . سيروا جميعاً .

فانصرفوا يعدون عدتهم وهم لا يعلمون من هو الأمير الذي يوليه الحجاج .

وخطر للحجاج عندئذ أن يولي عتاب بن ورقاء . فجمع النــــاس فقال : أستشيركم في الرجل الذي سيقود الجيش ..

قالوا : رأيك أفضل

قال : أنبعث الى عتاب ؟

فقال زهرة بن حوية : إفعل ، فوالله لا نرجع اليك حتى نظفر أو نموت ، فأرسل الى عتاب ، فندبه للأمر ، وأقام الناس حتى قدم جيش الشام وعليــه حبيب وسفيان ..

فقال له قبيصة بن والق : لقد انتهى جند الشام الى العراق ، وإن أهـــل الكوفة قد هزموا من قبـــل ، وهان عليهم الفرار ، فكأن قلوبهم ليست في صدورهم .

قال : أصبت .

- : فان رأيت أن تبعث الى أهـــل الشام ، ليحذروا ولا يثبتوا إلا وهم محتاطون للأمر ، فافعل ...

قال : انك كثير الحذر يا قبيصة .

- : وكيف لا أكون كما ذكرت ، وأنت تحارب رجـــلا لا تراه في أرض حتى تراه بعد ساعة ، في أرض أخرى ، وأنا لا آمن أن يأتي أهل الشام في ليلة مظلمة فيهلكهم ونهلك نحن . ثم يهلك العراق .

قال : لله أبوك ما أحسن ما أشرت به، وأرسل رجالاً يحذرون أهل الشام، ويدعونهم الى الاقامة بمكان يقال له عين التمر ، فأتوا عين التمر وعسكروا فيها ، وانصرف عتاب بجيشه فنزل مكاناً آخر يقال له حمام أعين ، وبين الجيشين فراسخ كثيرة ، الأول في ضواحي الكوفة ، والآخر في البصرة .

وكان شبيب قد انتهى الى مدينة بهرشير ، وعلى المدائن ، مطرف بن المغيرة بن شعبة . فقطع مطرف جسر دجلة ، وأرسل الى شبيب يقول : إبعث إلي رجالاً من وجوه أصحابك ، أنظر فيما يدعون اليه ، وخذ مني رهائن الى ان يعودوا . فبعث اليه بضعة رجال من أهل الرأي ، فأقاموا عنده أربعة أيام دون ان يتفقوا ، فلما رجعوا الى شبيب ، قال لأصحابه : كنت أريد أن آتي أهل الشام على غرة ، قبل أن يتصلوا ببلد مثل الكوفة ، وأمير مثل الحجاج .

— : والآن ؟

— : لقد خبرني أصحابي أن أهل الشام في عين التمر ، وأن عتاباً ومن معه بالبصرة ، فما أقرب ما بيننا وبينه . قالوا : نسير اليه ، ومشوا وظلام الليل يحجبهم عن العيون ، ولكن خبرهم انتهى الى عتاب ، فتعجل في مسيره الى القوم ، ووراءه من رجال السيف أربعون ألفاً ، ومن الشباب والأتباع عشرة آلاف . أجل ، زحف عتاب بن ورقاء ، الى قتال شبيب بن يزيد ، في خمسين ألفاً من الرجال ... وكان الحجاج قد قال لهم حين خرجوا : ان للبطل الصابر الكرامة ، وللهارب الهوان والجفاء ، ووالله الذي لا إله غيره ، لئن فعلتم هذه المرة ، كما فعلتم من قبل ، لأعركنكم بكلكل ثقيل .

وبلغ عتاب موضعاً يدعى « سوق حكمة » ، وشبيب هناك ، وأصحابه ألف رجل ...

فلما رآهم ، نزل فصلى المغرب وعتاب يعبي أصحابه ، وينظم صفوفه ..

جعل في الميمنة ، محمد بن عبد الرحمن بن قيس ، وقال له : إنك يا ابن أخي شريف صابر ، فقال : والله لأصبرن ما ثبت معي انسان ، ثم قال لقبيصة بن والق : اكفني الميسرة .

قال : اني شيخ كبير كما ترى ، لا أقدر على ذلك .

فمهد في أمرها ، الى نعيم بن عليم . وبعث حنظلة بن الحرث ، وهو ابن عمه ، وشيخ أهل بيته ، على صفوف المشاة الثلاثة ... صف أصحاب السيوف ، وأصحاب الرماح ، والرماة ، ثم سار في الناس يحرضهم على القتال ويقول :

أين من يقص على الجيش اخبار الابطال من العرب ؟

فلم يجبه أحد

فقال : أين من يروي شعر عنترة ؟

فلم يجبه أحد ، فقال : انا لله ، كأني بكم قد فررتم من عتاب بن ورقاء... وتركتموه ، مضرجاً بدمه ، في هذا المكان ..

ثم أقبل ، حتى جلس في القلب ، ومعه زهرة بن حوية جالس ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأبو بكر ، بن محمد ، بن أبي جهم .

وقيل لشبيب في تلك الساعة : لقد تخلف عنك أربعمائة من أصحابك ، فقال :

تخلف عنا ، من لا نحب أن يرى فينا .. وقام فجعل سويد بن سليم ، في الميسرة ، والمحلل بن وائل في القلب ، ومشى هو في مئتين الى الجناح الأيمن . وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمر .

ثم ناداهم قائلاً : لمن هذه الرايات ؟

فقالوا : رايات لربيعة ، قال : طالما نصرت الحق ، وطالما نصرت الباطل ، والله لأجاهدنكم محتسباً ... أنا شبيب ، لا حكم إلا لله فاثبتوا ان قدرتم .

وحمل عليهم ثم غاص في الصفوف . فثبت أصحاب قبيصة ونعيم بن عليم ، قليلاً ثم قتلوا ، وانهزمت الميسرة كلها ، وسمع أحدهم ينادي : قتل قبيصة .

فقال شبيب : وسيقتل غيره ... ثم وقف عند جثته وجعل يقول : ويحك لو ثبت على إسلامك سعدت ..

والتفت الى أصحابه قائلاً :

أنظروا هذا الرجل ، إنه أتى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ؟ فأسلم ، ثم جاء اليوم يقاتلكم مع الفسقة .

وحمل عندئذ على عتاب ، وهو في القلب . وحمل سديد بن سليم ، من الناحية الأخرى ، على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمن وجعل يقاتـــل في رجال من تميم وهمدان . وراجت سوق الموت ربيحت الأرواح . وعتاب جالس في مكانه مع زهرة ، وحولهما بعض الرجال ، حتى غشيهم شبيب ومن معـــه ، فقال : يا زهرة ، هذا يوم كثر فيه العدد وقل فيه الصبر وآلهفي على خمسمئة فارس من تميم ..

فقال زهرة : أبشر فاني أرجو أن يكون الله عز وجل قد أهدى الينا الشهادة عند فناء أعمارنا ودنا شبيب من عتاب ، فوثب في عصابة قليلة صبرت معه ، وقد تفرق الناس .

فقيل له : أن عبد الرحمن إبن الأشعث قد هرب ، فقال : مـــا رأيت ذلك الفتى يبالي بما يصنع .

ثم قاتلهم ساعة قتال بطل يستخف بالموت . حتى رآه رجـــل من أصحاب شبيب ، يقال له عامر بن عمر التغلبي ، فحمل عليه فطعنه فقتل . ووطئت الخيل زهرة بن حوية ، فجعل يدافع بسيفه لا يستطيع ان يقوم حتى ضربه الفضل بن عامر الشيباني فأرداه .

وانتهي اليه شبيب فرآه صريعاً فقال : هذا زهرة بن حوية .. اما والله لئن كنت قتلت على ضلالة لرب يوم من ايام المسلمين حسن فيه بلاؤك وعظم فيـــه غناؤك ، ولرب خيل للمشركين فرقتها ، وقرية من قراهم فتحتها ثم كان في علـــم الله أنك تقتل ناصراً للظالمين .

فقال له أحد أصحابه : أتتوجع لرجل كافر ؟

قال : لست بأعرف من ضلالتهم مني ؛ ولكنني أعرف من قديم أمرهم ما

لا تعرف ، ولو ثبتوا على ما كانوا عليه لكانوا اخواننا .

ثم نادى : ارفعوا السيف ...

ودعا الناس الى البيعة . فبايعوه ، ثم هربوا قبل أن يبزغ الفجر ، واقام شبيب يومين ، ثم مشى الى ناحية الكوفة ، ونزل بلداً بينه وبين البصرة يقال له سورا ، وقتل عامله ، وكان سفيان بن الأبرد ، وأهل الشام قد دخلوا الكوفة فاستغنى بهم الحجاج عن أهل الكوفة ، ثم قام على المنبر فقال :

يا أهل الكوفة : لا أعز الله من اراد بكم العز ، ولانصر من اراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، لا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ولا يقاتل معنا الا من لم يشهد قتال عتاب .

ودعا الحرث بن معاوية الثقفي فقال له : اخرج في ألف رجل من رجال الشرط وغيرهم ، الى قتال شبيب بن يزيد فهو في سورا .

ففعل ما أمره به ، ولكن شبيباً لم يكن غافلاً عما يصنعه الحجاج .

فلما خرج الحرث ، تعجل هو اليه ، فقتله وهزم اصحابه ، وجعل يدنو من الكوفة ، حتى انتهى الى السبخة وابتنى بها مسجداً .

فجعل الحجاج مواليه على أبواب البلد ، ثم أخرج مولى له يدعى ابا الورد ، ومعه غلمان له أمرهم بقتاله .

فحمل عليه شبيب فقتله وجعل يقول : ان كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه .

ووجهه الحجاج مولى آخر يدعى طهمان ، فقتله وقال : إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه .

فلم يبق الا ان يخرج الحجاج نفسه ، فطلب بغلاً يركبه الى السبخة ، فأتي به ، فركبه ومعه أهل الشام .

حتى رأى شبيباً فنزل ، ودعا بكرسي فقعد عليه ونادى رجال الشام قائلاً لهم :

أنتم أهل السمع والطاعة واليقين فلا يغلبنكم هؤلاء ، غضوا الأبصار ،

واجثوا على الركب ، وقاتلوا بأطراف الأسنة .

ففعلوا ، وأقبل شبيب في كتاب ثلاث ، إحداها معه ، والثانية مع سويد بن سليم ، والأخرى مع المحلل ، وقال لسويد :

أحمل عليهم في خيلك .

فحمل ، فثبتوا له ، ووثبوا في وجهه ، يطعنونه بأطراف الرماح ويدفعونه الى الوراء ، حتى تراجع هو وأصحابه .

فصاح الحجاج : هكذا فافعلوا . وأمر بكرسيه فقدم فحمل المحلل عندئذ بأمر شبيب ، ففعلوا به كما فعلوا بسويد ، فقال الحجاج:

أحسنتم .. بارك الله في بلد أنتم منه ، وأمر بكرسيه فقدم .

ثم أن شبيباً حمل عليهم في كتيبته ، فقابلوه طويلاً وطاعنوه حتى الحقوه بأصحابه .

فلما رأى نفاذ صبرهم نادى : يا سويد، أحمل بأصحابك على أهل هذا الطريق ، لعلك تزيل أهلها وتأتي الحجاج من ورائه ، ثم نحمل نحن من الأمام .

فتقدم سويد ، ولكن النبال سقطت عليه من سطوح المنازل ..

فتراجع وهو يقول : إن السماء أمطرتنا سهاماً .

وكان الحجاج قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة وراءه ، في ثلاثمائة رجل من أهل الشام .

فجمع شبيب أصحابه ليحمل بهم ، فقال الحجاج : اصبروا لهذه الشدة الواحدة ثم يأتي الفتح ...

فجثوا على الركب ، وحمل عليهم شبيب بجميع رجاله ، فوثبوا في وجه ، وما زالوا يطاعنونه ويدفعونه حتى أكرهوه على التراجع .

فأمر جيشه عندئذ بالنزول وأقبل يصفهم .

وجاء الحجاج حتى انتهى الى مسجد شبيب ثم قال : يا أهل دمشق هذا أول الفتح .

ودخل ، وحوله جماعة معهم النبل ، يرمون بها الناس الذين يدنون منه .

ودار رحى القتـــال عامة النهار ، وإنه لقتال لم ير الناس أشد منه ، حتى أقر كل فريق لصاحبه .

ثم أن خالد بن عتاب قال للحجـــاج : ائذن لي في قتالهم أيها الأمير لاثأر لعتاب ، فاذن له .

فخرج في طائفة من أهل الكوفة . وأتى جيش شبيب من الوراء ، فقتـــل امرأته غزالة ، وأخاه .

فصاح الحجاج : احملوا عليهم فقد دب الذعر في صفوفهم .

فاغاروا ، فهزموهم ، وتخلف شبيب في حاميــة الجند فارسل الحجاج الى قواده يقول : اتركوه ...

فتركوه ورجعوا مع أميرهم الى الكوفة ، وكان الحجاج يقول للنـــاس: والله ما قوتل شبيب قبلهم وولى هارباً .

ثم دعا حبيب بن عبـــد الرحمن الحكمي ، وبعثه في ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام وقال له :

انزل حيث تلقاه فإن الله قد فلّ حده .

فخرج في أثره حتى نزل الأنبار . وجعـــل أصحابه أرباعاً وكان يقول : ليمنع كل ربع منكم جانبه .

فأتاهم شبيب وهم على تعبية ، وحمل على ربع فقاتلهم طويلاً فما زلت قـــدم إنسان عن موضعها .

ثم تركهم وأقبل على أربع أخر فكانوا كذلك .

ثم أتى الربعين الآخرين ، فما برح يقـــاتل حتى انقضى الهزيع الثالث من الليل ، ولم يكتب له النصر .

ثم نازهم راجلاً ، فسقطت من الناس الأيدي ، وكثرت القتلى .

وقد خسر شبيب ثلاثين رجلاً ، وأهل الشام مئة رجل .

واستولى التعب والاعياء على الطائفتين ، حتى أن الرجل ليضرب بسيفه فلا

يجرح و لا يصنع شيئاً، وحتى أن الرجل ليقاتل جالساً فما يستطيع أن يقوم من تعبه ، فلما يئس شبيب منهم ، تركهم وانصرف .

ثم عبر دجلة عند واسط ، ومشى الى الأهواز ، ثم إلى فارس، ثم الى كرمان، ليستريح هو ومن معــه ، وجواسيس الحجــاج يتبعونه من مكان الى آخر ، وينقلون اليه أخباره ، وهو يعد ، العدة للقضاء عليه .

وقــد بذل لسفيــان بن الأبرد ، قائد جيش الشام ، مالاً كثيراً يشتري به طاعته وإخلاصه .

فلما أقام شبيب بكرمان ، أمر الحجاج سفيان ورجاله بالزحف الى قتاله ، وكتب الى الحكم بن أيوب زوج ابنتــه ، وهو عامله على البصرة ، يأمره بأن يسيّر أربعة آلاف فارس الى سفيان .

وخرج ابن الأبرد حتى لقي شبيباً على جسر الاهــواز . فاقتتلا قتالاً شديداً حتى غربت الشمس ، ثم اقتتلا في اليوم الثــاني مستهينين بالموت دون أن يظفر الواحد بالآخر .

حتى حمل شبيب أكثر من ثلاثين حملة وأهل الشام لا يتراجعون .

وكان اليوم الأخير، يوم ذعر وخوف. فقد طاب الموت لشبيب وأصحابه . . .

وكان سفيان يقول لرجاله : لا تتفرقوا ، وازحفوا اليهم زحفاً .

ولكن أهل الشام رأوا في ذلك اليوم . ما لم يروا مثله ، وأيقن سفيــان بأنه عاجز عن بلوغ غايتــه ، فأمر الرماة بأن يرسلوا سهامهم . وذلك عند المساء . . .

ففعلوا ورموا شبيبة ساعة . . .

فرجــع اليهم فقتــل منهم أكثر من ثلاثين ، ثم عطف على سفيــان ومن معه فقاتلهم حتى اقبل الليل ، ثم انصرف الليل ، ليعبر الجسر الى مكانه .

فقال سفيان لأصحابه : لا تتبعوهم .

وانتهى شبيب الى الجسر فقال لقومه : اعبروا ، فاذا أصبحنا باكرناهم ان شاء الله . . .

فعبروا أمامه وهو ينظر اليهم حتى انتهوا ، فأقبـــل ليعبر وهو على جواد له .. وكانت بين يديه فرس أنثى ،

فزل جواده وسقط في الماء فقال هذا قضاء الله .

وانغمس ثم ارتفع ، ثم انغمس ثم ارتفع ، حتى غرق .

وكان أهل الشام يريدون الإنصراف .

فأقبل صاحب الجسر فقال لسفيان :

ان رجلاً منهم سقط في الماء وسمعتهم يقولون : غرق أمير المؤمنين .

فكبر سفيان وأصحابه ومشى الى الجسر ، ثم بعث رجـــلا الى معسكر شبيب فلم يرَ احداً. فأخذ ما فيه، ثم أبصر عندالصباح جثة شبيب فاستخرجها، وشق أحدهم جوفه وأخرج قلبه ...

وكان قلباً صلباً كأنه قطعة من حجر .



تمت رواية محمد وأم كلثوم

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن
١٢
ل.ل.